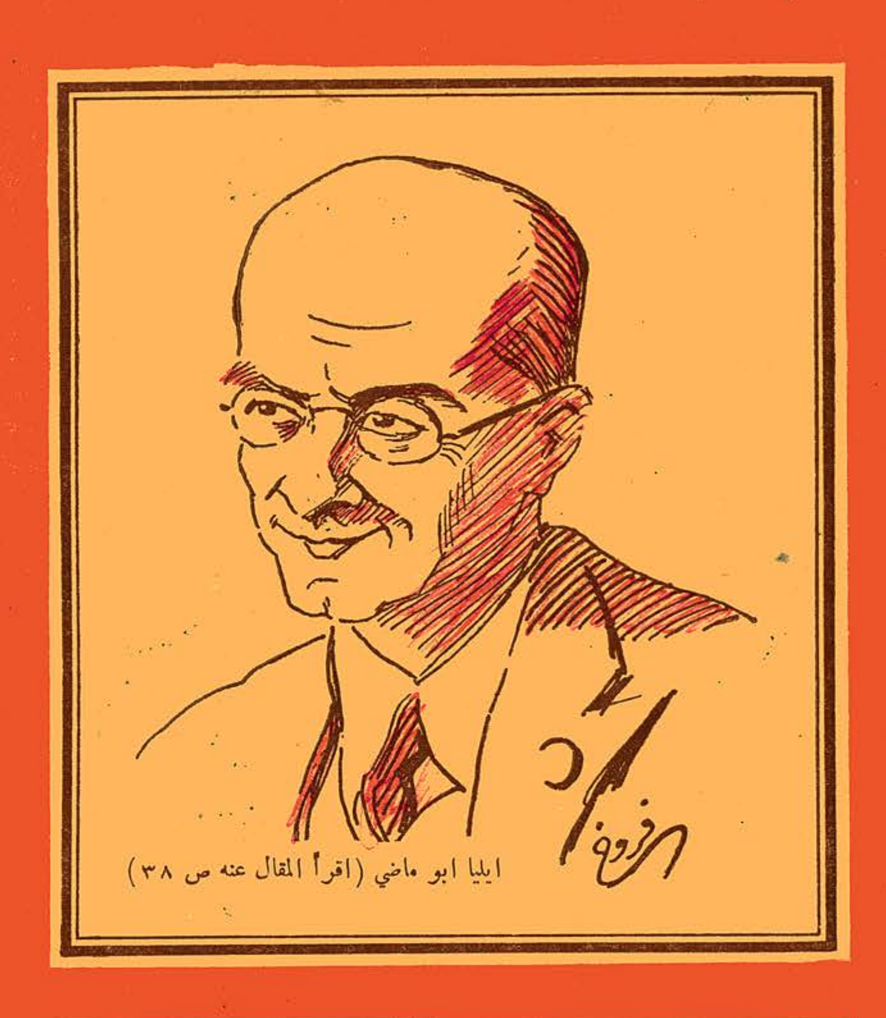


مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر



ايليا ابو ماضي (اقرأ المقال عنه ص ٣٨)

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

شباط (فبراير) ١٩٥٣

العدد الثاني . السنة الأولى

الآداب

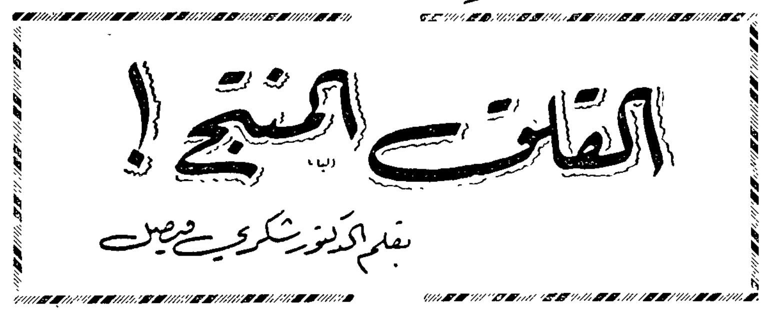
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

اصحاب الامتياز : منير البعلبكي ، سهيل ادريس ، بهيج عثمان

AL-ĀDĀB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban. B.P. 1085

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس



أقول تهمة شنيعة وأنا أتجنب مجموعة من الالفاظ القاسية التي تنثال على قلمي فلا أجد لفظة أخرى أطرى حاشية . . فالشباب الذين يجب أن يكونوا دائماً اللهب والنور ،والشباب الذين يجب ان يكونوا دائماً الموجين والدافعين، الشباب الذين يضطرمون كما تضطرم أعماق الأرض حتى تنشق عن الدفقة الدافقة والنبع الغزير.. هؤلاء الشباب لايحيون اليوم في هذا العالم العربي الحياة التي يجب ان يحيوها قوة اندفاع ، وبعد غاية، وصوفية نفس ، وورع ضمير،لايستحل من امور الدنيا إلا أطيب الحلال ، فاذا عرض له ما هو أدنى إلى الشك أو أقرب الى الريبة اطّرحه وجفاه . .

هـذا الشباب الذي يعيش اليوم في العالم العربي ، ما هي الغايات الكبرى التي نذر نفسه لها ووقف جهده عليها وأولاها قلبه وعقله،ايمانه ويقينه ؟ .. أي شيء يملأ حياة هذا الشباب من كل اقطارها فيمركزها ويركّزها ؟ ما هي وجهة هذا الجيل الجديد الذي تستقطب فيه ، في الأمم الناهضة ، آمالها وآلامها ، فيكون اتجاهه اتجاهها ، ورغبته رغبتها ، وتطلّعه تطلّعها ؟ .. هل يعيش في نطاق هذه الغايات الكبرى التي يجب أن يعيش لها أم هو منحرف عنها ؟ هل يتجه وجهتها أم هو مصروف عنها ، يكسو غاياته هذا الضباب الذي لا يتبين معه الوسيلة ولا يهتدي الى الطريق ؟

الواقع ان النظر الى العالم العربي من زاوية شبابه — أعني شبابه الذي أصاب حظاً من الثقافه وادرك نصيباً من المعرفه،وتنوعت اهتماماته النفسية والفكرية — النظر الى العالم العربي من زاوية اكثر شبابه هؤلاء ، لايبعث على كل التفاؤل ، ولا يثير كل الفرحة، ولا يبرىء هذا الشباب من تهمة شنيعة هي تهمة القصور والقعود .

***

وأنا أقدر أن مقدمة هـذا الحديث ستثير الدهش عند كثيرين ، وستثير كذلك الاعتراض عند كثيرين غيرهم ، غير ان ذلك لن يمنعني من أن أمضي أسأل هذا الفريق الدهش أو هذا الفريق الآخر المعترض أين يقف شبابنا من معركة الحياة التي يحياها العالم ؟ . . بل أين يقف شبابنا من موقف الشباب الذين تقدّموهم في الجيل الماضي حين كانت

البلاد العربية تعاني أزمة الانفصال عن الدولة العثمانية وتشق الطريق الى غاياتها ؟ ..

ان أحداً لا يستطيع أن يقول ان شبابنا العربي اليوم يمضي حيث يجب أن يمضي .. ومن الغريب أنه منذ ان اخذت معارك التحرير مع الاجنبي تعطي ثمارها في بعض الاقطار العربية،اخذ يتسرب الى نفوس الشباب العربي شيء من الاستسلام ، وداعبت الجفون ورنّقت فوقها أطياف النوم ، وساور الخمول ، الخمول النفسي ، هذه الطاقات التي كانت متفجرة ، وعاش هذا الشباب في جوّ هو شر من كل شيء لأنه لا يرقى الى الحركة ولا يتصل الاتصال كله بالاستسلام .

وتنثال عليّ وأنا أملي هذه الكلمات ذكريات من ماضينا القريب .. حين كنا حفنة من الفتيان في المدارس الثانوية، او حين كنا حفنة من الشباب في الجامعة السورية في دمشق او في الجامعة المصرية في القاهرة ، من اكناف العالم العربي كله ، وتمرّ بي من خلل هذه الذكريات احداث ضخمة لم يكن عصبها ووقودها غير هؤلاء الشباب .. واعود بعدُ انظر فيمن بين يدي من شباب هذا الجيل في الجامعة او في المدارس الثانوية فلا اجد شيئاً .. لا اجد لا نفس العزمة ولا نفس الاندفاعة ولا نفس التجرد السامي الذي كان يطبع حياتنا وتصرفاتنا في الجيل الماضي القريب .

***

في رأيي ان كل هذا الذي نحسه من خشية وقلق على جيلنا هذا الناشيء،يمكن ان يرتد الى اننا نخاف عليه من عدوّ واحد .. هذا العدو هو الرضا .. الرضا والقناعة التي اخذت تتسرب عنده وتعدو مظاهر الحياة الخارجية الى اعماق الحياة النفسية .

وما من عدوّ آخر اشدّ على العالم العربي من هـذا الرضا ، وما من عدوّ آخر أفثأ لحدّة شبابه وأقتل لحيويته من هذا العدوّ .. فالرضا والقناعة واعتبار أن الذي نراه هو الذي كنا نحبّ ان تكتحل به اعيننا، هو وقوف بالمثـل الأعلى عند أدنى الحدود ، وعمى غريب عن القمم المتتاليه التي ينزاح عنها الضباب كلما اقتربنا منها .

ان حالة الشباب العربي في كثير من اقطاره تشبه حال الذي استطاع ان ينشل نفسه من اعماق واد مظلم ، فلما بلغ متكأ الجبل على حفافي هذا الوادي ، ظن انه بلغ كل شيء .. فاطمأن . . اطمأن على حين لا تزال من أمامه بعدُ غايات وغايات .

وقد ترك هذا الاطمئنان آثاراً بعيدة لا في الاقطار العربية نفسها ، بل في ترابط ما بين هـذه الاقطار .. وترابطُ ما بين هذه الاقطار هو الذي يجب ان يكون دائماً اول ما نفكر فيه ورأس ما نعمل له .

ومن المؤسف اننا في هذه الاقطار المختلفة لا نعيش الآن الالام التي يعيش فيها كل قطر ، ولا نحيا الأزمات والتجارب ، نفسياً على الأقل ، التي يحياها القطر الآخر . فقد افلحت او اوشكت ان تفلح أوضاعنا الذاتيـة في ان تصرفنا عن المشكلة الكبرى : مشكلة حياة كل طرف من اطراف هذا العالم العربي ، وحياة كل فرد منه ، من اقصى المحيط الى اقصى الخليج .

والى جانب ذلك ترك الاطمئنان والقناعة في حياتنا الداخلية كذلك آثاراً عميقة .. إنه حدّ من ترامي مثلنا الاعلى،وضيّق من آفاقه ، وجعلنا ندور حول أنفسنا ، يأكل بعضنا بعضا دون ان نستطيع قهر آلامنا والتغلب على مخاوفنا .

***

الرضا والقناعة والاستسلام .. هذه هي الأشياء الثلاثة التي يجب ان نردّها عنا في هذه الأجزاء من وطننا العربي الكبير .. يجب ان يلهبنا دائماً القلق ، وان يسمو بنا كل لحظة التطـّلع ، وأن تنساق بنا اهدافنا في مدّ .. مدٍّ متصل لا جزر فيه .

ان الاطمئنان اول الخمول ، والخمول اول الموت ، والموت هو الذي يريده لنا اعداؤنا . . فلنحارب اذن هذا الذي نسميه الاطمئنان ونسميه الاستقرار ، حتى نستطيع ان نحارب اعداءنا .

ولن ينفع الشباب العربي اليوم إلا ان يكون في مثـل البركان ، مصدر اللهب الذي في اطرافه هو اللهب الذي يضطرم في اعماقه .. أما ان تبرد الأعماق وتبقى آثار اللهب على الأطراف ، فذلك هو جماع المظاهر الخادعة .

حين قلت في اول هـــذه الكلمة ما الغايات الكبرى لهذا الشباب العربي . . اي شيء يملأ حياته .. كنت أعني هذه الغاية الكبرى . . أعني القلق المنتج والتطلع الواثب .

اننا نتحدث دائماً عن ازمات وامراض ، وعن مذاهب وخصومات . . ولكننا ننسى ان هنالك ازمة واحدة ضخمة هي ازمة شباب . . شباب يؤمنون ويعملون . . يؤمنون بأنفسهم ويعملون لوطنهم الكبير .

أفلست معي اذن في ان شباب العرب ليسوا شباب العالم العربي،وانما هم شباب يعيشون في العالم العربي .. ولا يعيشون له ؟ !

دمشق — شكري فيصل

الادب والدولة

بقلم ميخائيل نعيمه

ليس من ينكر ان للأدب أبعد الأثر في تكوين الامم ، وتوجيه مجاري حياتها. إلا انه من الصعب، بل من المستحيل ، تحديد ذلك الاثر وتقدير قيمته ومداه . ذلك لانه لا ينحصر في ناحية دون اخرى من نواحي الحياة البشرية . فهو في العقل وفي القلب ، في الروح والجسد ، في الحقل والمعمل ، في السجن والمدرسة ، في دواوين الحكم وفي المعابد ، في المناجم والمصانع ، في المساكن والمتاجر ، في المتاحف والمكاتب ، في ساحات الوغى ودور الملاهي ، وفي كل ما يتصل بالانسان من قريب او من بعيد .

هذا كلام لا مجاز فيه ولا مغالاة ، بل هو دون الحقيقة بكثير ، واضيق من ان يتسع لكل وجوهها . وها هم الكتاب والنقاد والمؤرخون ما ينفكون يبحثون تأثير هذا الكاتب او ذاك في حياة تلك الامة او هاتيك بل في حياة الانسانية بأسرها، وبالاخص في الانقلابات الكبرى التي شهدتها البشرية على مر العصور ، وأقربها الينا الثورة الفرنسية والاميركية والروسية. فهل من يجهل ان موليير وفولتير وروسو وهيغو وبلزاك كانوا ملوكاً بغير عروش وكانوا أبعد أثراً في تاريخ بلادهم وتاريخ العالم من الجالسين على العروش في أيامهم ؟ وان بوشكين وتولستوي وتورغينيف ودوستويفسكي وغوركي كانوا أباطرة غير متوجين واعظم سلطاناً من أباطرة الروس الذين عاصروهم؟ وان غيتي وشيلّر ونيتشه وماركس كانت — وما تزال — لهم مملكة اين منها مملكة فردريك الكبير وغليوم الثاني ؟

ونحن لو جئنا نحلل حياتنا في هذا الشرق العربي لما استطعنا الوصول الى جذورها السحيقة ولما عرفنا الى اي حد نحن مدينون اليوم بتفكيرنا الروحي والاجتماعي والسياسي، وبنظمنا وتقاليدنا ، لادب الجاهلية ولآداب العصور التي تلت الجاهلية ، ثم لآداب باقي الامم من شرقية وغربية ، ثم للرسالات الدينية التي قامت بين ظهرانينا وانتشرت على ألسنة أسلافنا وأقلامهم وانطلقت الى العالم من تحت سمواتنا . وها هما دولة المتنبي ودولة ابي العلاء ما تبرحان قائمتين في قلوبنا وأفكارنا وقد مرّ على تأسيسها اكثر من ألف عام في حين ان دولة بني حمدان ودولة بني بويه أصبحتا من زمان خبراً من الاخبار ؟

وقصارى القول إن للأدب دولة لاتدول وسلطاناً لايحول. فما هي العلائق التي يحسن ان تقوم بينه وبين الدولة بمعناها المألوف من حيث هي هيئة منظمة وجدت لتأمين الناس على أرواحهم وأجسادهم ، وتسهيل سبل العيش لهم، والسير بهم من الضنك الى الفرج ، ومن القلة الى البحبوحة ، ومن المرض الى العافية، ومن الجهل الى المعرفة، ومن الضعف الى القوّة ، ومن التفسّخ الى الاتحاد ، ومن الفوضى الى الاستقرار ؟

تلك هي الغاية المفروضة للدولة . ولولاها لما كان من مسوّغ لوجودها . ولهذه الغاية يتحمل الناس في سبيل الدولة مايتحملون من حدّ لحرياتهم ؛ فيلقون بمقاليدهم اليها تتصرف بها حسبما تمليه حكمتها . فتشرف على مقدراتهم ، وتنظم مرافق حياتهم ، وتفرض عليهم المكوس والضرائب ، وتسنّ لهم القوانين ،وتقيم لهم شتى الدوائر والمحاكم . فوزارة للزراعة ، ووزارة للصحة ، ووزارة للتجارة والصناعة ، ووزارة للتربية ، ووزارة للحربية، الى ما هنالك من وزارات تتعدد بتعدد مرافق الحياة وأهميتها. ولكنني ما سمعت ولا قرأت حتى اليوم عن دولة أقامت وزارة للادب . ولا عبرة بوزارات خلقتها اكثر الدول باسم الفنون الجميلة او باسم الدعاية والنشر . فوزارة الفنون الجميلة تحصر جلّ همّها في المتاحف والآثار ، ووزارة الدعاية والنشر في بث الدعاية للدولة وسياستها ونشر ما يوافق غاياتها ، ومحاربة ما يخالفها . أما الادب الصحيح الذي هو اعظم وأنجع دعاية للدولة التي تنبته فحبله على غاربه ، يشقى ويسعد ، ويكبو وينهض ، ويتقلص ويمتد، ويجوع ويشبع في معزل عن الدولة، كأنه ليس منها بخلّ او بخمر، او كأنه لقيط لا ينتسب الى حيّ من الأحياء او ميت من الأموات . ولكنه ما ان ينجب اديباً

في هذه الآونة التي يحتدم فيها النقاش ، عندنا، حول حقوق الادباء على الدولة ، وواجبات الدولة تجاه هذه الفئة القائدة من الشعب ، رأت « الآداب » ان تستطلع راي أديبنا الكبير ، ميخائيل نعيمة، في مشكلة الساعة هذه ، فكتب لها هذا المقال .

متفوّقاً يتألق نوره ، ويسطو على الأفكار قلمه ، ويغزو آلاف آلاف القلوب بيانه ، ثم يبتلعه اللحد ، حتى تستيقظ الدولة من سباتها ويروح رجالها يتنافسون في تمجيد ذلك الأديب ، وتروح مدنها تتسابق في إقامة الأنصاب له و « تشريفه » بتسمية شارع من شوارعها او ساحة من ساحاتها باسمه .

أيكون ذلك من سوء طالع الادب ؟ — لا وربّ الادب ! بل هو من حسن طالع الادب ان يحيا بحيوية فيه لا في الدولة ، وان يشقّ طريقه بساعديه لا بسيف ملك او بسلطان برلمان ، وان يمشي في طريقه مرفوع الرأس عزيز الجبين من غير ان يتوكأ على عصاً غير عصاه ، ويستنير بنور غير نوره ، ويستلهم إرادة غير إرادته .

هنالك أدباء ينعون على الدولة إهمالها للادب . فهم يريدون منها ان « تشجّعهم » بابتياع قسم من نتاج اقلامهم ، او باسناد وظيفة اليهم ، او بتسخير أبواق الدولة للاشادة بمواهبهم . لقد ساء ما يبتغون . فهم من حيث لا يعلمون يبتغون لاقلامهم الرقّ . ولافكارهم الانفلاق ولمواهبهم الموت . فالدولة ماعَدَت كونها هيئة مؤلفة من رجال ذوي أغراض وذوي مطامع . حتى ولو تنزه كل رجال الدولة عن الاغراض والمطامع الشخصية بقيت للدولة أغراضها ومطامعها . ومن حقّها اذا ما انفقت من خزينتها ان تطلب ممن تنفق عليهم ان يخدموا اغراضها ومطامعها . وإذ ذاك فحرية الاديب في ادبه وَهْم من الاوهام وخرافة من الخرافات . والاديب الذي يبيع إلهامه بمال ، وإن يكن من خزينة دولته ، رحمة الله عليه من الآن والى الابد .

انه لمن الخير للادب ان يبقى طليقاً من شباك الدولة وبعيداً عن الاهواء التي تعصف بسياستها وبرجالها من حين الى حين . فلا يكون جزءاً من جهاز الحكم ، او مطية مقودها في يد الحكام . ولا ينسى انه كتلة حية في جسد الامة الحي ! وان الامة ، مهما يكن شأنها بين باقي الامم ، عضو من الاعضاء الكثيرة التي يتكوّن منها ويقوم بها الجسد الاكبر — واعني الانسانية . فالحكام يأتون سراعاً ويمضون سراعاً ، والدول تولد وتشب وتشيب وتموت . اما الشعوب فتبقى . واما الأنسانية فلا تموت . فالأدب الذي يقيم لنفسه وزناً ويعرف لذاته قيمة يجب ان يصرف همّه الى الانسان قبل حكامه ، والى الامة قبل الدولة . فلا يعير الحكام والدولة انتباهاً الاّ على قدر ما ينجرفون بالأنسان عن طريقه القويم او لا ينحرفون .

وانه لمن الخير للدولة ان تعيش والادب في سلام تام . واعني ان تطلق له الحرية فلا تحاول تقييده في ما يفكّر ويشعر وكيف يليق به ان يُفصح عن افكاره ومشاعره حتى ولو كان في تفكيره وشعوره وبيانه ما ينافي مصلحة الدولة كما يفهمها رجال الحكم ؛ وحتى لو كان يدعو الى تقويض اركان الدولة . فالدولة الواثقة من اهدافها ومن نياتها ومن الوسائل التي تلجأ اليها لبلوغ تلك الاهداف وتحقيق تلك النيات لا خوف عليها من الأدب . بل من الأرجح ان تجد لها في الادب اقوى معين واخلص نصير . والدولة التي اهدافها مزيفة ، ونياتها فاسدة ، ووسائلها مشبوهة يستحيل بقاؤها زماناً طويلاً وان هي سدّت على الأدب جميع المسالك ، فحطمت الاقلام ، وعقلت الالسن ، وكمّت الافواه . فالسوس الذي ينخر لبابها سيقضي عليها عاجلاً ام آجلاً وفي الأغلب عاجلاً .

إلاّ انه ليس يكفي الدولة ان تعيش والأدب في سلام . بل هنالك واجبات معنوية ومادية تترتب على الدولة نحو الأدب مثلما تترتب عليها واجبات معنوية ومادية نحو الامة . فما دام للادب تأثيره البالغ في حياة الامة ودامت الغاية من وجود الدولة تنمية الامة وتوفير اسباب الرزق والراحة والسعادة لها ، فبأيّ منطق تهتمّ الدولة بتحسين المواصلات ، وتعميم العلم ، وتقوية الصناعات ، وتكثير المنتجات ، وتوفير الريّ والبذار للمزارعين والمحروقات للسواقين ، والحبر والورق للصحفيين ، ولا تهتم بالادب وهو الطريق الاقوم والأبقى بين ارواح الناس وقلوبهم وافكارهم ، والمدرسة الاوسع والأعمّ لصغار الامة وكبارها ، والبذار الذي يستغله الناس في كل ساعة ، وكل شهر وكل عام؟ بأي منطق تعمل الدولة على زيادة ثروة الأمة المادية بزيادة ما تنتجه وتصدره من الصوف والنعل والبصل ولا تعمل على زيادة ثروتها المعنوية والمادّية معاً بزيادة ما تنتجه وتصدره اقلام كتابها؟

ولا يخطرنّ ببال انني ادعو الدولة الى الاتجار بالادب . معاذ الله . ولكنني ادعو الدولة الى تفهم حقيقة بسيطة جداً . وهي ان الادب روح وجسد . اما الروح ففكر وشعور وذوق وفنّ واشواق واحلام . واما الجسد فغلاف وورق وحبر وطباعة وتجليد . وهذه كلها امور مادية ليس في قدرة الكاتب خلقها حين يشاء او ابتياعها بالثمن الذي يشاء . في حين ان الدولة تملك القدرة على خلقها او في الأقل على ابتياعها من اسواقها مثلما تملك القدرة على ابتياع الزفت لتعبيد الطرق ، والسماد

لامداد الأرض بالغذاء الذي تحتاجه كي لا يحلّ بها العقم والبوار. فعلامَ لا تهتم الدولة بتوفير المواد الضرورية لكيان الادب وتهتم بتوفير الزفت للطرق والسماد للارض ؟ اتكون قرائح الامة ومواهبها الروحية والفنية اقل قيمة في نظر الدولة من الزفت واحطّ قدراً من السماد ؟ واذن فايّ مبرر لوجود الامة ووجود الدولة التي تسوسها ؟

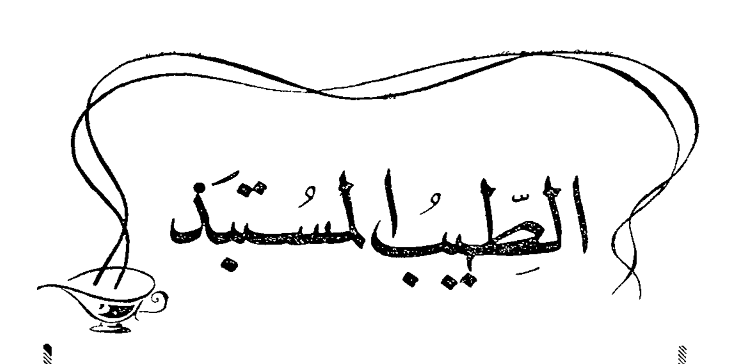
اقول ذلك وتجارب السنين الاخيرة ما تزال ماثلة لذهني ولعينيّ ايام راحت الحرب تنهب خيرات الارض وتنكب سكان المعمورة بالقلة من كل شيء الاّ البغض والحقد، والا وسائل القتل والدمار، مما حمل جميع الدول على تقنين المواد الاولية التي لا تستقيم حياة الناس في هذه الايام بدونها. ومنها الورق الذي هو المادة الاولى في حياة اي كتاب وبالتالي في حياة الأدب.

لقد حرصت الدول غنيّها وفقيرها، كبيرها وصغيرها، ان توفّر الورق ابان الحرب لكل ما من شأنه ان يساعد مجهودها الحربي. ونحن في هذا الشرق ما نسينا النشرات الانيقة التي كانت توزعها علينا بعض الدول بالمجان وتلك التي كست بها جدران عواصمنا وجوانب طرقاتنا. اما دويلاتنا الشرقية فكانت تتناول نصيبها الضئيل من الورق من حليفاتها الكبار فتوزعه بالتقتير على الصحافة. ذلك لأن الصحافة، على اهمية شأنها، كانت في نظر حليفاتنا الكبار بابا من ابواب الدعاية لهن. وهي في نظر حكوماتنا بوق لا بد منه لتسيير امور الدولة. فهي جديرة باهتمام الدولة وان سفلت اغراض الكثير منها واقحلت قرائحه فكان بالموت اولى منه بالحياة.

اما الأدب فكان عليه ان ينظر الى كل ذلك متلمظاً بريقه، وان يقبع طوال سني الحرب ويُقيدها في رؤوس الادباء وقلوبهم من غير ان يتاح له الخروج الى عالم الله الفسيح. إلاّ ادب الثروة والبهجرة والاناقة، وما اندره بين الادباء! فما من دولة من دول الشرق تعطفت على الأدب بحصة، ولو ضئيلة، من الورق او حاولت ان تحميه من جور « السوق السوداء » التي لا طاقة له على اقتحامها. فكأنه غريب عن الامة وحياتها، او كأنه نبتة طفيلية في جسدها.

واني لأسأل نفسي واسألكم: ما قيمة امةٍ بغير ادبائها ؟ وما قيمة دولة لا تعرف لأدب الامة قيمة فتوفر له المواد الضرورية لوجوده ؟

ميخائيل نعيمه



الطِّيبُ المُستَبِدّ

انا يا هواي، أموت وجداً
ولو أنني أبديت صدا

فلأنت طيب في دمي
يجري ويعبق مستبدا

وأراك خلف ملامح الأشياء
توعد عنك وعدا

فأرق للجلمود من
شغفٍ بما أخفى وأبدى

وتشيع عيني في الغصون
العاقدات عليك عقدا

ويمر بي النسم البليل
فألمس الكف المندى

ويرقرق الينبوع صوتك
لي فما أهناه وردا

أفتبعدين وقد وجدت
فدتك روحي الوصل بعدا

وطمعت بالأدنى اليك
فنلتهي طيباً ووردا

لا تبعدي اني أموت
هوى ولو أبديت صدا

صلاح لبكي

الخُلق القوميّ

بقلم علي أدهم

من الآراء الغالبة والاعتقادات الشائعة التي تكاد تسلك في عداد البديهيات فكرة ان لكل أمة من الامم خلقها القومي الخاص الذي تمتاز به عن غيرها من الامم ، وان هذا الخلق القومي له نصيب موفور من الثبات والدوام ويمكن اقتفاء آثاره وتتبع جذوره في خلال ماضي الامة وفي كل مظهر من مظاهر حياتها وبكل ناحية من نواحي حضارتها .

وقد تبلغ ثقة بعض الناس بوجود هـذا الخلق القومي واستقراره الى حد الاجتراء على التكهن بمعرفة موقف أي امة من الامم تلقاء حادث من الحوادث العارضة استناداً على سابق علمهم بخلقها القومي .

وكل أمة من الامم تعتز بما تعده خلقها القومي ، وتفاخر به غيرها من الامم ، وكثيراً ما تسرف الامم وتبالغ في الاعتزاز بهذا الخلق القومي الحقيقي او المتوهم وتُدِل بمكانتها على حساب انتقاص غيرها من الامم والنيل من خلقها القومي ، وقد حمل ذلك الكاتب البحاثة البريطاني هملتون فايف على ان يقول [١] « ان فكرة الاعتقاد بوجود الخلق القومي من أخطر العوامل الداعية الى إثارة الحروب وإيقاع النفور بين الامم ، وإنها من أقوى العوائق القائمة في سبيل إيجاد وحدات اجتماعية تؤدي في النهاية الى اتحاد فيدرائي بين مختلف الأقوام قائم على تصور إنسانية عامة تضم شمل الجميع ولا تقصي احداً عن حظيرتها »

وقد روى ابن عبد ربه في حديثه عن وفود العرب على كسرى أن النعمان بن المنذر قال لكسرى بعد أن أمّنه كسرى من غضبه مفاخراً بالعرب ومدافعاً عنهم : « وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المنْحَفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة » ونرى من ذلك ان تفاخر النعمان بعروبته حمله على قلب الهند والصين والترك والروم ، وكذلك الاعتزاز بالخلق القومي كثيراً ما يكون مدعاة الى الغرور والصلف والاستطالة على الأقوام وتحديها ، وهو يقتضي تمجيد الأمة لمزاياها وخصائصها وإعجابها بتقاليدها وعاداتها .

على أن هناك مفكرين رأوا ضرورة إخضاع هذا المعتقد الراسخ من الخلق القومي للبحث الخالص والنظر العلمي المجرد ونبذ كل ما كان بيّن المغالاة مفرطاً في الادعاء ، ولكنهم مع ذلك يسلمون بأن وجود الخلق القومي مما لا يمكن نكرانه او المماراة في حقيقته ، ولو أنهم قد يعجزون عن اكتناه سره وكشف خوافيه ، وقد انتهى المؤرخ الألماني الكبير فون رانك الى القول بأن الروح القومي يُشْعَر به ولكن لا يمكن فهمه ، فهو ضرب من الهواء الروحي يتخلل كل شيء ، ولكن مؤرخين كثيرين لم يشاركوا فون رانك في تحفظه واعتداله ، ولذا يستطيع الانسان في يسر وسهولة ان يأتي بمجموعة كبيرة من الأحكام الخاطئة والآراء الباطلة التي يرددها بعض المفكرين البارزين حينما يتحدثون عن الخلق القومي لبعض الأمم .

والمعروف في الوقت الحاضر – كما يذكر لنا الباحث الاجتماعي المتمكن موريس جنزبرج في محاضرته عن الخلق القومي – أن نتائج محاولة إخضاع الخصائص القومية للبحث العلمي تثير الشكوك في وجود تلك الخصائص القومية ، ولذلك يحسن في بادىء الامر أن أوضح بعض العقبات التي تقوم في طريق البحث عن خلق الامم القومي وتقريره وبيان سماته وملامحه .

« إن السبيل القويم لدراسة الخلق القومي في الأغلب الأعمّ لا تكون عن طريق مراقبة الاختلافات في سلوك الأفراد وتصرفاتهم ، وانما تكون عن طريق تعرّف صفات الامة البارزة في آثارها الثقافية وتقاليدها وسياستها العامة . وقد دلت دراسة صفات الامم وسماتها العقلية والاخلاقية بهذه الطريقة على ان ما اصطُلح على تسميته « الخلق القومي للامم » ليس شيئاً ثابتاً جامداً مستعصياً على التغيير ، وإنما هو شيء مَرِن قابل التشكيل حسب الظروف التي تكتنف حياة الامم . »

---

(١) راجع صفحة ٢ من كتابه القيم المسمى « وهم الخلق القومي »
The Illusion of National Character. By Hamilton Fyfe.

فهناك قبل كل شيء صعوبة التغلب على النزعة الشخصية في الملاحظة والمشاهدة والتفسير الذي يتبعها ، وكثير من الآراء التي شاعت عن خلق بعض الامم القومي أو الكتب التي وضعت لتحليل خصائصها القومية وميزاتها العقلية والخلقية، قد كونت او كتبت في ضوء فكرة فلسفية غالية ، أو في ظل نزعة سياسية مسيطرة، أو بتأثير عقيدة دينية أو لون من ألوان الهوى والميل، أو لغرض خفي وغاية مبيتة، أو مجاراة لسياسة خاصة وموقف معين . والكثير مما كتبه الالمان عن الانكليز في القرن التاسع عشر يبدو فيه أثر النزعة الخاصة ووجهة النظر المعينة . ففي مطالع ذلك القرن كان الكتاب الألمان يرون في استقلال بريطانيا الوطيد أنموذجاً تحتذيه المانيا في جهادها وإعادة بنائها ، ثم ظهرت في النصف الثاني من ذلك القرن الآراء الشعوبية والنظريات الشاملة والادعاءات العريضة عن طبائع السلالات والاجناس ، وتعلق بها الألمان تعلقاً شديداً ، وكثرت مباهاتهم بشمائل الجنس الالماني وصفاته الغالبة ، وصوّر الكتاب الألمان البريطانيين على أنهم فرع من السلالة الألمانية ، فهم إذاً في بحبوحة الشرف وذروة المجد ، ثم طغت على ألمانيا بعد ذلك نظرية اتباع « السياسة الواقعية » والتطلع الى السيادة العالمية ، وصار الألمان يرون في البريطانيين المنافس القوي البأس المبسوط الدهاء الذي أخذ عليهم المسالك وسد في وجوههم الأبواب . واخذ الألمان يصورون البريطانيين في صورة المادي الجشع الذي يخبىء حبه للسيطرة وميله الى الأثرة خلف ستار من أدعائه النزعة الانسانية والتظاهر بالاستمساك بالأخلاق والدين. واكثروا من الاشارة الى الرياء البريطاني ونفاق البريطانيين في السياسة وفي غير السياسة.

وفي خلال الحرب الكبرى الأولى كان بعض الكتاب البريطانيين يصورون الأمة الألمانية في صورة الأمة الهمجية التي لا تحترم شريعة ولا تعرف قانوناً والتي قد فطرت على الاعتداء والشر وحب التملك وعبادة الدولة عبادة عمياء .

وقد كانت الآراء الاستعمارية التي سادت في القرن التاسع عشر تجعل بعض الأمم الأوربية المستعمرة تعتقد ان افرادها خلقوا من طينة أخرى غير الطينة التي خلقت منها الأمم الشرقية، وأن الرجل الغربي بوجه عام أسمى مدارك واكثر قابلية للتقدم والجهاد من الشرقي المتخلف في ركب الحضارة والذي دأبه الاستسلام للأقدار والركون إلى الحظوظ والاعتماد على المعجزات والنكول عن مواجهة الحياة . وكان تصوير الاوربيين لخلق الأمم الشرقية القومي يشوبه الاحتقار والتحامل والحرص على تقصّي العيوب وإظهار مواطن الضعف ونواحي التخلف والنقص.

على أن ذلك لم يمنع ظهور مفكرين معتدلين معقولين قد استطاعوا كبح جماح التعصب وقدروا حاجة الباحث في نفسية الأمم الى التجرد من الأهواء والارتفاع عن الصغائر وتحري الانصاف ، وعرفوا ان العيوب والنقائص والسخافات قد تبدو على السطح ، ولكن المزايا والحسنات وسائر الصفات الصالحة قد تكمن في الأعماق ، وأن فهم نفسية الأمم يستلزم العطف والحرص على العدل ومجانبة الاهواء. والأخطاء التي يستدرج الباحثين اليها الميلُ والهوى او التعصب ومجافاة الاعتدال يمكن استدراكها إلى حد كبير بالموازنه بين اراء الكتاب من مختلف الأمم ، والنزاهة في تقدير الخلق القومي مسألة نسبية مثل النزاهة في سائر أمور الحياة .

وهناك صعوبة اخرى لحظها الباحثون الاجتماعيون. ومصدر هذه الصعوبة أن الجماعات القومية ليست جماعات تامة التجانس كاملة الوحدة . وهناك كذلك صعوبة في البحث عن تعريف للأمة تتوافى عنده آراء المفكرين ، ولكن الامة بوجه عام تكون من جماعة من الناس يسكنون بقعة من بقاع الأرض تضم اشتاتهم وحدة وتجمعهم جامعة شاملة وقد صحت إرادتهم وأجمعت كلمتهم على التعبير عن هذه الوحدة الرابطة والجامعة الشاملة بالاستقلال السياسي أو على الأقل بالاستقلال الثقافي . وواضح من هذا التعريف الموجز أن الأمم قد تضم جماعات متفاوتة التماسك والتجانس مختلفة الطبقات والعادات والعقائد . ولا نستطيع أن ندعي أن كل قوم من الأقوام الذين يسمون أنفسهم أمة قد تشابهت صفاتهم وتقاربت أخلاقهم وطبائعهم حتى يجيز لنا ذلك التحدث عن خلقهم القومي العام ، والتفاوت بين أهل الشمال وأهل الجنوب في الأمم الكبيرة مثل ايطاليا وفرنسا وإسبانيا من المسائل الملحوظة ، وأذكر ان الكاتب الفرنسي البارع الفونس دوديه قد تحرى إظهار الفوارق بين أخلاق سكان الشمال وسكان الجنوب الفرنسيين في إحدى رواياته المشهورة [1] وعندنا في مصر نرى شيئاً من التفاوت والاختلاف في الاخلاق والعادات بين سكان الوجه البحري وسكان الوجه القبلي . وفي معظم الأمم تتفاوت أخلاق السكان حسب المناطق التي يقيمون فيها ونوع العمل الذي يباشرونه ،

(1) A Passion of the South. By Alphonse Daudet.

فأخلاق سكان المدن الشاطئية تختلف عن اخلاق سكان المدن الداخلية ، وأخلاق سكان المناطق الزراعية غير اخلاق سكان المناطق الصناعية ، ولسنا في شتى الحالات على يقين تام بان وراء هـذه الاختلافات الواضحة وحدة عامة وصفات أخرى مشتركة غالبة .

والوحدة السياسية نفسها تختلف باختلاف الأمم . فهنـاك امم وحدتها قائمة على النظام الفدرالي مثل الولايات المتحدة وهناك أمم وحدتها قائمة على المركزية . ونفس هذه المركزية تتفاوت شدة ولينا في الأمم المختلفة . كما ان هناك أمماً قد تقاربت فيها احوال الطبقات وزالت الفوارق بينها الى حد بعيد، وأمماً أخرى تباعدت فيها فوارق الطبقات حتى صار لكل طبقـــة معايير أخلاقية خاصة ونظرات إلى الحياة مختلفة ، وقد لوحظ ان الصفات التي اشتهر بها البولنديون هي الصفات المعروفة عن الطبقـــة الأرستقراطية وحدها ، وفي بعض الاحيان يكون التشابه بين الطبقات الراقية في أغلب الأمم أكثر تقارباً مما بينها وبين سائر الطبقات في الأمم التي تشمل هذه الطبقات العالية . ولا بد عند إصدار الحكم على أمة من الأمم من النظر كذلك إلى مستواهـا الثقافي ، ولكني لا استطيع أن ابت في مسألة هل ارتفـــاع المستوى الثقافي للأمة مما يساعد على وجود الخلق القومي العام أو لا ، لأن الثقافة إن كانت من ناحية تطبع عقول الامة بطابعها وتصقلها بصقالها إلا أن الثقافة العالية من ناحية أخرى تعين على إبراز المواهب الكامنة واستقلال الشخصية وتعدد الوان التفكير واتساع وجهات النظر حتى ليكاد أن يصبح كل فرد أمة وَحْدَهُ لها مميزاتها وخصائصها .

وفضلاً عن ذلك فان الصفات الأخلاقية او العقلية التي اشتهرت بها بعض الأمم لا نستطيع ان نقيم دليلاً قاطعاً على أنها صفات طبيعية مستقرة في كيان الأمة لا مزحل عنها ولا مفر منها . ولا نزاع في ان للبيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية أقوى الاثر في تكوين ما يسمى الخلق القومي ، ولكن أثر البيئة الطبيعية أثر نسبي ، وقد لا يستطيع ان يؤثر تأثيره في كل الظروف والاحوال . وتأثيره متوقف على عوامل شتى ، والفرد والجماعة من أقوى هذه العوامل . وقد بالغ المفكر الفرنسي القدير منتسكيو في تقدير قوة تأثير الطقس في حياة الأمم ، وكان هردر وهيوم في طليعة المفكرين الذين اثاروا الشك في ذلك ، وقد شغل هذا الموضوع بال الكثيرين من كبار الجغرافيين في العصر الحديث . وقد انتهى بهم البحث إلى ان الطريقة الكفيلة بتجنيب الباحثين خطر التعميمات العريضة هي دراسة بناء الأمم الاجتماعي في ضوء تاريخها وبيئتها الطبيعية واعتبار حالتها العقلية نتيجـة للقوى التاريخية والاجتماعية التي أثرت فيها . والبيئة الاجتماعية مستهدفة لضروب من التغير والتحول حسب الملابسات التاريخية وضغط الظروف والاحوال . وأخلاق الأمم تتحول وتتبدل تبعاً لذلك . وقد كان اكثر الكتاب في أوائل القرن التاسع عشر حينما يتحدثون عن ألمانيا يقولون عنها « المانيا الفلسفية الحالمة الوديعة » ولكن المانيا الحالمة الفلسفية الوديعة أصبحت ألمانيا المتكبرة المتعجرفة الطاغية المعتدية فيما بعد . ولا نزاع في أن للاحوال السياسية والاجتماعية أثراً قوياً في هذا التغيير ، وقد ذهب بعض الباحثين ومنهم كاتب التراجم المعروف إميل لدفج في كتابه الممتع الذي سماه « المانيا » ، إلى ان الصفات التي اشتهر بهـا الألمان في العصر الحديث هي نفسها الصفات التي لحظها المؤرخ الروماني تاسيتوس ووصفها في كتابه عن المانيا، ولكن اكثر الباحثين في السلالات البشرية يرون أن معظم الصفات التي عزاها تاسيتوس للقبائل الألمانية القديمة هي بوجه عام صفات القبائل والأقوام البدائيين . ويزعم أنصار فكرة الشعوبية أن الفوارق بين الأمم مردها الى انتمائها إلى سلالات مختلفة وأن وحدة الأصل الشعبي في كل أمة هي سبب تشابه العقليات والأخلاق . ولكن هذه الفكرة لا تستحق أن نقف عندها طويلاً فان جميع الامم عـــلى وجه التقريب مكونة من سلالات مختلفة . وفضلاً عن ذلك فان فكرة وجود شعب نقي خالص له خصائصه ومميزاته من الأفكار التي في نفس الباحثين المنقبين منها أشياء .

وهناك صعوبة اخرى تعترض فكرة وجود الخلق القومي . ومنشأ هذه الصعوبة هو اختلاف الآراء وتعارض النظريات في مسألة بناء الخلق الفردي ، وقد بنى المفكر الفرنسي فوييه آراءه في كتابه عن نفسية الاوروبين على اساس النظرية القديمـة عن الأمزجة ، وعنده ان الاسبانيين من ذوي المزاج الصفراوي ، وأن الالمان من ذوي المزاج الليمفاوي ، وان الفرنسيين من ذوي المزاج الدموي وماكدوجال يرى ان مصدر الاختلاف

— التتمة على الصفحة ٤٥ —

العالم العربي في العام المنصرم

بقلم الدكتور نبيه امين فارس

من حدود فارس الى مراكش ومن العراق الى السودان تميز العام المنصرم بالاضطراب والقلق في جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية . وفي طول هـذه المنطقة وعرضها باءت تلك التجربة النبيلة – تجربة الديمقراطية والحكم التمثيلي الشعبي – بالفشل لضعف اسس الحكم الديمقراطي المحلية ولما انتاب البلاد العربية باسرها من ضغط خارجي . ولذلك عاذت الاقطار العربية اجمالاً بالحكم العسكري (او ما يقابله) من هول المصاعب الداخلية التي تعاني وزرهـا ومن الاخطار الخارجية التي تكتنفها ، معللة النفس ان العسكريين سينجحون حيث فشل المدنيون .

وما الانقلابات التي تفجّرت في العواصم العربية الا النتيجة المحتمة للحوادث التي المت بالعـالم العربي منذ النكبة الفلسطينية التي كانت بمثابة ألغام موقتة بثتها منظمة الامم المتحدة في العالم العربي عندما خلقت الدولة الاسرائيلية وفرضتها على العرب في قلب بلادهم فرضاً . واذ عجزت الحكومات العربية عن تجنيب البلاد النكبة ولم تستطع ان تعالج نتائجها وما جرتـه من مصاعب وويلات ، ثم اخذ اثر هـذا العنصر الغريب يظهر في الجسم العربي ، اصبح مصير هـذه الحكومات الضعيفة دوماً والفاسدة في اكثر الاحيان محتماً .

وقد شاهد العام الغابر تفجير هـذه الألغام الموقتة في مصر اولاً فتخلصت البلاد من ملك اضلته بطانـــة سوء عن جادة الصواب ونُسفت اوضاع وقامت اخرى قـد تؤول الى العزلة المصرية عن القضية العربية . وتفجرت ثانية في لبنان فاجبرت عامل فساد وإفساد على ان يتنحى عن الحكم . اما العراق فقد تجنب الانفجار بقيام حكم عسكري . وفي سورية يستمر الاتجاه نحو الحكم العسكري ايضاً . والاردن يتمخض بالام وآمال ويتلمس طريقه بين هاتيك الالغام .

ولعل هذا الاتجاه الى الحكم العسكري والابتعاد عن الحكم التمثيلي هو أهم ما طرأ على العالم العربي في العام المنصرم . اما القسم الأعظم من المسؤولية في هـذا الاتجاه فيعود الى رافعي لواء الديمقراطية في الغرب الذين دفعوا الديمقراطيـة الفتية في الشرق ، بعدم التفاتهم الى اماني العرب القومية ، الى الافلاس .

وقد شاهد العالم العربي في الوقت نفسه ازدياداً في النقمة على الغرب وازدياداً مماثـلاً في عدد « شيوعيي النكاية » . وهؤلاء ليسوا في اغلب الاحيان شيوعيي عقيدة ، غير ان تجاربهم غير الموفقة مع الغرب تزيدهم نقمة عليه وعلى كل شيء غربي من يوم الى يوم . وهم يحسبون منظمة الامم المتحدة مطيـة للمآرب والمطامع الغربية ولذلك ينظرون اليها نظرة الشك والريب .

وآخر ما شاهده الشرق العربي في العام الغابر ازدياد ظاهر في التذمر الشعبي من الاوضاع الراهنة ومن عجز المسؤولين عن معالجة قضاياها الملحة . وعلى الرغم من ان هـذا التذمر لم يبلغ بعد مرتبة الوعي فهو يهدد بأن يؤول بالبلاد الى نتائج خطيرة لا يمكن ان تُعيَّن بعد على شيء من التدقيق .

نبيه امين فارس

ازمة إنتاجنا الثقافي

سلبية .. وقوقعية .. وتزوير فكري

بقلم الدكتور نقولا زيادة

ان المتتبع للانتاج الفكري في العالم العربي في السنوات الاخيرة ، ليهوله مايعانيه هذا الانتاج من أزمة. وهي ازمة تقضّ مضاجع المفكرين الأحرار ، لأنها اذا استمرت على ما هي عليه، فلا شك انها ستؤدي بالفكر وتاجه الى الموت خنقاً . ولأبادر الى القول بان هذه الأزمة القائمة هي نتيجة حتمية للعوامل السياسية والاجتماعية والدينية التي تعين سنن الحياة الفكرية في ديار العرب وتتحكم فيها .

ولعلّ أول ما يلفت النظر في هذه القضية هو موقف الكثيرين من الفكر الغربي وما فيه من فلسفة وأدب ورأي . فقد عهدنا الكتاب العرب في القرن الماضي، يقبلون على مناهل تلك الحضارة يعبون منها شبعهم ، وينقلون منها الى قرائهم ما ينقع منهم الغلة. وكان القراء يقبلون على هذا قارئين، متحدثين ، متناقشين . فلما دهمنا الغرب باقتصاده وسياسته ، ورأينا من آثارهما ما ساءنا، عزفنا عن الغرب وما عنده .وهنا بدأ الخطأ يتسرب الى تفكير الكثير من كتابنا ، واستغل المغرضون هذا الأمر ، فرفعوا رؤوسهم ، ودعونا الى الابتعاد عن الغرب في أفكاره وآرائه وأدبه وفلسفته ، وان تفضلوا فسمحوا لنا بقبول صناعاته واختراعاته . فكان من نتيجة ذلك ان اخذت « السلبية » برقاب الكتاب والمفكرين ، فلا يكاد كتاب واحد يدعو الى « التغرّب » الفكري يظهر بيننا ، حتى تخرج المطابع غير كتاب بسخّف فكرته ، ومن خلف الكتّاب هيئات تودّ لو أنها تستطيع ان تنكل بالكاتب الأول ومن أيده .

ولعلّ ابرز ما يمكن ان يقدمه هؤلاء القوم دفاعاً عن « السلبية » هو ان يتهم الفكر الغربي والحضارة الملتصقة به ، بالمادية والاغراق فيها ، بل وخلوها من القيم الروحية وعقمها في كثير من الأحيان .

ويترتب على الاخذ بالسلبية نحو الغرب وحضارته وتفكيره، ان نُدعى الى الاكتفاء بما عندنا . وقد كان الذي عندنا صالحاً في وقت ما ، لكنه مرت عليه قرون طويلة وهو جامد آسن حتى ليصح القول فيه انه تحجر ؛ بينما مرت القرون نفسها على الغرب وهو يسير قدماً - ينمو وينضج ويجرب ويختبر - فأضاف الى ما عرفه العالم قبلاً اشياء واشياء، وكشف النقاب عن حقائق وحقائق ، واهتدى الى قيم وقيم . وبعد هذا كله يأتي البعض منا ويقول جاداً كل الجد ، ان لم يكن مغرقاً في الجد ، بان الذي عندنا يكفينا .

اذا كانت الظاهرة الاولى يصح ان تسمى « السلبية »، فانني اسمي هذه الظاهرة التالية لها ، والمترتبة عليها ، « القوقعية » . ان هؤلاء الكتاب ومن يؤيدهم من هيئات وافراد ، قراء وناشرين ، انما يقولون لنا بوجوب اعتزال هذا العالم ، والدخول الى قوقعتنا ، والاقامة فيها شاتين دوماً ، مجترين ابداً ، دون ان تتجدد دماء الفكر فينا . انهم يريدون لنا ان نعيش في جو قاتم خانق عفن . ولعلّ هذا النهج كان يصح لو ان بلادنا كانت في منأى عن التيارات العالمية الكبرى ، بحيث لا يوقظنا صوت العالم . اما ونحن في وسط المعمعة ، فلن يكون باستطاعتنا ذلك. والدعوة الى « القوقعية» ، مثل الدعوة الى السلبية ، ستؤدي حتما الى القضاء علينا قضاء مبرماً .

ولعلّ من المتنطعين من يشير الى كتب وكتيبات تنشر هنا وهناك ، تحيي من النعرات ما كاد ان يموت ، وتبعث من الضلالات ما كان من حقه ان يظل ابداً في الظلام ، وتخلق اساطير لا تلبث ان تعلقها النفوس الضعيفة وتؤمن بها ، ثم تأخذ بالتبشير بها كأنها حقائق كشف عنها البحث الدقيق ، وجلاها الاختبار . لعلّ من المتنطعين من يشير الى هذا ويسميه نضجاً فكرياً ، وإنتاجاً حرياً بان يوضع في الجهة المقابلة ، ويعتبره إيجابية قمينة بالاهتمام . اما انا فأزعم ان هذا الذي ينقل الينا من دعايات وضلالات يشتريها البعض منا بالهدى ، انما هو ظاهرة ثالثة من ظواهر هذه الازمة التي نعانيها ، وهي التي أجيز لنفسي ان اسميها « التزوير الفكري » .

وهكذا بين سلبية تحرّم علينا قبول الخير من الغرب ، وقوقعية تحملنا على ان نكتفي بما عندنا ، وتزوير فكري يزين لنا الشر خيراً ، والفراغ امتلاء ، والضلال هدى ، تزداد ازمة الانتاج الفكري استحكاماً ، وتعمق الجراح في النفوس،ويتسع الخرق ، وتكثر الثغرات التي ينفذ منها الضعف الى كياننا .

وقد كانت هذه الامور كافية للقضاء علينا لولا ان في هذا العالم العربي نفراً من الكتاب والمفكرين، يأبون ان يخضعوا إلا

فتور

غَمـــامْ
غمامٌ جَهامْ
تلبَّسَ وجه الحجرْ
وحَرٌّ شديد الأوام
لهاثُ الضجر
تصاعد حقداً يغشّي الغمامْ

*

غيومٌ تَسدُّ السماءْ
وخلف الغيوم عروس الفضاء
تَبَرَّجُ في خدرها
وفوق الحضيض
خمولٌ بغيض
يدمدم في الارض لحن العفـاء
ويرسو عـلى صدرها !

*

فتورْ
فأهل الخدور
وأهل الوكور
كسالى ... مواتٌ كأهل القبور !
لَزُوجَةُ هذا الهواءْ
تثير الجفاء
متى يستفيق العبير ؟ ...

*

متى تعصف العاصفهْ
فتجلو الغيومْ
وتنطلق الكاسفهْ
ويسلس هَبُّ النسيمْ ؟ ..

*

وهذا الفتورْ
وما بيننا من جفاءْ
متى يستطير ؟
متى يا حبيبي يسُحُّ الغمامْ
فينضو السقام
وينصل عهد الصفاء ؟

سليم حيدر

للحق ، ويرفضون ان يكونوا حجاراً صماء ، ويرون ان الخير والحق والجمال اولى ان يفتش عنها ، ويعنى بشأنها ، ويغترف من مناهلها ، أنى كانت هـــذه المناهل . وهؤلاء النفر يلقون من العنت كثيره ، ويتعرضون للأذى في غـير مرحلة من مراحل حيـاتهم ، ولكنهم لا يستكينون ولا يطأطئون الرؤوس ؛ واذا قضي عليهم سلموا الراية الى من يحملهـا من المؤمنين بالرسالة .

هؤلاء النفر هم عدّتنا في محاربة عداوة الفكر وخصومته ، وهم حريون بان نؤازرهم ونساعدهم . ومن حسن الحظ ان « القوى الكامنة » في العالم العربي آخذة في الاتجاه نحو « قوى فعّالة » ، فالواجب على المفكرين الخلّص، والكتّاب المؤمنين بوجوب السير قدماً ، ان يهيئوا للجيل الطالع ادبا قويا عنيفـاً حاداً ، يستطيع ان يكسب قارئـه نشاطاً فكرياً ، وغذاء نفسياً ، وسلاحاً روحياً ، يمكنه من تقطيع السلاسل ، وفك الاغلال ، ومقاومة تلك الدعاوات الجامدة الضارة . وبذلك يتمكن الانتاج الفكري في العالم العربي من الخروج من ازمته نافضاً عنه غبار القرون ، متجدداً ، لاحقاً بركب الحضارة .

نقولا زياده

الأدبُ الملتزم

بقلم أنور المعداوي

تسمية خرج بها على الناس يوماً ذلك الأديب الوجودي اللامع جان بول سارتر.. خرج بها ليحدد أهداف لون من الأدب يؤمن به ويدعو اليه فيما يشبه العناد والاصرار حتى لقد انتهى الى ان الالتزام يجب ان يكون غاية كل أدب ورسالة كل اديب! اما الاهداف التي يرمي اليها من وراء نظريته الالتزامية فهي ان يكون الادب صورة حية للمجتمع الذي ينتسب اليه: في اعماق هذا المجتمع يجب ان يغمس ريشته، ومن واقع هذا المجتمع يجب ان يستمد تجاربه، وحول هـذا المجتمع يجب ان يدور بخطوط اتجاهاته الفكرية. انها تبعة ضخمة ليس الى تجاهلها من سبيل، وعلى الاديب ان يتحمل التبعة إذا اراد ان يكون ملتزماً على طريقة الوجوديين. عليه ان يتصل بما حوله، ان يكون قريباً من الناس، ان يصهر كل عواطفه وكل جوارحه في بوتقة مشاعرهم وحاجاتهم، ألا يكون بمعزل عن مشكلات عصره ليستطيع ان ينفذ الى أغوار هذه المشكلات: ينفذ الى أغوارها بشعوره ليصدق في الاحساس بها والتعبير عنها حين يتحدث الى الجماهير، وينفذ الى اغوارها بفكره وعلمه وثقافته ليشارك في البحث عما تحتاج اليه من حلول!

كلمات اذا نظرت اليها وهي في هذا الاطار الموضوعي الذي يتسع لها ولا يزيد خيّل اليك ان الكاتب الوجودي لم يخرج على الناس بغير ما خرجت به عليهم الشيوعية، وهي تدعو الى مثل هذا اللون من الادب الذي كم حمل لواءه المريدون والانصار.. هو عند الشيوعيين ادب اشتراكي وهو عند الوجوديين أدب ملتزم؛ وقد يخيل اليك مرة أخرى ان اختلاف التسمية هو كل ما بين المعسكرين من فروق! قد يخيل اليك هذا ولكن الحق الذي لا مراء فيه ان هناك اختلافاً جوهرياً من الناحية الموضوعية.. ومن المؤكد أن جان بول سارتر ليس من الجمود بحيث يردد ما قاله الشيوعيون، ثم لا يحاول ان يجعل من الترديد دعامة تمهيدية لرأي جديد! هو معهم في المقدمات ولكن ما أبعد الشقة بينه وبينهم في النتائج وما اوسع دائرة الخلاف! انه لا يدعو الى مثل هذا اللون من الادب الملتزم أو الأدب الاشتراكي كما يحلو للشيوعيين أن يسموه، ثم يقف عند هذا الحد الذي وقفوا هم عنده دون أن يحققوا لهذا الأدب ما يتطلع اليه من مثالية. إن الادب لكي يكون ملتزماً في رأي سارتر لا بد له من ان يتنفس هواء الحرية بملء رئتيه.. لا بد من حرية الكاتب فيما يكتب ولا بد من حرية القارىء فيما يقرأ ليتحقق ذلك الهدف المثالي لمبدأ الالتزام! اما حرية الكاتب فلن تتوفر له إلا إذا تخلص من الخضوع لتيارات حزبية معينة تملي عليه ما يتفق ووجهة نظرها من آراء وأفكار: وأما حرية القارىء فتتمثل في عدم إرغامه على قبول لون بعينه من الانتاج الادبي الذي يتجه الى غاية محدودة وهدف مرسوم... لا مناص من حرية الفرد الكاتب وحرية الفرد القارىء حتى يتمكن الأدب من تأدية رسالته الالتزامية، ولن يكون الاديب ملتزماً وهو مشدود الى عجلة حزب سياسي يوجهه فيتجه ويدفعه فيندفع ويسيره فيسير، وما دام القراء مقيدين بنظم سياسية خاصة تفرض عليهم ان يقرأوا هذا ويدعوا ذاك فهم عبيد، والادب الحر الملتزم لا يمكن ان يخاطب العبيد!

يهدف سارتر من وراء هذا كله إلى أن يضع حداً فاصلة بين الادب الذي يريده وبين الادب الذي يريده الشيوعيون، حتى لا يلتبس على الافهام إدراك أغراضه ومراميه... ولعل المعنى البعيد الذي يدور حوله وهو يتحدث عن حرية الكاتب وحرية القارىء واضح للأذهان، حين نضع نصب أعيننا خصومة الكاتب الوجودي للشيوعية! إن من خصائص هذا النظام في رأي سارتر انه يلغي حرية الفرد في التفكير والتعبير، وتبعاً لهذا فهو يلغي عنصراً جوهرياً من عناصر الالتزام وهو ان يتحمل الاديب تبعة ما يكتب، حين يطلب الى الادب أن يتحمل التبعات.. ومن هنا يؤمن زعيم الوجوديين بان الادب الحر الملتزم لا يمكن ان يعيش في ظل النظم الدكتاتورية!

« إذا استطاع الكاتب الملتزم أن يعيش في أعماق التجربة، تجربة عصره التي تنبع من مشكلات المجتمع وتترك رواسبها في قرارة الشعور، ثم استطاع بعد ذلك أن ينقل إليك هذه التجربة كما أحسها بصدق، وكما التقطها بعمق، وكما تلقاها بانفعال، ثم استطاع مرة ثالثة أن يلهب عواطفك وأن يهز مشاعرك فيثير في مواقف الاثارة النفسية والفكرية ... إذا استطاع أن يفعل هذا فقد حملك على أن تتمثل التجربة وان تفكر في المشكلة وان تثور على الاوضاع، وعندئذ يكون قد أدّى على خير الوجوه رسالة الالتزام ».

هذا هو التزام الادب كما يؤمن به جان بول سارتر وكما يدعو اليه... واليوم يختلف الادباء هنا وفي كل مكان حول هذا اللون من الادب، وتختلف تبعاً لذلك وجهات النظر وتتباين الآراء: فريق يتعصب للادب الاجتماعي فهو يريد ان يجعله ضريبة مفروضة على كل أديب، يؤديها، في كل وقت وكل مناسبة ثم لا يسمح لقلمه بان يكتب في أي موضوع سواه. وفريق لا يكتفي بان يكون الادب صورة صادقة لمشكلات المجتمع الذي يعيش فيه، لانه لا يريد لهذا الادب ان يقف موقف الطبيب الذي يقتصر على تشخيص المرض وتحديد مكامن الداء، وإنما يريد له أن يتخطى هذه المرحلة إلى تلك المرحلة الاخرى التي يبحث فيها الطبيب عن العلاج الناجع والدواء المفيد. وفريق ثالث يؤيد الفريق الاول حين لا ينكر قيمة الادب المتصل بما حوله ولكنه يختلف معه في فرضه ضريبة دائمة على اتجاه الافكار ونفثات الاقلام. وفريق رابع يؤيد الفريق الاول ايضاً في كل ما ذهب اليه ولكنه لا يحب أن يكون كالفريق الثاني مسرفاً في مطالبة الادب بما لا يدخل في دائرة اختصاصه من أمور، كأن يفرض عليه مثلاً أن يسهم في البحث عن حلول لكل ما يتعرض له المجتمع من مشكلات، وقد تكون هذه المشكلات من اختصاص السياسيين أو الاقتصاديين أو الكتاب الاجتماعيين. وفريق خامس لا يميل إلى تكبيل الادب بأي قيد من القيود سوى تلك القواعد الفنية التي لا مفر من أن يلتزمها الاديب، وحسب الادب أن يعبر صادقاً عن انفعالات النفس أمام كل هزة من هزات الكون وكل مشهد من مشاهد الحياة!



جان بول سارتر

ونقف نحن أمام هذه الآراء مستعرضين ومتأملين، لانها قد أصبحت بين طبقات المثقفين مثار جدل وخلاف. نقف أمامها لنقول إننا في مثل هذه الظروف الاجتماعية التي تحيط بنا وهي حافلة باسباب القلق زاخرة بتعدد المشكلات، لا نستطيع أن نغفل دعوة الداعين إلى الادب الملتزم... إلى هذا الادب الذي حددت معالمه «الآداب» على لسان رئيس تحريرها وهو يقول:

«تؤمن المجلة بان الادب نشاط فكري يستهدف غاية عظيمة، هي غاية الادب الفعال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع، إذ يؤثر فيه بقدر ما يتأثر به. والوضع الحالي للبلاد العربية يفرض على كل وطني أن يجند جهوده للعمل، في ميدانه الخاص، من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السياسي والاجتماعي والفكري. ولكي يكون الادب صادقاً، فينبغي له ألا يكون بمعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه. وهدف المجلة الرئيسي أن تكون ميداناً لفئة أهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم، ويعدون شاهداً على هذا العصر: ففيما هم يعكسون حاجات المجتمع العربي، ويعبرون عن شواغله، يشقون الطريق أمام المصلحين، لمعالجة الاوضاع بجميع الوسائل المجدية. وعلى هذا فان الادب الذي تدعو اليه المجلة وتشجعه، هو أدب «الالتزام» الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه.

«والمجلة، إذ تدعو إلى هذا الادب الفعال، تحمل رسالة قومية مثلى. فتلك الفئة الواعية من الادباء الذين يستوحون أدبهم من مجتمعهم يستطيعون على الايام ان يخلقوا جيلاً واعياً من القراء يتحسسون بدورهم واقع مجتمعهم، ويكونون نواة للوطنيين الصالحين.

«على أن مفهوم هذا الأدب سيكون من السعة والشمول حتى ليتصل اتصالاً مباشراً بالأدب الانساني العام، ما دام يعمل على رد الاعتبار الانساني لكل وطني، وعلى الدعوة الى توفير العدالة الاجتماعية له، وتحريره من العبوديات المادية والفكرية، وهذه غاية الانسانية البعيدة. وهكذا تسهم المجلة في خلق الأدب الانساني الذي يتسع ويتناول القضية الحضارية كاملة، وهذا الأدب الانساني هو المرحلة الاخيرة التي تنشدها الآداب العالمية في تطورها.»

هذه الدعوة الصادقة، مصبوبة في هذه الكلمات الواعية، متجهة الى هذه الأهداف المثالية، جديرة بان يتقبلها الأدباء تقبل الايمان الذي لا يشوبه الشك بان الادب تبعة ومسؤولية: تبعة حين نفهم انه رسالة توجيه ومشعل إصلاح وقيادة رأي ودعوة حرية وكرامة وعدالة... ومسؤولية حين ندرك ان من واجب الموجّه والقائد والمصلح ان يكون أميناً في نقل آرائه، حراً في تكوين أفكاره، لأن المطلوب من الأدب كما يقول سارتر ان يخاطب الأحرار وألا يتجه إلى العبيد! عندئذ

تتحقق هذه الأمنية التي تتطلع اليها « الآداب » ويقوى الأمل ويصدق الرجاء في توفير العدالة الاجتماعية للفرد وتحريره من العبوديات المادية والفكرية . وإننا لنعني بكلمة الفرد كل فرد سواء أكان منتسباً إلى مجتمعنا القومي أم كان متصلاً بالمجتمع الانساني العام ، وهذه هي مرحلة الشمول التي يجب ان يبلغها الادب مهما اعترضت طريقه الحواجز والعقبات ! نقول هذا وكم كنا نحب أن تطرق «الآداب» باباً آخر من أبواب الدعوة إلى الادب الملتزم ، كما طرقه زعيم الوجوديين يوم أن خرج على الناس برأيه في رسالة الادب الاجتماعية ...

يذهب سارتر ويذهب معه كل المؤمنين بدور الادب في توجيه المشاعر القومية في حياة الشعوب ، إلى أن قوى الحضارة المعاصرة قد استحدثت أعظم وسائل الاتصال بين قادة الفكر وبين الجماهير ... لقد كان الخيط الاتصالي الذي يربط بين الكاتب والجمهور القارىء محصوراً في الكتاب ؛ وحين تقدمت الحضارة خطوة إلى الامام ظهرت الصحيفة واتسعت بين هؤلاء واولئك دائرة الاتصال ، ثم ظهرت من بعد ذلك « السينما » وظهر من بعدها «الراديو»، ورُحب بذلك أفق المشاركة الفكرية والوجدانية . وإذن فعلى الاديب الملتزم أن يستغل كل وسيلة من هذه الوسائل لتتم الصلة بينه وبين الرأي العام على اوسع نطاق ... عليه أن يؤدي رسالته على الورق وفوق خشبة المسرح وعلى شاشة السينما وعلى موجات الاثير ، وبخاصة إذا كان قصاصاً او كاتباً مسرحياً أو ما شئت من تنوع المواهب عند الأدباء وتعدد الملكات!

ولا نريد هنا أن نقصر الحديث على الأدب الملتزم وحده لأن سارتر يريد أن يعفي الفنون الاخرى من مبدأ الالتزام . إنه يريد أن يعفي الشعر والتصوير والموسيقى من أن تلتزم تلك الاهداف الضخمة التي أشرنا اليها فيما سبق من حديث ، لانها أقل من الادب قوة في الافصاح وقدرة على التعبير حين يطلب في الفن أقصى المدى من الايحاء والتأثير ! يريد هذا لانه يفرق بين مادة النثر وهي الالفاظ ، وبين مادة التصوير وهي الالوان ، وبين مادة الموسيقى وهي الاصوات ؛ يفرق بينها من حيث خصائصها الفنية ودلالاتها المعنوية ... إن الالفاظ عنده وسائل تؤدي إلى غايات ؛ وسائل يستخدمها الاديب ويؤلف بينها ليصل إلى ما يرمي اليه من آراء وأحكام ، إنها المعابر التي تنتهي به إلى ما يريد من صور تعبيرية ومعان كلية ، إنها الاشياء التي لا تُطلب لذاتها وإنما تُطلب لتوحي بما بعدها وتشير إلى ما وراءها من الحقائق والافكار .. أما الالوان فمن خصائصها انها أشياء تطلب لذاتها وكذلك الاصوات ، لانها ليست اكثر من أدوات لا تملك القدرة على التعبير عما وراءها من افكار وحقائق ومن معان وصور ، ومن أحكام وآراء . تأتلف الانغام والالوان فينتج عن هذه اللوحة الفنية وينتج عن تلك المقطوعة الموسيقية ، ولكن ماذا في اللوحة غير المشهد المنظور وماذا في المقطوعة غير النغم المسموع ؟ قد تكون هناك دلالة تعبيرية وفكرة إيحائية ، ولكنها الدلالة التي تنحصر في المعنى القريب والفكرة التي تقتصر على الواقع المحدود .

وحين يتطرق سارتر إلى الحديث عن الشعر لا يتردد في أن يضمه إلى قائمة الفنون المعفاة من مبدأ الالتزام ... صحيح أن مادة الشعر هي الالفاظ وإنه ليتفق في ذلك مع النثر ، ولكن شتان في رأيه بين الالفاظ وهي في منظار الكتّاب وبينها وهي في منظار الشعراء : إنها عند الفريق الاول معابر إلى قيم فكرية ولكنها عند الفريق الآخر معابر إلى قيم جمالية ؛ نعني تبعاً لموازينه ان استخدام الكتّاب للالفاظ هو بقصد الدلالة على ما تحمله من معان ، وان استخدام الشعراء لها هو بقصد الكشف عما تحمله من ألوان الجمال ؛ نعني مرة اخرى ان الشاعر يعيش في اللفظ نفسه على حين يعيش الناثر فيما وراء اللفظ من إيحاءات ورموز !

اننا نوافق الكاتب الوجودي على ان الفنون الأخرى أقل من الأدب قوة في الافصاح وقدرة على التعبير حين يطلب في الفن أقصى المدى من الايحاء والتأثير .. نوافقه لاننا نؤمن مثلاً بان قصيدة من الشعر مهما حملت من خلجات النفس ومهما نقلت من سبحات الفكر ومهما عكست من صور الحياة ، لا يمكن ان تبلغ من الاحاطة بهذا كله ومن التغلغل في أعماقه والنفاذ الى أغواره ما تبلغه قصة من القصص او مسرحية من المسرحيات ! أما قول سارتر بان الشاعر يعيش في الالفاظ نفسها وهدفه من وراء ذلك هو إبراز ما فيها من عناصر الجمال ، فهو قول يحمل من الاطلاق والتعميم ما يجعلنا نقف أمامه منكرين ومعترضين : ننكره ونعترض عليه لانه لا ينطبق على غير شعراء الصنعة الذين تخلو نفوسهم من المشاعر وتفرغ رؤوسهم من الافكار ، فلا يجدون امامهم غير الالفاظ يتعهدونها بالتنميق والتزويق لان هذا هو كل ما يملكون من طاقة وكل ما يستطيعون من جهود.

ان هؤلاء الشعراء هم وحدهم الذين يجب ان تشملهم قائمة الاعفاء الوحيدة في هذا المجال ، لاننا لا نريد ان نعفي بقيـة الشعراء والفنانين من مبدأ الالتزام.. لو قال سارتر عن الشعر والتصوير والموسيقى إنها لا تستطيع ان تشارك في إيجاد الحلول المناسبة لما يعترض المجتمع الانساني من مشكلات ، لكان قوله هذا حجة قوية تفوق حججه الاخرى في تبرير حكمه السابق على تلـك الفنون . ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان ننكر دورهـا في التعبير والاثارة ولو كان هذا الدور أقل امتيـازاً من دور الادب .. ولعل سارتر نفسه لا يستطيع ان ينكر التزام الشعر عند أمثال بوشكين ، والتزام التصوير عند أمثال ديلاكروا ، والتزام الموسيقى عند أمثال شوبان !

نحن إذن نؤيد الدعوة الى الادب الملتزم والى الفن الملتزم بوجه عام ، ولكننا نحب في هذا الموقف ان نوجه كلمة هادئـة وعادلة الى بعض « التقدميين » ، اولئك الذين يمكن ان توصف أحكامهم بالغلو وتتهم بالاسراف . . لقد قرأنا لاحدهم مرة رأيـاً عجيباً حول قصة مصرية ملتزمة لقصاص مصري ممتاز ؛ قصة ربط المؤلف حوادثها بمشكلة من مشكلات المجتمع وهي الفقر، ثم رد إلى هذه المشكلة كل حركة نفسية ومادية في سلوك أبطالها الرئيسيين ، ثم أفرغ هذا كله في إطار من النقد الاجتماعي البارع الذي يزخر باللقطات الواعية . التزم المؤلف باعتراف الناقـد « التقدمي »ولكنه مع ذلك لم يرض عن هذا اللون من الالتزام، لانه في رأيه لم يبحث للمشكلة عن حل ولم يحدد طريقـة من طرائق العلاج .. وهذا النقص وحده كفيل بان يسقط القصة من حساب الفن ومن حساب التقدير ! ترى هل سمع أمثال هذا الناقـد التقدمي رأي « لينين » في أدب بلزاك ؟ لقد كان بلزاك في رأي لينين أعظم كتاب القصة في أدب العـالم .. ليس ذلك لانه حين صور في قصصه مشكلات عصره قـد بحث لهذه المشكلات عن حلول،ولكن لانه قد صور هذه المشكلات تصويراً بلغ من الدقة والوعي مـا جعل لينين يقول : ان الصورة التي خرجت بها من قصص بلزاك عن المجتمع الفرنسي في عصره، لم أستطع أن أخرج بمثلها من كل ما قرأت عن فرنسا من كتب التاريخ .. لهذا كان بلزاك في رأيه أعظم كتاب القصة في أدب العالم ؛ ولو وضع لينين على عينيه منظار تلاميذه لاحتل جوركي هذه المكانة واستحق هذه الكلمات ! !

لا داعي إذن للغلو ولا مـبرر للاسراف ، لان الكاتب الملتزم إذا استطاع ان يعيش في أعماق التجربة ؛ تجربـة عصره التي تنبع من مشكلات المجتمع وتترك رواسبهـا في قرارة الشعور ، ثم استطاع بعد ذلك ان ينقل اليك هـذه التجربة كما أحسها بصدق وكما التقطها بعمق وكما تلقاها بانفعال ، ثم استطاع مرة ثالثة ان يلهب عواطفك وان يهز مشاعرك فيثـيرك في مواقف الاثارة النفسية والفكرية .. إذا استطاع ان يفعل هذا فقد حملك على ان تتمثل التجربة وان تفكر في المشكلة وان تثور على الاوضاع ؛ وعندئذ يكون قد أدى على خير الوجوه رسالة الالتزام ! اننا لا ننكر أثر اتجـاه الكاتب الملتزم الى الناحية العلاجيـة فيما يعرض له من مشكلات ، ولكن الذي ننكره هو ان يُرمى كل ادب لا يتجه الى هذه الناحية بانه لا جدوى منه ولا غناء فيه .. ان الادب يستطيع ان يكون فعّالاً إذا أشعر الناس بحقيقة وجودهم وفتح عيونهم على كثير من الحقائق التي توجه حياتهم ، لانه بذلك يدفعهم دفعـاً الى التفكير في المصير !

القاهرة **انور المعداوي**



نار ليلى ...

في الادب العربي القديم قطع لا تنحدر بقيمتها عن مستوى الروائع العالمية . وتمشياً مع خطة «الآداب» في العمل على دفع عجلة الحركة الادبية المعاصرة وتطعيمها باطيب ما في الأدب قديمه وحديثه ، رأينا أن نفتتح هذا الباب الجديد ونستهله بهذه الرائعة الصوفية التي تعبر عن أزمة روح وقلق تشوّف يرقيان بها الى صعيد الادب الخالد .

أما صاحب القصيدة ، عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، فصوفي متأخر ألمّ بأعمق ما عرف الأدب الصوفي في حقبه كلها .

لمعَتْ نارهم ، وقد عسعسَ الليلُ   ومَلَّ الحادي وحار الدليلُ
فتأمّلتُها ، وفكري من البين عليلٌ   ولحظُ عيني كليلُ
وفؤادي ذاك الفؤاد المُعنّى   وغرامي ذاك الغرامُ الدخيل
ثم قابلتُها فقلتُ لصحبي :   هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا
فرمَوْا نحوها لحاظاً صحيحاتٍ   فعادت خواسئاً وهي حُوْل
ثم مالوا الى الملام وقالوا :   خُلَّبٌ ما رأيتَ أم تخييل؟
فتجنّبْتُهُمْ وملْتُ اليها   والهوى مركبي وشوقي الزميل
ومعي صاحبٌ أتى يقتفي الآثار   والحبُّ شأنه التطفيل
وهي تبدو ونحن ندنو إلى ان   حَجَزَتْ دونها طلولٌ محولُ
فدنونا من الطلول فحالت   زفرات من دونها وعويل
قلتُ من بالديار ؟ قالت جريحٌ   وأسيرٌ مكبّلٌ وقتيل
ما الذي جئت تبتغي؟ قلت ضيف   جاء يبغي القِرى فأين النزول؟
فأشارت بالرُحْب دونك فاعقرْها   فما عندنا لضيفٍ رحيل
من أتانا ألقى عصا السير عنه   قلت من لي بذا و كيف السبيل؟
فحططنا إلى منازل قوم   صرعتهم قبل المذاق الشمول
درس الوجدُ منهمُ كل رسمٍ   فهو رسمٌ والقوم فيه حلول
منهمُ من عفى ولم يبق للشكوى   ولا للدموعَ فيه مَقيل
ليس إلا الانفاس تُخْبِر عنه   وهو منها مبرّأ معزول
ومن القوم من يشير الى وجهٍ   تبقّى عليه منه القليل
قلت أهلَ الهوى سلام عليكم   لي فؤاد عنكم بكم مشغول
لم يزل حاضرٌ من الشوق يحدوني   اليكم والحادثات تحول
جئت كي اصطلي فهل لي الى نار   ُدراكم من الغداة سبيل
فأجابت حوادث الحال عنهم   كلُّ حدٍّ من دونها مفلول
لا تروقنّك الرياض الانيقات   فمن دونها ربىً وذُحُول
كم أتاها قوم على غرّة منها   وراموا قِرىً فعزّ الوصول
وقفوا شاخصين حتى اذا ما   لاح للوصل غُرّةٌ وحجول
وبدت رايةُ الوفا بيد الوجد   ونادى أهلَ الحقائق جولوا
أين من كان يدّعينا فهذا اليومُ   فيه سيفُ الدعاوى يصول
حملوا حملةَ الفحول ولا يُصْرَعُ   يومَ اللقاء الا الفحول
ثم غابوا من بعد ما اقتحموها   بين أمواجها وجاءت سيول
قذفتهم الى الرسوم ... وكلٌّ   دمُهُ في طلولها مطلول
منتهى الحظّ ما تزوّدَ منه   اللحظ والمدركون منه قليل

علم الاجتماع عند ابن خلدون

بقلم ساطع الحصري

كان معظم الذين درسوا « مقدمة ابن خلدون » الشهيرة من المستشرقين والمؤرخين . والحقيقة ان هذا الكتاب ينبغي ان يدرس بصورة خاصة من قبل علماء الاجتماع ، فهو في اساسه ، بحث في علم الاجتماع يتقدّم جميع الآثار الصادرة في الموضوع نفسه بشوطٍ كبير لأنه قد كتب في القرن الرابع عشر .

وإنما يحق لمؤلف هذا الكتاب العبقري ان يتبوأ مركزاً رفيعاً في تاريخ الفكر الانساني عامة ، وتاريخ علم الاجتماع خاصة ، بصفته مؤسس علم الاجتماع ، او بعبارة اوضح ، بصفته المؤلف الاول في هذا العلم .

ألقى الاستاذ ساطع الحصري بياناً بالفرنسية في المؤتمر الامي الخامس عشر الذي عقد مؤخراً في استانبول عن « فلسفة علم الاجتماع عند ابن خلدون » رأت « الآداب » ان تترجمه عن الفرنسية وتنقله الى قرائها لأهميته .

— ١ —

اعتبر بعض المؤلفين مقدمة ابن خلدون نوعاً من الموسوعات ، واعتبرها آخرون دراسة في النقد التاريخي ، بينما عدّها سواهم فلسفةً للتاريخ او او تاريخاً للحضارة . ورأى فيها بعضهم ، اخيراً ، فلسفة اجتماعية .

والواقع ان بوسعنا ان نجد في تنوّع المواضيع المطروقة والمدروسة في هذه المقدمة ما يبرّر ، الى حد ما ، اطلاق كل واحدة من هذه التسميات عليها . ولكننا حين ننظر بشمول الى مجموع هذه الموضوعات ، دون ان نهمل الروح العامة التي تحركها وتوجهها ، ندرك انها تشكل مدخلا اجتماعياً الى التاريخ .

صحيح ان ابن خلدون قد قدّم مؤلفه هذا بوصفه الكتاب الاول من تاريخ عام يتألف من سبعة اجزاء ضخمة ؛ وصحيح كذلك انه توصّل الى ابحاثه وهو يفلسف حوادث التاريخ ويبحث عن طريقة للنقد التاريخي ؛ ولكن ليس اقل صحة من ذلك انه عدّه علماً جديداً قائماً بذاته ، أو قل انه نسيج وحده ؛ وقد نصّ على ذلك صراحة ، بل هو قد وسم هذا العلم باسم خاص ، فدعاه « علم العمران » وهو يعني « علم المجتمع الانساني » .

وينبغي لي ، بهذا الصدد ، ان اذكر ملاحظة هامة جداً : فان المعنى الحالي لكلمة « عمران » التي اطلقها مؤلفنا على العلم الجديد الذي اخترعه ، يقترب من معنى كلمة « حضارة » ولكنّ معناها الأصلي كان أوسع وأشمل : فقد كان يقترب بالاحرى من معنى الاسكان والتجمع بصورة عامة ؛ ولا ريب في ان ابن خلدون قد استعمل الكلمة بهذا المعنى الأخير ، وقد ذكرها اكثر من مرة كمرادف لكلمة « اجتماع » التي تعني في أيامنا ايضاً « التجمُّع والتألُّف » ، ثم انه قد عُني بان يعرّف ما يقصد اليه من هذه الكلمة بهذه العبارات الدقيقة :

« العمران هو التساكن والتنازل في مصر أو حلّة ، للانس بالعشير واقتضاء الحاجات » .

لم يلاحظ البارون « دوسلان » — خلال ترجمته للمقدمة — التطور الذي طرأ على معنى الكلمة المذكورة عبر القرون الماضية ، فترجمها بـ « حضارة » بصورة عامة ، وفقاً لمعناها الحالي ، وكانت هذه غلطة كانت لها نتيجة مؤسفة : ذلك انها حجبت المقدمة ، وصرفت انتباه علماء الاجتماع عنها لبضعة عقود من السنين .

وجدير بالملاحظة ، من جهة اخرى ، ان « دوسلان » نفسه اضطر اكثر من مرة لأن يعدل عن كلمة « حضارة » ويترجم عبارة ابن خلدون بكلمات اخرى ، من مثل « اجتماع » و « مجتمع » و « مجتمع انساني »[١] . ولنقرأ عنوان الكتاب الاول ، في ترجمة « دوسلان » نفسه : « في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب . »[٢]

ومما تجدر ملاحظته في هذا الشأن ان الكلمة العربية التي

---

(١) انظر ج١ ص٧١ و٨٤ ، وج٢ ص١٤٠

(٢) ج١ ص٧١ . De la société humaine et des phénomènes qu'elle présente, tels que la vie nomade, la vie sédentaire; la domination, les moyens de gagner sa subsistance, la science et des arts.—Indication des causes qui ont amené ces resultats.

ترجمها دوسلان هنا بعبارة « المجتمع الانساني » هي نفس الكلمة التي استعملها ابن خلدون ليسمّي العلم الذي فكّر به وخلقه : إنها كلمة « عمران » .

وهكذا يكون العلم الذي يحدثنا عنه ابن خلدون هو « علم المجتمع الانساني » ، هو « علم الاجتماع » بكلمة واحدة. وليست المقدمة الا عرضاً لمبادىء هذا العلم وأصوله ، كما تصورهـا وشرحها مفكرنا الكبير قبل ٥٧٥ عاماً .

— ٢ —

إذا درسنا المقدمة ، دراسة تعمق ، توصلنا الى تثبيت هذه الحقيقة التي لا مجال للجدال فيها. لقد فكر ابن خلدون بان يجعل من « المجتمع الانساني » موضوع علم خاص ؛ وقد اندفع في توسيع هذه الفكرة وتحقيقها بقدر ما كانت تسمح له معلوماته العامة وملاحظاته وتجاربه الشخصية .

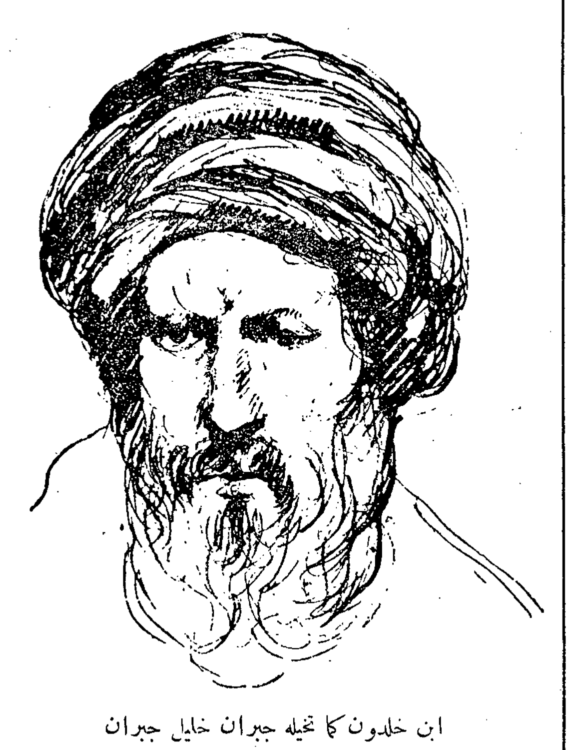
دراسه حياة الانسان الاجتماعية، عبر مظاهرها المختلفة ، مع الحوادث التي تنتج عنها ، والمؤسسات التي تتولد منها ، وبحث اسباب تلك الحوادث واصول هذه المؤسسات... تلك هي المهمة التي اخذها ابن خلدون على عاتقه لتأسيس العلم الجديد الذي فكر به ، وهو يكتب ترجمته .

وقد ادرك ابن خلدون ادراكاً تاماً التنوع العظيم في مظاهر الحياة الاجتماعية ، وقدّر تقديراً صحيحاً مدى شمول مواضيع العلم الجديد. وليس من المبالغ فيه القول بان ميدان القضايا الاجتماعية التي درسها ابن خلدون كان أوسع من الذي راده، بعد اربعة قرون ونصف، اوغست كونت الذي يُعدّ عادة مؤسس علم الاجتماع .

ونظرة واحدة الى المقدمة تكفي للاقتناع بذلك .

لقد قسم ابن خلدون مقدمته ستة أبواب رئيسية : الاول يبحث في الاجتماع البشري بصورة عامة ، فهو إذن دراسة في علم الاجتماع العام؛ والثاني يدرس اجتماعيات البدوي ؛ والثالث درس في علم الاجتماع السياسي يضم نظرات هامة جداً في مالية الدول ؛ والرابع يبحث في المـدن والأمصار ويبحث في اجتماعيات حياة الحضر؛ والخامس يؤلف علم الاجتماع الاقتصادي. اما الفصل السادس فيعالج العلوم والتعليم ويشتمل على كثير من النظرات التى تدخل في حقل علم الاجتماع الأدبي .

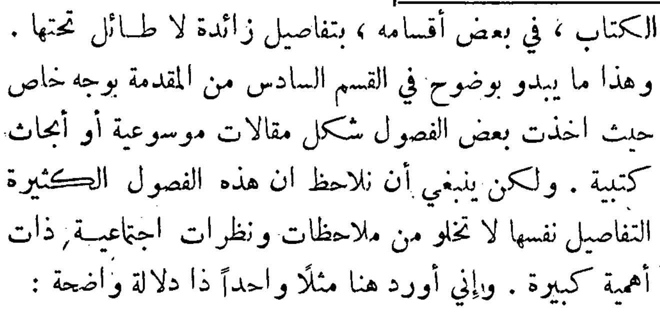
وقد درس ابن خلدون في الفصول الكثيرة التي يضمها كل من هذه الابواب طائفةً كبيرة من الأحداث والواقعات الاجتماعية ، بروح دائمة من النزاهة والتجرد دون ان ينجرف بتيار الابحاث الانشائية لغايات عملية . وقد حاول ان يكتشف أسباب هذه الأحداث الاجتماعية ويستخلص منها قوانين «تزاحمها وتعاقبها » تقوده في ذلك دائماً روح مشبعة بحتمية علمية شديدة الوضوح : فهو يتحدث ، دون انقطاع ، عن « طبيعة الأشياء » بصورة عامة ، وعن طبيعة الأشياء « الاجتماعية » بصورة خاصة ؛ وهو يعلل كثيراً من الظواهر الاجتماعية بالرجوع إلى «طبيعة الأشياء وترتيبها».



ابن خلدون كما تخيله جبران خليل جبران

— ٣ —

ومن المعروف ان ابن خلدون قد كتب مقدمته وهو في عزلة، خلال الوحدة التي فرضها على نفسه بعد حياة سياسية طويلة مليئـة بالعواصف. ولكنه عاد إلى الحياة العامة بعد هذه العزلة التي استمرت اربعة اعوام ، وعاش زهاء ربع قرن ؛ وفي هذا القسم الأخير من حياته، كان يضيف دائماً الى كتابه فقرات جديدة، وحتى فصولاً جديدة ؛ مما أدى إلى اثقال



الكتاب ، في بعض أقسامه ، بتفاصيل زائدة لا طائل تحتها . وهذا ما يبدو بوضوح في القسم السادس من المقدمة بوجه خاص حيث اخذت بعض الفصول شكل مقالات موسوعية أو أبحاث كتبية . ولكن ينبغي أن نلاحظ ان هذه الفصول الكثيرة التفاصيل نفسها لا تخلو من ملاحظات ونظرات اجتماعية ذات أهمية كبيرة . وإني أورد هنا مثلًا واحداً ذا دلالة واضحة :

لقد خصص ابن خلدون كثيراً من الصفحات — في الباب السادس من كتابه — لعلم اللاهوت وعلم الفقه الاسلاميين. وقد خطّ فيه الخطوط الرئيسية للمدارس والمذاهب التي قسمت المسلمين في هذا الموضوع . وعـدّد أهم الكتب التي تعرض

مبادىء كل من هذه المدارس والمذاهب، ثم أعطى أخيراً بعض المعلومات العامة عن التوزع الجغرافي لهذه المذاهب . وهو حين يلاحظ أن مذهب الامام مالك قد انتشر في المغرب ، بينما لم يجد مجالاً للانتشار في العراق ، يأخذ في تحري أسباب هذا الوضع :

فهو يلاحظ ، أول الأمر ، ان مالكاً يعود أصله إلى الحجاز وانه عاش في المدينة فوضع فيها مذهبه وأشاعه بين الناس؛ ومن أجل ذلك أصبحت هذه المدينة بؤرة المالكية .

ثم يلاحظ ، من جهة اخرى ، تأثير الحج في هذا المضمار : في كل عام يتوجه جمع كبير من سكان المغرب ، بينهم عدد وافر من الفقهاء والطلاب، إلى مكة لتأدية فريضة الحج ؛ فيمرون بالمدينة – في طريقهم – ويتاح لهم الوقوف على المذهب المالكي فيقعون تحت تأثيره ؛ ولما كانوا لا يمضون في رحلتهم إلى أبعد من ذلك ، إلا في حالات نادرة ، فانهم يظلون على جهل تام بسائر المذاهب التي كانت قد تكوّنت في الأقطار الاسلامية الأخرى . من أجل ذلك أصبح المغرب مالكياً .

ولكن مؤلفنا لا يقف عند هذا الشرح الأول ، وإنما يمضي إلى أبعد من ذلك في تحري الأسباب : فهو يلاحظ ان البناء الاجتماعي أو البنية الاجتماعية في بلاد المغرب تشبه كثيراً البنية الاجتماعية السائدة في الحجاز ، من حيث غلبة حياة القبائل الرحّل ، وحتى حول المدن . وهذا ما جعل المذهب المالكي الذي تكوّن في المدينة – آخذاً بعين الاعتبار متطلبات هذه الحياة الاجتماعية – أكثر استجابة لحاجات المغرب ، من المذاهب التي تكوّنت في بيئات حضرية حيث الحياة أشد تعقداً .

ولكن لندرك أهمية هذا الشرح ، ينبغي أن نذكر ان ابن خلدون نفسه كان مالكياً ؛ وهو قد تولى تعليم هذا المذهب فيما بعد بالقاهرة ، وتسلم وظيفة القاضي الأكبر للمالكية في مصر . ومن هنا نرى أن تعلقه الشخصي بهذا المذهب لم يمنعه من أن يبقى تجاهه في موقف الباحث العلمي المجرد عن النزعات الذاتية ؛ وأن يتحرّى العوامل الطبيعية والأرضية حتى في تعليل هذا الأمر الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالأمور الدينية والسماوية .

— ٤ —

لا شك في ان علم الاجتماع الذي وضعه ابن خلدون ليس كاملاً ؛ ثم إنه ليس خالياً من الأخطاء ولكن ينبغي ألا يغرب عن البال أنه وضع في القرن الرابع عشر . أي ٤٥٠ عاماً قبل « محاضرات الفلسفة الوضعية » لأوغست كونت .

ثم إن الجدير بالملاحظة أن ابن خلدون نفسه لا يدّعي أنه استنفد وعالج جميع القضايا التي ينبغي أن يتناولها العلم الذي وضعه ، بالرغم من الحماسة والرضى اللذين شعر بهما ، وبالرغم من الاعتزاز الحارّ الذي أظهره بخلق علم في مثل هذه الأهمية والجدّة ؛ وقد صرّح في نهاية كتابه بان «مستنبط علم من العلوم لا يُطلب منه أن يستنفد جميع مواضيعه » وأن العلوم بالاجمال لا يمكن أن تبلغ الكمال إلا تدريجياً ، بتتابع العلماء الذين يكرسون لها نشاطهم وأبحاثهم.

وفضلاً عن ذلك ، فانه في نهاية بحثه التمهيدي عبّر عن أمله بان يجد عمله من يتابعه – ويصحح أخطاءه ويسدّ نقائصه – . وقال بصراحة ، ودون ما تواضع ، إنه سيظل له الفضل « لأنه نهج له السبيل وأوضح له الطريق » .

ولكن أمل ابن خلدون في هذا الموضوع لم يتحقق مع الأسف ، فلم يقم له حلفاء جديرون باتمام عمله ، لا في الشرق ولا في الغرب. لأن العالم العربي كان قد وصل إلى حقبة من الانحطاط الفكري والانحلال السياسي ، فلم يستطع أن ينجب خلفاء أكفاء لهذا المفكر العبقري . أما العالم الاوربي فكان قد بلغ فجر النهضة ، وكان قد غرف طوال بضعة قرون من كنوز الشرق الفكرية ، بان ترجم عدداً كبيراً من الكتب العربية ، وكان قد سلك طريق الاستقلال المادي والمعنوي بالنسبة إلى ذلك العالم ، فلم يكن ليهتم بما كان يجري هناك .

ولهذا ظل كتاب ابن خلدون مجهولاً تماماً من قبل الاوربيين حتى القرن التاسع عشر ، فنشأ علم الاجتماع نشأة جديدة مستقلة عن الخطط الموضوعة في مقدمة ابن خلدون وعن المبادىء المقررة فيها. ولا ريب أنه كان في ذلك ضرر كبير بتقدم علم الاجتماع : فلو أن آراء المفكر العربي الكبير ونظرياته الاجتماعية كانت معروفة من قبل مفكري القرن الثامن عشر في اوربا، فان العلوم الاجتماعية التي كانت قد اخذت تتكون في ذلك الحين كانت تزوّدت منذ نشأتها بروح خيّرة من علم الاجتماع. ولما شهد القرن التاسع عشر المنازعات والمناقشات التي قامت بين انصار السلطان العام لعلم الاجتماع وبين المدافعين عن استقلال العلوم الاجتماعية الخاصة .

ومهما يكن من أمر، فيجب الاعتراف اليوم بان مفكراً عربياً كبيراً قد وضع وخلق علماً اجتماعياً كاملاً في القرن الرابع عشر ، وان هذا المفكر العبقري قد أظهر في مقدمته اتساعاً عظيماً في المفهوم الاجتماعي مع روح من التجرد العلمي لم

يُضاهَ في اوربا إلا في القرن التاسع عشر .

— ٥ —

وبهذه المناسبة أعتقد انه يجب ان نحيي البروفسور غاستون بوتول للخدمة التي أدّاها لذكرى ابن خلدون بسهره على اعادة طبع الترجمة للمقدمة ، وباصداره كرّاساً عن الفلسفة الاجتماعية لهذا المفكر الكبير وبحرصه اخيراً على الاستشهاد بنصوص من المقدمة في دراسته عن علم الاجتماع وفي كتابه الأخير عن الحروب . على اني اسمح لنفسي بان اوجه اليه بعض الملاحظات النقدية على بعض احكام قرأتها في مؤلفه « ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية ».

نقرأ في احد فصول هذا الكتاب ما يلي :

« كانت معرفة ابن خلدون بالتاريخ القديم معرفة ضعيفة جداً ، وإن ما يفهمه من ذلك التاريخ يلحق أحياناً بسذاجة الأساطير الشعبية : فهو يعزو بناء العمارات الرومانية الى عمالقة » (ص ١٨) .

والقسم الأول من هذا الحكم مطابق للحقيقة، ولكن القسم الثاني مغلوط تماماً : فان ابن خلدون لم يَعْزُ مطلقاً بناء العمارات الرومانية الى عمالقة. والواقع انه ذكر في اربعة فصول من المقدمة الأساطير الشعبية التي كانت سائرة في هذا الموضوع؛ ولكنه لم يذكرها الا ليفنّدها ويظهر خطأها ، وقد وصف هذه الأساطير بانها « خرافات عجيبة » و « أحكام اعتباطية قائمة على قصص الرواة » و « رأي عجيب ليس له دليل قائم على طبيعة الأشياء ، ولا برهان مستند الى تحكيم العقل »[1]

وهكذا نرى ان ابن خلدون يستعرض هذه الخرافات ليظهر خطأها وتزييفها وليبحث عن اصولها النفسية ؛ وهو يمضي فيعدد الوسائل التي اتاحت بناء تلك العمارات الفخمة التي تشبه اهرام مصر وقناطر الرومان—وهو ينصّ على ان هذه العمارات قد تيسر بناؤها :

١ — لانهم لجأوا الى استعمال المخول والأدوات التي تضاعف القوة الانسانية .

٢ — ولأن سلطان الامم التي قامت على بنائها مكّنها من حشد عدد كبير من العمال لتشغيلهم .

٣ — ولأن اعمال البناء اخيراً قد استمرت احياناً وقتاً طويلا استغرق حكم عدد من الملوك والحكام .[2]

(١) انظر ترجمة دوسلان ، ص ٢٤٤ و ٣٦٢

(٢) نظر المقدمة : الجزء الأول ص ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٢ ، والجزء الثاني ص ٢٤١، ٢٤٥، ٣٦١، ٣٧٦ .

ويتابع فيقول ان الخيال الشعبي المبهور بعظمة هذه العمارات والجاهل لجميع العوامل والوسائل المذكورة ظن ان الذين بنوها عمالقه ، ذوو قامات هائلة وقوة خارقة للعادة .

وبالاختصار أستطيع ان اؤكد انه ليس ثمة كلمة او عبارة في المقدمة تبرر التهمة الخطيرة التي وجهها الكتاب المذكور لابن خلدون . ويظهر ان البروفسور بوتول عندما قرأ عرض تلك الأساطير ، لم يكلف نفسه مؤونة متابعة الفصل حتى النهاية ، ليطلع على ما يلي ذلك البحث من ردود وتفنيدات .

وبعد توضيح هذه النقطة ، أراني مضطراً الى سرد ملاحظة ثانية تتعلق بالكتاب نفسه :

ان البروفسور بوتول يصف ابن خلدون بانه قدري ؛ ويتحدث في تسعة مواضع من كتابه عن روح القدرية التي تستحوذ على فكره . ولكن من يدرس المقدمة دون ما تغرض يلاحظ ان المؤلف لم يقل مطلقاً : « لقد وقع هذا ، لأنه كان مكتوباً ومقدراً . . » ولكنه يقول دائماً : « يحدث هذا بقوة الأشياء واستعدادها الطبيعي » واعتقد انه ليس من العدل وصف هذا الموقف الفكري والفلسفي بالقدرية . وليس موقف ابن خلدون في هذا الصدد إلا كمواقف هيبوليت تين او إميل دير كيم ، انه موقف الحتمية العلمية ، لا موقف القدرية . قد يقال ان هذه الحتمية شديدة الصرامة ، ولكنه لا يحق لأحد ان يقول انها قدرية .

واني أختم موضوعي برأيٍ لأوغست كونت الذي اعتاد الناس ان يطلقوا عليه لقب مؤسس علم الاجتماع :

فمن المعروف جيداً ان هذا الفيلسوف الكبير ، في محاضراته عن الفلسفة الوضعية يدّعي ، وهو يقيم سلّم العلوم العامة ويذكر ان علم الاجتماع يأتي في آخر سلسلة العلوم ، ان علم الاجتماع هذا لم يكن من الممكن ان يُخلق قبل القرن التاسع عشر ، لان علم البيولوجيا الذي يسبقه في هذا السلّم لم يكن بعد قد قام .

واني على يقين بان أوغست كونت لو أتاح له الحظ ان يطلع على مقدمة المفكر العربي الكبير ، لعدل عن هذا الرأي: فان كون ابن خلدون قد استطاع ان يضع مقدمته في القرن الرابع عشر، قبل قيام علم البيولوجيا بل قبل قيام علم الفيزياء نفسه ، كافٍ وحده لهدم نظرية اوغست كونت في هذا الصدد.

ساطع الحصري

حوّاء الجديدة

– الى التي احببتها دون جميع النساء –

مألتُ عنهـــا الفجر في عريهِ ... والشفق الكاسيَ ثوبَ العقيقْ
الوردَ مبثوثاً عليـــه الندى ... والمسكَ مشبوب الحنـايا فتيق
قول : يا غفو اشتمل جفنهـا ... ورُفّ يا حلم جناحـاً طليق
طوِّفْ بها في دنيوات الهنـا ... ورشها بالطيب حـــتى تفيق

* * *

هيم ، والدنيا ازدحام المـــنى ... فينثـني بيّ اليهـــا الطريق
في القرب،في البعد، وخلف المدى ... يشدُّ روحينا وتـــينٌ وثيق
شرون او توشك ان تنقضي ... وكلّ يوم لي جــديد عتيق
مسي على الشوق وأغدو كأنْ ... لم يرتشف ثغر ولا ابتلّ ريق
اعجبْ لظمآن مدى دهره ... والماء في كفيـــه ثرّ دفيق

* * *

رب عمر لي تقضّى ومـــا ... سبرتُ فيـه بعض سرّ عميق
في أي دنيا قبل هذي التقت ... أعيننـــا ؟ في أي وادٍ سحيق
أنت وجـه لجّ بي طيفـــه ... من أزلٍ ،.ورجعُ صوت شقيق
وانت طعم الحلو قبل الجنى ... وانت معنى السكر خلف الرحيق
وانت أدنى ما تكون المنى ... - بعداً ، فما في الكف غير البريق

* * *

م انت ضلع الله من اضلعي ... أعشقني فيـــك وفيّ العشيق
نظلّ يفـــني بعضنا بعضـــا ... تبقى الشرارات ويبلى الحريق

طهران

توفيق عواد

القصة العراقية الحديثة

بقلم الدكتور سهيل ادريس

يعتقد كاتب المقال ان القصة العراقية الحديثة تقف في طليعة النتاج القصصي في الادب العربي المعاصر من حيث انعكاس الاوضاع الاجتماعية في مرآة الادب. وهو يحاول في هذا المقال، وفي ما سيليه، درس هذا النتاج وتقويمه واستخراج اتجاهاته الكبرى.

ليس من اليسير على المؤرخ الأدبي ان يكوّن فكرة واضحة عن النتاج الأدبي في العراق قبل نهاية الحرب العالمية الاولى، فقد كان هذا النتاج من القلة والاضطراب بحيث يستعصي على التحري والدرس.

على ان ملامح الادب العراقي بدأت تتضح على أثر الهزّة الكبرى التي أحدثتها الثورة العربية في الشرق العربي كله. ولعل العراق كان أسبق البلاد العربية الى تسجيل انعكاسات هذا الحدث التاريخي في أدبه. وهذه النزعة التي ميزت الادب العراقي الحديث من ادب سائر البلاد العربية، ظلت تلازمه ولا تزال حتى الآن حتى أصبحت طابعه الخاص.

وتتجلى هذه النزعة، اكثر ما تتجلى، في الادب القصصي الذي أنتجه العراق في الثلاثين عاماً الماضية، فهو أوفر البلاد العربية الحديثة اهتماماً بالسياسة والاصلاح الاجتماعي، ونادراً ما تعالج الروايات والقصص العراقية مواضيع تخرج عن هذا النطاق.

ولا يترتب على ذلك ان نعدّ هذا الادب ادب دعاية، وانما هو يستحق، على العكس كل تقدير، لان كتّابه انما يعبرون عن اهتمام الامة بوضعها وحالتها السياسية والاجتماعية، ولهذا كان الادب العراقي الحديث ولا يزال، أدباً حياً صادقاً فعالاً، لانه صادر عن مجتمعه، وعاكس لمختلف تياراته.

وفي إمكاننا ان نقسم الادب القصصي في العراق، في هذه الاعوام الثلاثين الماضية، الى ثلاث مراحل لا نؤرخها بالمقياس الزمني بقدر ما نؤرخها بتطور النزعات والتيارات.

١ . المرحلة الاولى

رائد الادب القصصي في العراق هو محمود احمد السيد. «وقد تفتحت موهبته مع تفتح امل العراقيين بقيام حكم ذاتي ديموقراطي، تعود السيادة فيه للشعب الذي أراق دمه في كفاحه ضد استعمار العثمانيين والانكليز»[1] والواقع ان «السيد» قد كرّس نفسه لانتاج أدب مقاومة ونضال كان مسوقاً الى إنتاجه بسبب من أوضاع بلاده السياسية والاجتماعية، ولم يكن بوسعه إلا ان يستجيب لحاجات الشعب الاجتماعية، ومن هنا كان إسهامه في رسم الطريق الجديد.

أما آثاره الاولى: «في سبيل الزواج» (١٩٢١) و«مصير الضعفاء» (بدون تاريخ) و«التعساء» و«النكبات»، فهي عمل مبتدىء ينقص فنّه التركز والقوة والتجربة الناضجة. وقد نشر بين ١٩٢٣ و ١٩٢٨ مجموعات مقالات يرتفع فيها صوت الثورة.

ومع رواية «جلال خالد» (١٩٢٨) يبدأ محمود احمد السيد ادباً قصصياً وطنياً كان له شأن وقيمة. وهذه الرواية تصوّر نفسية شاب عراقي ينتمي الى ذلك الجيل المتحمس من المناضلين الذين خلقتهم الثورة العربية الكبرى إبان الحرب العالمية الاولى في مختلف الاقطار العربية. ففي عام ١٩١٩ غادر جلال، بطل الرواية، العراق الذي كان يحتله الانكليز وفي نيته ان يتجه الى الحجاز وطن الثورة العربية، ولكنه لم يتمكن من ذلك، فقضى حيناً من الزمن في الهند حيث صادق بعض الشبان الهنود الذين كانوا يعملون، هم الآخرين، من اجل استقلال بلادهم. وقد ربطته صداقة حميمة بصحفي هندي ثائر أتاح له مجال توسيع آفاقه الفكرية والوقوف على القضايا الاجتماعية والسياسية. وما لبث جلال أن أدرك الظلم الاجتماعي الذي يعانيه الهنود، فخرج مفهومه الوطني من إطاره الضيق الى مفهوم إنساني واسع. وقد شهد يوماً اشتباكاً عنيفاً بين البوليس والمضربين من العمال، فذكر انه انما غادر بلاده لانه لم يكن يحتمل ان تُحرم استقلالها، وأنه لم يشهد فيها يوماً أي إضراب «لانه لم يكن هناك عمال، وإنما مع الاسف فلاحون فقراء جائعون، ومع ذلك فهم مستسلمون.» وقد أثر الصحفي الهندي، وكان اشتراكياً متحمساً، تأثيراً كبيراً في

١) عبدالقادر البراق «اعلام من الشرق ص ٧٩».

جلال الذي ادرك انه يؤمن بمفاهيم كثيرة مغلوطة لم تكن ضرورة عدم تحرر المرأة العربية اقلها شأناً . وقد ظل يواصل تثقفه ويستمع الى المحاضرات العديدة التي كان يلقيها اساتذة معروفون حتى بلغه نبأ ملأه حماسة وسعادة، هو نبأ ثورة القبائل العراقية في الشمال ، عام ١٩٢٠ ، على الانكليز ، وكان يحترق شوقاً لكي يعود الى بلاده حيث يشارك في الثورة ، ولكن نبأين اخمدا حماسته ، وهو في طريق عودته : اخفاق الثورة العراقية ، واحتلال الفرنسيين لسوريا . واضطر الى الفرار والهرب ، ولكن الى عالم الكتب هذه المرة ، فعكف على قراءة جميع الكتّاب الاجتماعيين ، الشرقيين والمستشرقين ، وتأمل في حالة العرب المتأخرة فآمن بان تأخرهم مردود الى جهلهم والى الخلافات التي تقسمهم ، والى الرأسماليين الذين يستغلونهم والى السياسيين الذين يخونونهم . وسرعان ما شعر بثقل المهمة الملقاة على عاتقه بان يشن حرباً لا هوادة فيها على جميع هذه الآفات .

ولا ريب ان قيمة الكتاب تقوم على فكرة الرواية، لا على الفن القصصي فيها . فلا شك في ان المؤلف يعكس نفسية جيل باكمله حين يدرس نفسيّة جلال ، ولكنه يعمد ، من اجل ذلك ، الى طريقة تقريرية تحرم الرواية كل قيمة فنية : ذلك ان النصائح والمواعظ والدروس الاخلاقية التي تفيض بها تستنفد القارىء ، آخر الامر . واما الحادثة العاطفية التي ترافق الرواية فهي من التفكك بحيث ان حذفها لايضرّ بالرواية .

ثم اننا نجد روح جلال حاضرة في جميع اثار محمود احمد اللاحقة . فان مجموعة « الطلائع : صور واحاديث » (١٩٢٨) تحوي اصداء من الرواية الاولى . مثال ذلك « الطالب الطريد » التي تروي قصة طالب فقير طرده مدير المدرسة اثر مشاحنة حدثت بينه وبين طالب غني . والجدير بالذكر ان المؤلف قد تناول هذه الاقصوصة ، في مجموعة تالية ، ليكسبها معنى اجتماعياً ابعد واعمق ، فاننا نرى هذا الطالب نفسه ، بعد بضعة اعوام يلتحق بمصنع يعمل فيه ليكسب عيشه ، ونلمس ان اعتزازه وحسه بالجدارة الانسانية هما من القوة بحيث انه لا يتردد في ضرب صاحب المصنع الذي كان يعامله معاملة سيئة . وقد سيق طبعاً الى السّجن ، ولكن ليس لذلك اية اهمية . فان فكرة المؤلف واضحة : سيخرج صاحبنا من السجن يوماً ، ولكنه يكون قد امتلأ احساساً بالظلم وانتفاء العدل الاجتماعي ، وهو لن يقصر في التفكير بالثورة واقناع الناس بها .

وهكذا لا تقوم قيمة هذه الاقصوصة على حادثتها بالذات ، وانما على ما توحيه وتستشرفه من امكانيات . واقصوصتا « الامل المحطم » و« مجاهدون » تستمدان فكرتهما من الينبوع نفسه فتصوّر الاولى يأس الفرار ، الحل الذي ترتضيه النفوس الحائرة ، وتصور الثانية قلق فريق من الشبان الذين يحلمون باصدار جريدة ، ولكن المال كان ينقصهم . غير ان شدة ايمانهم بمشروعهم كان يحجب عنهم هذه الحقيقة ، فلا يجدون الا ان يتهم بعضهم بعضا بالاهمال والكسل .

وفي المجموعة بعد ذلك اقاصيص هي اقرب الى الصور مثل « انقلاب » و « جماح هوى » التي تصور تفتح عاطفة جنسية لدى مراهق ، و « أوَ تسهرين ؟ » و « رسالة هجر » وكلتاهما تتناول قصة علاقات تشترك فيها امرأة بغي .

ولعل خير آثار محمود احمد السيد مجموعته « في ساع من الزمن » (١٩٣٥) ففيها تصوير صادق لبعض المظاهر الاجتماعية في العراق : « عاتكة » امرأة هجرها عشيقها فسقطت في الرذيلة؛ « طالب افندي » رئيس قبيلة يعشق راقصة ؛ و « رصاصة في الفضاء » تصور نموذجاً آخر من هذا الجيل القلق الذي يؤثر احياناً الضياع ويسعى اليه بسبب انه لا يتمكن من التعبير عن عاطفته القومية .

اما اقصوصة « باداي الفايز » فهي اجمل اقاصيص الكتاب ، ولعلها من اجمل الاقاصيص العربية الحديثة . انها تصور لنا الحياة الحائرة التي تسوقها قبائل الفلاحين التي تعيش على ضفتي نهر الفرات ، وتصور اخلاق هولاء الفلاحين اصدق تصوير . فباداي شاب عزيز النفس يرفض ، كما يرفض رفاقه ، ان يسيء مالك الارض معاملته . وقد ثار يوماً على سيده حين اصابته ضربة من عصاه ، ولكن هذا السيد سخر به وعيّره بجبنه يوم امتنع عن الانتقام لاخيه اذ قتله جاسم احد رجال القبيلة المجاورة. وقد احس باداي بكرامته تجرح ، فعزم على ان يقتل « جاسم » . وقد ترصده بالفعل في الليلة التالية امام خيمته ، ولكن النهر فاض فجأة فحطم الجسور والسدو، وغمر الارض التي كانت تقوم عليها قبيلة جاسم . وحين رأى باداي عدوه يكافح من اجل انقاذ اسرته ، اقبل يعينه ، فحمل احد اولاده الى مكان امين . ثم عاد الى بيته دون ان يحقق ما جاء من اجله . وما لبثت قبيلة جاسم ان اقامت سداً جديداً وعادت

الى ارضهـــا ثم قامت المساعي للصلح بين الرجلين. ولم يتردد جاسم في ان يقدم اخته لباداي الذي تزوجها . ومنذ ذاك الحين لم يبق احد يجرؤ على ان يعيّر باداي بانه جبان .

وقد وفق المؤلف ، في هذه الاقصوصة ، الى ما لم يوفق اليه في اقاصيصه السابقة من الناحية الفنية . فان شخصياته هنا حية واضحة الخطوط ، وسرده طبيعي لاتكلف فيـه ، واسلوب الموعظة الذي يشهـده القارىء في آثاره السابقة ، غير موجود هنا ، فضلاً عن ان العادات مرسومة رسماً جيداً ، وخلق العفو عند المقدرة الذي يمتاز به العربي اجمالاً موصوف بصدق كبير.

وفي هذه المرحلة البدائية من تاريخ القصة العراقية الحديثة صدر كتابان لانور شاؤول باسم « الحصاد الاول » (١٩٣٠) و « الحصاد الثاني » (١٩٣٦) وهذا الاخير مجموعة اقاصيص مترجمة واما الاول فيضم اقاصيص موضوعـة يبدو المؤلف فيها وهو يحاول ان يعي مهمته كقصاص. وقد جاء في مقدمته:

« ان حصادي هذا لم يخل من متاعب وعقبات ، لاني لست سوى احد القصصيين العراقيين الذين يحاولون خلق القصة العراقيـة من العدم ، لست سوى « كشاف » امهد الطريق لهذا الضرب من الادب البالغ الذي اصبح له من سيطرته في عالم النشر مقـام سام وفضل لاينكر ». ثم يعرض المؤلف للصعوبات التي يجدها الكاتب العراقي في اختيار موضوعاته فيقول : « ليس مجهولا لدينا ان مجتمعنا ما زال ضمن حدود ضيقة ، وان الحرية الفكرية ما زالت في افق اعتم . وان الجمهور لم يتعود استماع قارص اللوم ومر الانتقاد يفرغه الكتاب القصصيون في صلب قصصهم ... »

وبعد ان يبوب قصص كتابه ، ينتقل الى معالجة قضية الجو العراقي وامكانياته القصصية فيقول :

«ارى ان هناك دعوى كثيراً ما يتبجح بها بعض المتأدبين مفادها ان الجو العراقي لايصلح لتكوين القصة ، اذ ليس عندنا ما يسهل ملتقيات الحب وتكثير حوادثه التي يجب ان تـكون محوراً لدوران القصة العراقية . انني ازاء هذه الدعوى لايسعني ، مع اقراري بقحول التربة الغرامية ، الا ان اعلن خطاها وبعدها عن الصواب ، اذ ان القصة لاتقوم على القبلات الحارة يتبادلها العشيقان ، او على لواعج الهوى بينها الحبيبان فحسب ، انما تستمد عناصرها من المجتمع بما فيه من عادات ، تقاليد ، مبادىء ، اخلاق وآداب ، وبما فيه من نقص او انحطاط ، او ارتبـاك او غير ذلك مما يلفت نظر القصصي ويستدعيه للاصلاح ... »

هذه المقدمة لاتخلو من اهمية. فاذا تعمقناها رأينا ان المؤلف قد اختط فيها نهجاً له في معالجة القصة . ولكن الذي يؤسف له انه لم يحقق هـــذا النهج في مجموعته ، لانها لاتضم بالاجمال الا حكايات سريعة هي تلخيص لروايات كبيرة ، لا قصص فنيــة مركّزة . ثم انها تخضع لاهمال وسهولة بارزين ، وتخلو من كل ابداع . فالمؤلف يروي بلغة جيّدة غالباً ، ولكنها غير مؤثرة ، حكايات بسيطة او غريبة لا تحمل معنى قوياً او تدل على اتجاه هام : قصة فتاة ترفض الزواج بالرجل الذي اختاره لها ذووها لتتزوج حبيبها (بنفسجة) ، وابن سفاح لايعرف الا في عهد متأخر جداً حقيقة هويته (اللقيط) وامرأة تخنق ابنتها الخامسة بعد مولدها ، بدافــع من زوجها ، فتتقطع لذلك حسرات (هذيان زوجة) وزوج ينتهي الى الجنون لفرط ادمانه على الخمر (سكر فجنون) ، وزوجة تحسب ان زوجها قتل في المعركة فتتزوج سواه ، وحين يعود الاول ، تصاب بالجنون (المجنونة). وهناك قصص خاليــة من اي معنى مثل « ضياع الاثنتين » و « مشاهد ليلة » و « المقامر » و « صفقة خاسرة » الخ ... اما التصوير الاجتماعي الصادق فنكاد لا نجـده الا في « نفنوف العيد» ، التي تروي قصـة ام تسرق لتشتري لطفلتها ثوباً ليوم العيد ، وفي« آمال ممزقة »، التي تعبر تعبيراً ضعيفاً جداً عن القلق المستحوذ على الشبان الساعين وراء مثل أعـلى مفقود . ومعظم القصص في الحق تفتقر الى السمة الخاصة وتسقط في العـــادي العمومي ، فاذا اضيف الى ذلك انعدام التحليل النفسي ظهرت بشكل اوضح القيمة الضئيلة لهذه القصص .

وقد جرت العادة على اعتبار انور شاؤول من رواد القصة العراقية الى جانب محمود السيد . اما نحن فنشبهه بالمنفلوطي في مصر . فبالرغم من ظهور كل منهما في جيل الرواد، فان تأثيرهما في خلق الأدب القصصي ضعيف جداً .

ب. المرحلة الثانية

يتضح مما تقدم ان المرحلة الاولى في نشوء الأدب القصصي بالعراق هي مرحلة تحسس وتلمّس . فان في آثار السيد لهجـة وعظ تقريرية أضرت بالناحية الفنية من قصته . اما انور شاؤول الذي حاول ان يسبـغ على قصته طابعاً فنياً أوضح ، فقد كانت معظم أقاصيصه غثة باردة .

اما المرحلة الثانية التي تبـدأ مع القصاص ذو النون ايوب حوالي ١٩٣٦ ، فقد حاولت ان تقيم القصة العراقية الحديثة على اسس أثبت وأركان أمتن . ذلك ان جل الروائيين والقصاصين الذين ظهروا فيها ، سعوا الى انتاج أدب حيّ يجمع الى حاجات الواقع الاجتماعية ، حاجات الفن ومقوماته . والواقع اننـــا نشهد في هذه المرحلة ولادة آثار فنيـة تشبه الآثار المصرية او اللبنانية التي صدرت في ذلك العهد بفرق واحد ، هو ان الآثار العراقية ظهرت إثر فترة أقصر من فترات التطور .

وأهم هذه الآثار ولا ريب مـا كتبه ذو النون ايوب في

الرواية والاقصوصة ، وهو دون شك اغزر كتاب القصة في العراق. فقد اصدر حتى ١٩٥٢ روايتين طويلتين واحدى عشرة مجموعة من الاقاصيص.

وطريقة المؤلف في تقديم أبطاله تعتمد على الحركة والعمل ، لا على التحليل والوصف . فان حركاتهم وتصرفاتهم هي التي تكشف عن اعماق نفسياتهم . ويبلغ ايوب في ذلك درجة طيبة من التوفيق والنجاح. ويتبع مجموع آثاره القصصية تطوراً هاماً يتعاقب فيه التحسن ويطّرد التقدم .

والملاحظ في مجاميعه القصصية ان كل مجموعة تتناول لوناً من الافكار يربط بين مختلف المواضيع : فبينما تصور المجموعة الاولى « رسل الثقافة » (١٩٣٦) كفاح هذه الطبقة المثقفة التي تتألف من المعلمين والاساتذة، تقدم لنا المجموعة الثانية «الضحايا» (١٩٣٧) نماذج من هؤلاء الذين يسقطون صرعى التقاليد والأوهام التي تطغى على المجتمع فتفسده . فهذه امرأة لا يمنعها ذكاؤها الألمعي من ان تسقط في الرذيلة (اقصوصة «ساقطة»)، وتلك فتاة تنتحر لأن ذويها يفرضون عليها الزواج بشيخ مسن ولكنها تسلك (طريق الخلاص) ، وتلك ايضاً فتاة لا يتردد اخوها في قتلها إذ يراها تتحدث إلى جار لها (شرف) . على ان لهجة النقد الاجتماعي تبدو اكثر اضماراً في مجموعته « صديقي » (١٩٣٨) وهي تضم بضع صور لأبطال ثائرين على التقاليد والقيود الاجتماعية . فأقصوصة « عندما تثور العاصفة » تقدم لنا موظفاً برماً بقيود وظيفته ومتطلباتها . حتى إذا صرف من الخدمة ، وهذا ما كان ينتظره بفارغ صبر ، انخرط في العمل الحر ، ولم يتردد في ان يعمل سائق سيارة ليكسب حياته «بنبل وشرف» ويعيل بعد ذلك خمسة عاطلين عن العمل . وفي هذه الاقصوصة حس فكاهي دقيق يجعل لها قيمة خاصة. واما «النهاية» و «تمرد» فتضمان آراء كاملة في فلسفة الثورة على أكاذيب المجتمع . وفي مجموعة «وحي الفن» (١٩٣٨) نلتقي بشخصيات تكاد تكون غريبة ، وهي شخصيات أتعبها الفساد وملأها المجتمع المزيف تبرماً بالحياة ، فسعت إلى التماس السلوى والهرب من الواقع بالانغمار في دنيا الفن . ونقرأ هنا احدى روائع المؤلف القصصية « حلم على نغم » التي تروي قصة تكوّن حلم على نغمات مقطوعة ريمسكي كورسكوف الشهيرة « شهرزاد » ، فان حركات هذه الموسيقى تعبر في ذلك الحلم عن مختلف مظاهر الفساد في السياسة الحكومية، حتى تبلغ نهاية المقطوعة «غرق باخرة السندباد» وهي ذات مغزى بعيد .

وفي مجموعة «الكادحون» (١٩٣٩) يستغرق ايوب في طبقة العمال والفلاحين الذين يهدي اليهم كتابه على انهم « منبع ثروة العراق» ، وهو يختارهم جميعهم تقريباً من الريف. او من سكان شواطىء النهر، كساحب المراكب، ذلك المسكين، الذي يعصى على اشد الاخطار ويقهرها ليموت آخر الأمر أتفه ميتة ، او كذلك الثائر الذي يحرز مع رفاقه ، في إحدى معاركهم ضد الانكليز ، نصراً رائعاً ولكنه لا يلبث ان يهلك في معركة ضد الجنود العراقيين انفسهم. وأقصوصة « المشنقة » في هذه المجموعة نفسها اقصوصة بديعة تستحق اهتماماً خاصاً، ولا سيما ان الحس الفكاهي الذي يتخللها يحمل في صميم ذاته حس الفجيعة :

ألقي حزباوي، الذي ثار على جنود الحكومة ، في السجن. وهناك راح يستعيد حياته الماضية، فاذا هو يفضل هذا السجن على كوخه الصغير الذي احترق ذات يوم. والذي آلمه من ذلك كله ان امرأته قد هلكت في الحريق . وقد دعاه بعد ذلك رئيس القبيلة الى مأدبة اجتمع فيها اناس كثيرون، فأكلوا كما لم يأكلوا من قبل ابداً ، ثم دعوا الى ان يقوموا بثورة ، فلم يتردد احد منهم في تلبية الدعوة . ومن سوء حظ حزباوي انه ألقي القبض عليه مع بعض رفاقه . اما الآن، وهو في السجن، فهو يشعر انه لم يقم بالثورة الا ليخفف الاشجان التي خلفها في نفسه احتراق منزله وامرأته . وها هم يحدثونه الآن عن « المشنقة »، ولكن ما هي المشنقة ؟ انه لم يسمع احداً يتحدث عنها طوال اقامته في كوخه ! فهل تكون المشنقة اختراعاً كالسيارة او كالقطار الحديدي ؟ وفي اليوم التالي أتى من يخلي سبيله ، فلم يفهم من أمره شيئاً... وسأل حارساً : لماذا أخلوا سبيله ؟ فأجابه : لقد شنقت وانتهى الأمر . وهكذا خرج حزباوي من الثورة، وفي رأسه بضعة اسرار لم يجد لها حلاً : لماذا ثار ؟ لماذا حكم عليه بالاعدام ؟ ما هي المشنقة ؟ وكيف يشنقون محكوماً عليه فلا يموت ؟ أسئلة ستظل مزروعة في رأسه حتى يتزوج من جديد ، ويومذاك ينسى امرأته الميتة والثورة وشقاءها .

إن في هذه القصة صورة صادقة جداً لسذاجة القروي وطاعته العمياء، واستسلامه الكلي ، ولاسيما انعدام اي مثل اعلى له . أوليس في اللهجة الفكاهية التي اديرت بها القصة حس تراجيدي عميق لمصير هذا الكائن الأعمى ؟ ذلك الاستسلام الذي يبدو لوناً من الاهانة هو ايضاً موضوع قصة اخرى تحمل عنوان « آلام مزمنة » وتدور حول تلك الآلام التي يتحملها الشعب بصبر عجيب حقاً.

« للبحث صلة »

سهيل ادريس

الذرة الكاشفة

وسيلة للبحث وعلاج للمرض

بقلم فؤاد صرّوف

— ١ —

لعلّ العين البشرية من أعجب الآلات التي ولدتها الطبيعة ، في دقة تركيبها وإرهاف إحساسها ، وحسن مطابقتها لقوة الضوء وضعفه ، ولكن ارتقاء العلم الحديث قضى بان تُمَدّد آفاق العين البشرية ، وتُعزّز قدرتها على الابصار ، حتى يرى العالم ما تتعذّر رؤيته عليه بالعين المجرّدة فصُنِع المرقب والمجهر ، للنفوذ الى المتناهي في البعد من ناحية ، والمتناهي في الصغر من ناحية ، ثم صنعت وسائل جديدة غاية في الدقة والبراعة والاحكام ، كمصوّر الطيف الذي يبيّن لك العناصر في جسم نجم من النجوم النائية ، ومصوّر الأشعة السينية الذي يكشف عن بعض ما يستسرّ عن العين في باطن الجسم ، وغرفة ولسون الغائمة ، التي تستطيع وتصوّر مسير الذرّات المؤيَّنة وجسيماتها . وقد طلعت على أهل العلم منذ عهد قريب ، وسيلة جديدة هي « الذرّات الكاشفة » وهي ذرّات قد وسمت بميسم خاصّ ، وأرسلت في ثنايا الجسم ، سواء أجسم إنسان كان أم جسم حيوان أو نبات أو معدن ، فراحت تتجسس عليه وتستطلع خناياه . وقد صارت هذه الذرّات ، وسيلة مجدية في علاج طائفة من الأمراض كانت قد استعصت على الجراحة والعقاقير ، ولكنّ نفعها من حيث هي معوان للعين والعقل على استطلاع أسرار الطبيعة ، وجدواها من حيث هي وسيلة جديدة للبحث أعظم وأبقى .

— ٢ —

للطاقة الذرّية نفع في علوم الطب وفروعها وما يتصل بها من علوم الحياة. ففي السنوات الخمس الأخيرة من القرن التاسع عشر ، تم للعلماء أربعة كشوف خطيرة كان أولها الأشعة السينية التي كشفها رنتجن ، وثانيها ظاهرة النشاط الاشعاعي التي كشفها بكريل ، وثالثها كشف عنصر الراديوم — وقد كان نتيجة طبيعية لكشف بكريل — الذي تم لبيير كوري وزوجته ، وكان رابعها كشف الكهيرب الذي تمّ لجوزيف طمسن . ولم تكن هذه الكشوف الاربعة أحداثاً خطيرة في تقدم علم الطبيعة ودراسة الذرة وحسب ، بل كانت أيضاً مراحل ذات شأن في تقدم علوم الطب والعلاج ، ولا سيما الثلاثة الاولى منها . ولست إخال احداً ينكر ان للانتفاع بالاشعة السينية واشعة الراديوم أثراً يذكر في وسائل العلاج الطبي الحديث ولا سيما السرطان . وابلغ دليل على اثرها ومنزلتها ، ان صار بين علوم الطب علم جديد هو علم الاشعة والانتفاع بها في التشخيص والعلاج .

ومنذ عشرين سنة او اقل قليلاً كشف العلماء كشفين خطيرين . اما الاول فهو النترون واما الثاني فهو النشاط الاشعاعي المستحدث ، او النشاط الاشعاعي المصطنع . وللنترون شأن خطير في تركيب نواة الذرّة ثم في شطر نواة ذرة اليورانيوم والبلوتونيوم وإطلاق الطاقة الذرية ، ولكن قبل ان يتم للعلماء الالمان شطر ذرة اليورانيوم تم لغيرهم في منتصف العقد الرابع من هذا القرن تحويل العناصر غير المشعة الى عناصر مشعة . فقد وجدوا ان عناصر ساكنة مستقرة كالفضة والنحاس والكربون وغيرها — وهي ابعد ما تكون في طبائعها عن عنصر دائم التفجر والانحلال كالراديوم — يمكن ان تهيّجها فتصير عناصر مشعة . فكأنك اخذت مقعداً مشلولاً ونفخت فيه روحاً جديداً او حقنته بعقار قوي فقفز من سريره وأصرّ على ان يشترك في الالعاب الاولمبية . والعناصر المشعة نادرة في الطبيعة ولذلك تراها غالية الثمن . وقد كان الغرام الواحد من الراديوم يباع بآلاف الجنيهات او اكثر ، وكانت المستشفيات تتنافس في سبيل الظفر بقليل منه ، ويوم ارادت الامة الاميركية ان تكرم مدام كوري اكتتبت بالمال لشراء غرام وحسب من الراديوم واهدته اليها . فتحويل العناصر

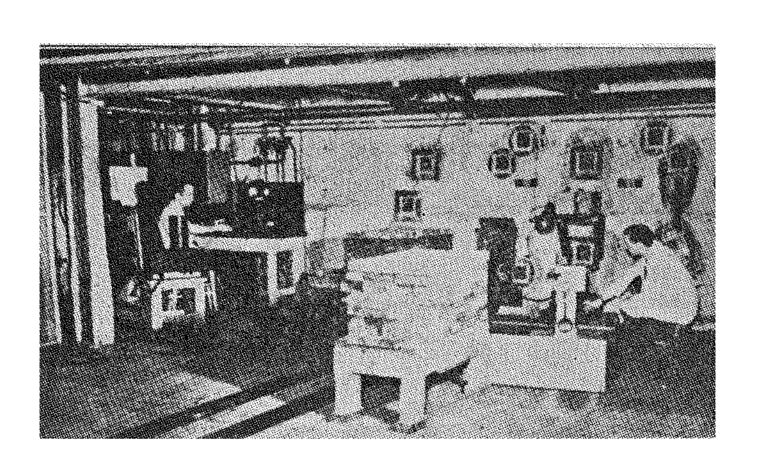
> **« أصبحت الذرة الكاشفة الآن أداة نافعة في أيدي الرجال الذين يبحثون بحوثاً أصيلة في وظائف الأعضاء والأنسجة وما يجري فيها من تفاعل كيميائي في حالتي الصحة والمرض ، فهي كالمجهر والمرقب وغيرهما من الوسائل الجديدة للبحث تعين الباحث على ان يسبر أسراراً كانت مستكنّة عنه في باطن الجسم الحيّ . »**

غير المشعة الى عناصر اخرى مشعة خطوة عظيمة الشأن في دراسة طبيعة المادة . ولما كان بعض العناصر له نفع طبي ، او شأن في دراسة طبائع الاحياء ووظائف انسجتها وما يجري فيها من تفاعل كيميائي ، فان تحويل غير المشعّ منها الى مشعّ خطوة عظيمة الشأن ايضاً في علوم الطب وما يتصل بها من علوم الحياة.

وهذا النفع لا يقتصر على استعمال هذه العناصر في العلاج وحسب ، كالانتفاع بالصوديوم الذي استحدث فيه النشاط الاشعاعي بدلاً من الراديوم . ويمتاز الصوديوم المشع على الراديوم ، بان « نصف حياته » ، اي الزمن الذي يصبح فيه إشعاعه نصف ما كان ، لا يزيد على ١٥ ساعة ، على حين ان « نصف حياة » الراديوم يبلغ ١٦٢٢ سنة . فلا خطر من الصوديوم المشع اذا استقر في احد الاعضاء او الانسجة ، اما الراديوم فاذا استقر ظلّ يطلق القذائف المنبعثة من انحلاله زمناً طويلاً على الانساج المختلفة ، فينتهي به الامر الى احداث الانحلال او التسمم . ثم ان الصوديوم المشع لا يطلق الا اشعة جما ، أما الراديوم فيطلق دقائق ألفا ، فاستعمال الصوديوم المشع في الطب اسهل وأقل خطراً من استعمال الراديوم .

وقد صنع العلماء قبل نشوب الحرب العالمية الثانية حتى سنة ١٩٤٠ ما يبلغ ٤٠٠ نظير مشِعّ من نظائر العناصر المعروفة . وكثير من هذه النظائر له نفع في الطب والعلوم المتصلة به ولكن نفعهُ لا يقتصر على العلاج بل يتعداه الى ما هو في نظري أجلُّ شأناً من العلاج ، فالذرّات المشعة أصبحت الآن أداة نافعة في أيدي الرجال الذين يبحثون بحوثاً أصيلة في وظائف الاعضاء والانسجة وما يجري فيها من تفاعل كيميائي في حالتي الصحة والمرض ، فهي كالمجهر والمرقب وغيرهما من الوسائل الجديدة للبحث تعين الباحث على ان يسبر أسراراً كانت مستكنة عنه في باطن الجسم الحيّ .

قتاة أعطيت جرعة فيها اليود المشع ، وبعد قليل دل عداد جيجر الموضوع تحت ذقنها ان غدتها الدرقية قد امتصت دقائق اليود المشع كما هو مفسر في المقال



علماء يشتغلون في حجرة في الفرن الذري تفصلهم عن قلب الفرن جدران سمكها بضع اقدام من الأبرق (الاسمنت المسلح)

وأصل هذه الاداة يعود الى كشف تمّ مصادفة في سنة ١٩١٣ ولم يأبه له غير نفر قليل من العلماء . فقد وجد باحثان ان الخواص الكيميائية لمادة راديوم (د) — وهي مادة مشعة — لا تختلف عن الخواص الكيميائية لعنصر الرصاص اي ان الاول نظير الثاني . فاذا مزج قليل من المادة الاولى مع كثير من المادة الثانية تعذر بعد ذلك فصل احداهما عن الاخرى بأية وسيلة كيميائية معروفة ، فأفضى هذا الكشف على مراحل متوالية الى ابتكار الطريقة المعروفة باسم « الذرات الكاشفة » . خذ مثلاً عنصراً كالصوديوم أو الحديد ، واصنع منه نظيراً مشعاً — أي استحدث فيه الاشعاع فهو ليس بالعنصر المشع — ثم امزج قليلاً من ذرات هذا النظير المشع بكثير من ذراته المعهودة ، وأدخل هذا المزيج في اي مركب مثل كلوريد الصوديوم ، اي ملح الطعام ، وضع هذا الملح في طعام فأر او ارنب او انسان. ففي العادة لا تستطيع ان تعرف كثيراً عما يتم لهذا الملح متى دخل الجسم ، ولا ان تتبع مراحل تحوله ، ولكن الذرات المشعة التي دخلت في تركيب هذا الملح لا تلبث حتى تنمّ عليه اي تكشف وجوده في خلال سيره في الجسم ، ومن هنا أسماها الانكليز TRACER ATOMS وخير ترجمة عربية لها فيما أعلم هي : « الذرات الكاشفة » ومثل الصوديوم المشع في ملح الطعام كمثل حوض من الماء ملأته حتى الشفة ، ثم صببت فيه ابريق ماء ، فيطغى الماء على حافة الحوض ، ولكنك لا تعلم أفي الماء الذي طغى وانصبّ شيء من ماء الابريق ؟ فاذا ملأت الابريق ماء احمر وصببته في الحوض ، صار في وسعك ان تتبين مسير الماء المحمر في الحوض الممتلىء . فجزيئات الماء التي خضبت بالأحمر هي كذرات الصوديوم المشع .

وعلى ان الانتفاع بالطاقة الذرية ممثلة في إشعاع الراديوم والنشاط الاشعاعي المستحدث كان معروفاً منذ اوائل العقد الرابع من هذا القرن ، وقد انقذ من الناس اكثر من الذين فتكت بهم قنبلة هيروشيما ، فان التطور الجديد في اطلاق الطاقة الذرية على النحو المعروف في الأفران الذرية ، قد زاده زيادة كبيرة وفرت النترونات المتولدة من اليورانيوم ، وهذه النترونات لازمة لتوليد النظائر في مقادير أكبر وأقل ثمناً ، فصارت فرص الانتفاع بها في البحث والعلاج أوفر وأجدى ، ولذلك نرى العلماء يعتقدون اليوم أن ما تم حتى الآن ليس سوى توطئة يسيرة لما يُنتظر .

— ٣ —

وأشهر الأمكنة لتوليد النظائر المشعة من العناصر هي «معمل اوكريدج» في الولايات المتحدة الاميركية ، ومعمل « هادويل » في انكلترا ، وقد أنشيء أولهما في سنة ١٩٤٣ ، وجعل توليد النظائر المشعة في أفران اليورانيوم فيه ، جزءاً اصيلًا من مهمته منذ ايامه الأولى ، وكان على علمائه ان يستقصوا خواص هذه النظائر حتى يستطيعوا ان يوقوا العاملين في انتاجها شر التعرض لها ، وان يضعوا القواعد لقياس قوتها وضمان نقائها وحسن تعبئتها ، حتى تصير متاحة لمن يطلبها من معاهد البحث . وقد دأبوا على ذلك ، فلما كانت سنة ١٩٤٦ أذاعوا انه صار في وسعهم ان يزوّدوا معاهد البحث العلمي بمقادير وافرة منها ، ومنذ ذلك اليوم بعثوا بعشرة آلاف شحنة منها أو اكثر الى معاهد في الولايات المتحدة واخرى متفرقة في اربعين بلداً آخر او نحوها . والثاني على غرار الأول .

وكل نظير مشع له قدرة معروفة على الاشعاع ، وإشعاع بعضها ضعيف تحجبه صحائف قليلة من الورق وإشعاع بعض آخر منها وسط تحجبه رقائق من المعدن أو اللدائن ؛ وأما إشعاع البقية فقوي نافذ كالأشعة السينية والنترونات ولا تحجبه سوى طبقة من الأبرق (الاسمنت المسلح) سمكها بضع اقدام او لوح من الرصاص سمكه بضع بوصات .

والطلب على هذه النظائر المشعة كثير ، وأكثر الطلب على نظير اليود ١٣١ ، فعلى نظير الفصفور ٣٢ ، فعلى نظير الكربون ١٤ ، وقد بلغ عدد النظائر المشعة التي صنعت ووزعت على معاهد البحث مئة أو تزيد ، وبينها نظائر الصوديوم والكبريت والكالسيوم والكلور والنحاس والكوبلت والذهب والحديد والزئبق والفضة والقصدير والزنك .

وإذا أردت الاجمال فقد انتفع العلماء بهذه النظائر في دراسة تركيب الدم ومقدار الحديد الذي يحتاج اليه الجسم المعافى ، ولِمَ يفقد الجسم مقداراً كبيراً من أملاحه بعد أن يصاب بأذى حادّ ، وكيف تؤثر بعض العقاقير في الجسم المريض — بالبول السكري مثلًا ، وفي استطلاع أسرار ضروب من النوامي السرطانية وهكذا ، ومن أحدثها وأعظمها شأناً استطلاع السرطان في النخاع بواسطة الفصفور المشعّ .



صورة ثمار الطماطم (البندورة) وأوراقها بعد ان غمست في محلول فيه نظير مشع من نظائر الفصفور

وإذا طلبت شيئاً من التفصيل ، فلنذكر أن من أعجب التجارب التي تمت في هذا الصدد تجربة أجروها على ميناء أسنان الجرذان ، فقد وضعوا في اللبن فصفوراً يحتوي قليلًا من ذرات نظير مشع من نظائر الفصفور ثم قدّم اللبن للجرذان ، فتتبّع العلماء سير هذا الفصفور في جسمها حتى استقر في ميناء اسنانها . أو خذ عنصر اليود ، فهو من العناصر التي ولدت لها نظائر مشعة ، فثبت أن نظير اليود المشع يغني عن الراديوم وعن مبضع الجراح في علاج النوامي السرطانية وبخاصة ما كان منها في الغدد الدرقية . ذلك بأن اليود المشع يسير بطبيعته بعد أن يدخل الجسم الى مستودعه الرئيسي في الجسم وهو الغدة الدرقية ، فاذا بلغها جعلت الذرات المشعة تطلق اشعاعها الى حين ، فيفعل هذا الاشعاع فعل ابر مغروزة في الغدة تحتوي على مقدار من الراديوم .

ثم ان الذرات المشعة في مقدار ما من اليود « أي الذرات الكاشفة » تمكن علماء وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية من أن يتتبعوا مسير اليود في الجسم ، فهو ينمّ على مسيره بما ينطلق منه

من أمواج تُكشف وتحصى بأجهزة صارت شائعة – كجهاز « عدّاد جيجر » .

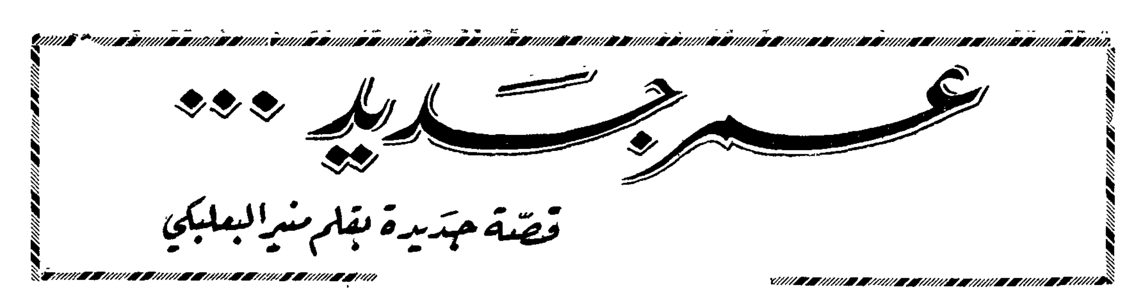
وقد وجدوا منذ بضع سنوات بواسطة الذرات الكاشفة من الفصفور المشع أن جرعة من الفصفور تتركز بعد تناولها في المراكز التي تولد الدم في الجسم فصار هذا الكشف أساساً لعلاج بعض أمراض الدم مثل اللوكيميا التي تطغى فيها كريات الدم البيض وتوصف أحياناً بـ « سرطان الدم » . وعلى أن الفصفور المشع ليس علاجاً ناجعاً في مرض اللوكيميا ، إلا انه من الوسائل التي تفضي الى تحسن الحالة . ولكن المواد المشعة التي كانت تولد في الجهاز الرحوي Cyclotron قبل ان صنع الفرن الذرّي ، كانت غالية تجعل كلفة العلاج الواحد في حدود مئة دولار ، فلما صارت الأفران الذرية تولد النظائر المشعة هبطت الكلفة الى ستة دولارات أو أقل. وقد استعمل المنغنيس المشع والذهب المشع في هذا الباب أيضاً ، والحديد المشع في دراسة فقر الدم . وعمد بعض الباحثين الى محاولة استطلاع سرّ السرطان فتراهم يضيفون النظائر المشعة الى شتى العقاقير والمواد كالهرمونات الجنسية وهرمونات قشرة الكظرين ويحقنون بها، فتدلهم الذرّات الكاشفة على أشياء كانوا يجهلونها عن تكاثر الخلايا تكاثراً طاغياً. وهذا التكاثر هو منبت السرطان .

وقد عمدت جماعة اخرى من العلماء الى الانتفاع بالنظائر المشعة وذراتها الكاشفة في التجسس على أسرار النبات، فاستعملوا الزنك المشع في دراسة موضوع الغذاء في النبات ، والكربون المشع في استطلاع التركيب الضوئي وهو كما تعلم ، عماد كل غذاء نباتي وحيواني في الطبيعة ، والكبريت المشع في استكشاف تركيب البنسلين ، والفصفور المشع في دراسة باشلّس السل وكيف يدخل جسم الانسان وكيف يؤثر فيه .

— ٤ —

لو عقل الناس لوجدوا في الطاقة الذرية خيراً عميماً ، ولتوقوا شرها المدمر المهلك .

فؤاد صروف



كانت السماء غائمةً تتردد بين المطر والصحو ، وقد بردت حواشي الشمس حتى لكأنهـا على موعد مع حبيب ، عندما اتخذتُ سبيلي الى محطة الجميزة لاستقلّ الترام الى مكتبة الجامعة الاميركية، حيث اعتدت أن انفق ساعات ما بعد الظهر من كل يوم في مراجعة المصادر العربية والافرنجية التي تساعدني على إنجاز أطروحتي عن « المجتمع الأمثل ومقوّماته » .

ولم اكد انتهي في سيري الحثيث الى كنيسة « سيدة النجاة » القائمة غيرَ بعيدٍ من المحطة ، حتى التقيت شاباً غائر العينين ، شمعيّ اللون ، رثّ الثياب ، عرفت فيه « مسعود الطمليسي » رفيقنا في الكتّاب الذي كنت اتعلّم فيه أنا وأخي الاكبر في أيام الصبا الأوّل . فألقى عليّ تحيةً تمور باللهفة والاحترام ، فحيّيته بأحسن منها ، وسألته عن حاله ، فقال وكأنما يشير الى حقارة مظهره ، وهوان شأنه :

— الحال كما ترى يا استاذ ! ..

فقلت : وماذا تعمل في هذه الأيام ؟

فقال في تهكم مرير ما يزال جَرْسه يرنُّ في أذني :

— قواص عند ربنا ... يظهر أنه ليس لنا محل في هـذه الأرض الواسعة ... ولكن لا بأس . إشتدّي أزمة تنفرجي، كما كان يقول شيخنا في الكتّاب ...

فقلت : صحيح . لقد كان رحمه الله يكثر من ترديد هذه الحكمة البالغة في مختلف المناسبات .

فتساءل ، وقد طغت على وجهه سحابة من الكدر : « وهل مات شيخنا ذاك ، ومتى ؟ .

— مات منـــذ أيام ، ودُفن في احتفالٍ لائق بقدره ومكانته ...

فلمعت عيناه بالدمع وقال : يظهر أني غـير موجود في البلد. الله يرحمك يا شيخ سلمان، لقد استرحت من هذه الدنيا.. ولكن ما قولك يا أستاذ في إنسانٍ مات ولم يُدفن بعد ؟ ! .

فقلت : ومن هو ذلك الشقيّ المسكين ؟

فاجاب وهو يضحك ضحكة صفراء : محسوبك ، منحوس الطمليسي .. !

*

كان الناس ينتظرون الترام ، عند محطة الجميزة ، في صبر متكلّفٍ وتأنٍّ لاينطوي على كثير من السلامة . فقد كانت عقارب الساعات التي يحملونها تخطو خطواتٍ قافزة نحو الثالثة والربع ، وهو الموعد الذي تدور فيه آلات السينما في مدينة بيروت دورانها المسعور، ومع ذلك فهذا الترام السخيف يتأخر لسببٍ غـير معلوم ، فيتكاثر المنتظرون وتزدحم بهم المحطة ، ويأخذون في تعليل هـذا التأخر غير المتوقّع في تلك اللحظة الحاسمة من النهار ... ويغتنم سوّاقو المنطقة الفرصة فيُقبلون بسياراتهم الحسان ، وكلها من موديل ٥١ أو ٥٢ ، يغرون الواقفين بركوبها الى ساحة الشهداء بربع ليرة ليس غـير . فيُقدم فريق، ويحجم فريق ، ويوازن آخرون بين محاسن النزول الى السينما في سيارة فخمة ، ومحاسن النزول اليها بخمسة قروش قد تُدفـَع ، آخر الأمر ، وقد لا تُدْفـَع ...

وإذْ لم اكن قاصداً ساحةَ الشهداء التي تمثّل نهاية المطاف بالنسبة الى تلك السيارات الفارهة ، فقد أوصدتُ أذنيّ دون نداءات السوّاقين،وبقيت انتظر تشريف الترام الذي لايعرف للوقت قيمة ، وأنا شارد الذهن، تضجّ في جنبات نفسي اسئلة متلاحقة ، وتأملات موصولة، أثارتها كلمات « مسعود » الأخيرة التي تختصر قصةً لا شك أنها طويلة فاجعة ...

واخيراً أقبل الترام مزدوجاً يفحّ فحيح الآلة العتيقة . فهجم عليه الناس في فوضىً صاخبة تؤذن بأننا ما زلنا بعيدين جداً عن فهم روح النظام . ولم أشأ أن أحشر نفسي مع المنحشرين ، فصبرت حتى يأتي الترام الثاني .

وأقبل الترام الثاني ، وتبعَهُ ثالث ورابع ، قبل أن آنس من نفسي الاستعداد لمغادرة رصيف المحطة الذي أوشك على الأقفار . فقـد كان مجرد التفكير في مسعود الطمليسي يزيدني زهداً في الذهاب الى الجامعة والانصراف الى مراجعة المصادر

المتصلة بأطروحتي عن المجتمع الأمثل . وايّ فائدة من وضع الرسائل في هذا الموضوع ما دام في المجتمع مسعود الطمليسي وامثال مسعود الطمليسي من الذين ماتوا ولم يدفنوا بعد ...

*

لم يُنَشَّأ مسعودٌ في الحلْبة ، شأنَ أولاد الذوات ، فقد مات أبوه في أواخر الحرب الماضية ، تاركاً أمه وهي حاملٌ به ، وليس لها من عُدّة الحياة غير الصبر ، وغير بضع ليرات تركية لاتسمن ولا تغني من جوع .

وأبصر مسعود النور عشية انتهاء الحرب بتوقيع الهدنة ، فاستبشرت أمه به وأسمته « مسعود » على رجاء ان تكون أيامه حلوةً ميمونة الطالع ... وطفقت تعمل خادمةً في بيوت بعض الكبراء لتقي نفسها وولدها الوحيد غوائل الفاقة والعوز .

وترعرع مسعود على صدر الحنان الغامر والرعاية الجازعة. وحين بلغ الخامسة من سنيه أدخلته أمه كتّاب الشيخ سلمان القريب من بيتنا حيث كان في ما أذكر في طليعة الطلاب ذكاءً واجتهاداً وحسنَ سلوك ...



ولم يطل عهد مسعود بالتلمذة ، فقد اضطرّت أمه الى أن تشغله عند أحد النجارين أول الأمر ، ثم عند بعض الخياطين . حتى اذا استوى شبابُهُ عملَ قاطعاً للتذاكر في شركة ترام بيروت هذه ، التي تغيّر كل شيء في الدنيا ما عدا قاطراتها السلحفائية وحافلاتها القطعانية ... أليس هذا الترام المقبل من أقصى فرن الشباك ، وكأنه متثائب يتمطّى ، هو عين ذلك الترام الذي كنت ألقى فيه « مسعود الطمليسي » يقطع التذاكر للركاب ، ويجمع القروش والليرات لأصحاب الشركة ، وهو يرسل النكات ذات اليمين وذات الشمال ، يستعين بها على التعب والهمّ وكيد الزمان ؟

وكان الترام شبه فارغ ، هذه المرة ، فسارعت الى ركوبه وأنا أمنّي النفس بأن التقي بقاطع تذاكر يستطيع ان يحدّثني بقية حديث مسعود ، ويكشف لي عن المجهول من أمره .

وشاءت المصادفة ان يكون قاطع التذاكر في الترام الذي صعدت اليه هو مصطفى الافغاني ، ذلك « الفيلسوف » الذي يعرفه ركاب الترامواي ، منذ كان الترامواي ، ويعجبون بظرفه وحديثه الموشّى بالكلمات الفرنسية حيناً ، الانكليزية حيناً .

ولم يكد مصطفى يهرع إليّ ليقطع لي تذكرة من تذاكر الدرجة الثانية حتى حييته ثم سألته بلهجه تجاهل :

— انقضت مدة لم أر فيها مسعود الطمليسي ، وعلمي انه كان يعمل في هذه الشركة ، فهل تعرف من أمره شيئاً ؟

فأجابني مصطفى في حماسة :

— أوه مسعود الطمليسي ؟ انه رجل طيب ولكنه منحوس ، جادله مرةً المفتش زكي الحابوني ، أتعرفه زكي المتكبر المتغطرس ؟ فأهانه ، فرمى مسعود بمحافظة تذاكره المعدنية على احد مقاعد الترام ، وهجم على المفتش يريد ان يثأر لكرامته ، ولكن الركاب حالوا بينه وبينه ...

وتركني مصطفى فجأة ، وانصرف الى الركاب الجدد الذين صعدوا الى الحافلة فسمعت صوته ينادي :

— من منكم لم يقطع ورقة يا اخوان ؟ إنها قضية خمسة قروش... Ce n'est pas trop مدّوا ايديكم الى جيوبكم العامرة يا اخوان ...

وعاد إليّ بعد لحظات ضاحكاً وهو يقول :

— Yes Sir, Ready Sir الى اين وصلنا ؟ اي نعم ، بعد هذه الحادثة كان من الطبيعي ان يُفصَل مسعود من الشركة ... لماذا ؟ لأن الشركة تريد ان تحافظ على كرامة حضرة المفتش الذي أهان قاطع التذاكر الحقير ! الحاصل انهم طردوه ... ورأيته بعد ذلك مرةً فأبلغني انه لم يجد عملًا . ثم رأيته مرةً اخرى فطلب مني ان اقرضه ليرة ، فاستدنتها من أموال الشركة ، وحسموها من راتبي آخر الشهر ...

وغادرني مصطفى فجأة ، كما حدث في المرة الأولى ، ولكنه أومأ إليّ وكأنه يقول : سأرجع حالاً .

— من لم يدفع يا شباب ؟ مرسي مدام ! انت هناك ، كل مرة تصعد بالمجان ! هل الشركة من مال ابيك ؟ ..

ثم خفَتَ صوته فجأة فسمعه بعضهم يستدرك :

— اي والله .. من مال ابيك وأبي وآباء جميع الركاب !

وكان قد عاد إليّ فاستأنف حديثَه قائلًا :

— ولما رأيت الطمليسي آخر مرة كان في حالة يرثى لها ، فلم أستطع ان اطالبه بالليرة ، بل أعطيته ما فيه النصيب . ولم أره بعد ذلك ... الظاهر انه بدأ يستحي مني ، إلى ان سمعت انه ألقى نفسه يوماً تحت عجلات الترام ... لقد حسب المسكين الطيب القلب انه يحرّك بذلك ضمير الشركة ، ولكن لحسن حظه او لسوئه اوقف السائق الحافلة بمعجزة ، فنجا مسعود من الموت وكتب له كما يقولون عمرٌ جديد ...

وانحنى مصطفى فجأة وهمس في أذني على عجل :

— صعد المفتش !..

ثم انطلق صوته في أرجاء الحافلة قوياً :

— ورقة يا شباب ، من لم يدفع فليمدّ يده الى جيبه ! .

وكنت قد بلغت المحطة التي تسبق محطة الجامعة الاميركية ، حيث كان عليّ ان أترجّل ، فخشيت ان تفوتني بقية قصة مسعود ، إن كانت لها بقية . فما ان توارى شبح المفتش حتى خطوت الى مصطفى وسألته ان يتمّ لي بكلمتين ما كان يرويه ، فعلمت منه ان مسعود تمكن بعد ذلك من الالتحاق بمرأب للسيارات تولى فيه بعض الأعمال الابتدائية التي لا تحتاج الى خبرة فنية ، ولكنه ما لبث ان صُرف بسبب من الأزمة الاقتصادية التي كانت تتفاقم آنذاك . ولم يتردد مسعود في ان يلقي نفسه هذه المرة تحت عجلات إحدى السيارات ، حاسباً انه ينتقم بذلك من أصحاب المرائب الذين يقذفون بعمالهم الى الشوارع ساعة يشاؤون .

— ولكن من حسن حظه ، أو من سوئه ، أوقف السائق سيارته بمعجزة ، فنجا مسعود من الموت ، وكُتب له مرةً اخرى ، عمرٌ جديد ... مع السلامة يا أستاذ !

ونزلت عند محطة الجامعة الأميركية ، واتخذت طريقي متثاقلًا الى المكتبة . ما أحمقك يا مسعود ! تلقي بنفسك تحت عجلات الآلة التي توهمتها سبباً لشقائك ؟ ! إنك جبان لا تعرف معنى للصبر على البلاء ... عفوك يا مسعود ! وهل تستحق من الناس إلا ان يرثوا لك ، بسبب ما تعانيه ، في الحياة ، من حرمان وقلق واضطهاد ؟ ...

*

وحين دخلت حَرَمَ المكتبة شرعت أراجع بعض النصوص .. ولكني شعرت فجأة أني في حال لا تساعدني على متابعة النظر في هذه الكتب التي تتحدث عما يدعونه حقوق الانسان . . . وشرد ذهني شروداً بعيداً : تُرَى أيمتدّ الأجل بمسعود الطمليسي وزملائه ، الى زمن تنتفي فيه الأسباب التي تحمل مواطناً في نضرة الشباب على أن يقرع باب الموت ، مرةً بعد مرةً ، بيدٍ ما خُلِقَتْ إلا لتقرع أبواب الحياة ، وبذلك يُكتب لهذه الفئة من الناس عمرٌ جديد ، ولكنه مستبشر سعيد ، فيه شِبَعٌ وريٌ ، وفيه أمن ومعرفة ، وفيه كل ما يليق بكرامة الانسان ؟ ...

وتطلعت من شرفة المكتبة الى الأفق البعيد . فرأيته غاصاً بالسحب الداكنة ... وما هي إلا فترة حتى أومض البرق ، وقصف الرعد ، وانهمر في أعقابها مطر غزير ...

منير البعلبكي

انسانيّة شوهاء!..

بقلم الدكتور جورج حنا

إذا رغبت ايها الانسان ان ترى مشهداً تحمرّ منه عيناك وتتقزز له نفسك، فاذهب يوم العيد في جولة على دور البر والاحسان، او على الدور التي يطلق عليها هذا الاسم، وشاهد بعينك قبل ان تحمرّ، ما يقشعر له بدنك، وعندها لا تلُمْ عينك إذا احمرتّ، وقدح منها شرر الحقد على «انسانية» تستبيح إذلال الانسان والحطّ من قيمته، بينما لا يخجل مدّعوها من القول بانهم اهل بر وخير وإحسان.

ولتكن جولتك ايها الانسان، في الوقت الذي يوزّع فيه المحسنون إحسانهم، او الاحسان الذي يجمعونه من التبرعات، لترى الجماهير امام الدار: الولدان يخترقون الصفوف ببهلوانيتهم، والنساء يستعنّ بالصياح، والعجزة يتوكأون على عكاكيزهم، ورجل الشرطة، وهو ما لا يستغنى عنه في هذه المناسبة، يرفس هذا ويدفش ذاك، مستعيناً بسوطه عند الحاجة. ولا بدّ ان ترى، مع من ترى، رجلاً واقفاً على حافة عالية، يحمل بيديه آلة التصوير، ليصور جائعاً يلتقط رغيفاً او بيضة، او حفنة من السكر والأرز، من يد محسن او محسنة، يشرئب او تشرئب تيهاً، بيد ممدودة للعطاء، فيما يكون الفقير المسكين ماداً يد الذل...

وإذا فاتك المشهد ايها الانسان، فحاول الا يفوتك الاطلاع على الصحف الصادرة في اليوم التالي للعيد، لتقرأ فيها الاشادة بانسانية المحسنين، وتشاهد فيها الصور التي التقطها لهم، بطلب منهم، وباجرة اقتطعوها من رصيد التبرعات، مصور الامس، ثم قل لعينك ما أحلى احمرارك، وقل لنفسك ما اقدس حقدك على هذه الانسانية الشوهاء، وعلى هؤلاء المحسنين المتجبرين.

وكأني بالمحسنين هؤلاء، يحسبون الاحسان بضاعة من بضاعة السوق، تحتاج فيما تحتاج، إلى من يسمسر لها، او يسمسر عليها، والى من ينفخ لها بالبوق، وإلى من يسفّ بالاتجار بها، طمعاً بما يحصل لهم عن طريقها من صيت ونفوذ، او ما يجنونه من ارباح، غير آبهين لانسانية الاحسان، وللخير المتوخى منه للفقير والمحروم. ما كان اغنى البشرية عن هؤلاء المحسنين، الذين تُقرع لاحسانهم الطبول كلما أطعموا جائعاً، او آووا يتيماً، أو آسوا مريضاً، متعمدين إذلال الجائع واليتيم والمريض، متجاهلين تجاهلاً مقصوداً ذميماً، ان الاحسان هو ما تفعله يمينك ولا تدري به يسارك، وإن الاحسان الذي يذل نفس المحسَن اليه، نقيصة لا الفضيلة، وإن أذل انواع الذل ذل الاحسان.

ويحدثونك ايها الانسان عن الانسانية وقيمها، واصولها وفنونها، وأشكالها وألوانها، كأن للانسانية اشكالاً وفنوناً وألواناً، احاديث سداها دجل وشعوذة، ولحمتها رياءٌ ونفاق، ويحدثونك عن محسنين يطوفون الاسواق لجمع التبرعات، او لشحاذتها، بعد ان يكونوا هم، او ابناء فصيلتهم، قد التهموا الاسواق وما في الاسواق، وعن محسنين يطعمون جائعاً يوم العيد، بعد ان يكونوا هم، او ابناء فصيلتهم، احتكروا الرغيف قبل العيد وبعد العيد، وعن محسنين يواسون مريضاً بعد ان يكونوا هم أو ابناء فصيلتهم جعلوا من المرض والمريض تجارة تدر عليهم الربح الكثير، ويصورون لك هؤلاء حملة لواء الانسانية وارباب المكرمات، على صدورهم تتعزز الأوسمة، وبمآثرهم يتحدث الخطباء والكتاب، ألا قل لهم ان الانسانية الحقة براء من هؤلاء المحسنين، وبراء مما يذاع عنهم، ومما ينشر ويقال.

كان لي حديث ذات يوم مع نفر من هؤلاء المحسنين، وكان حديثي معهم أقرب الى التوبيخ الناعم، وعندما انكرت عليهم هذه الدعاية التي يحيطون بها اعمالهم الاحسانية، او ما يسمونه هم أعمالاً احسانية، أجابوني بعذر أقبح من ذنب، وهو ان المؤسسة التي ينتمون اليها، ويأتون اعمالهم باسمها، مؤسسة دولية، وان مركز هذه المؤسسة العام يشترط لمساعداته لهم، ان يرسلوا له رسوم المشاهد التي أُخذت، ليضمها إلى ملفّات اعمال المؤسسة الذائعة الصيت، ويعرف العالم مدى خدمتها للانسانية، فيثق بها المحسنون. وعندما عرفتُ المؤسسة، وعرفت مركزها والقائمين بها، انكشف لي السر، الذي ما كنت أجهله كل الجهل من قبل، وأيقنت ان مفهوم الانسانية عند هؤلاء يختلف كثيراً، ويبتعد كثيراً عن مفهومها الصحيح.

يخطىء من يعتقد ان للانسانية ألواناً وأشكالاً. الانسانية ليس لها إلا لون واحد، هو لونها الانساني الذاتي المختص بها (Sui generis) ويخطىء من يعتقد ان الاحسان شكل من اشكال الانسانية. الاحسان مجرد تغطية لأعمال لا انسانية، يحصل عنها حرمان الجماعات من حقهم في الحياة، ومن مقومات الحياة، فيسارع المحسنون إلى مدها بالشيء اليسير، تخديراً لها

(البقية في أدنى الصفحة التالية)

على هامش كتاب

النحو العربيّ

بقلم عبد الله العلايلي

يرى الكاتب ان اللغة العربيـــة تخضع ، شأنَ المؤسسات الاجتماعية كلها ، لقانون الغــاية ولا تخضع لقانون السببية كما هو الحال في العلوم التجريبية. ويسر « الآداب » ان تقدّم الى قرائها المعنيـــين بالدراسات اللغوية هذا الرأي الوجيه الذي يشير الى اتجاهٍ ينطوي على كثير من التصحيح والتبسيط .

بين يدي كتاب قيم للدكتور انيس فريحة بعنوان «تبسيط قواعد العربية» ، ولست اكتم انه استهواني حقاً ، ثم تمادى بأثره عليّ فاستبد باهتمامي كله .

ويسرني ان أعاود حديث اللغة بعد ان تباعد ما بيني وبينه وما كان ذلك لجفوة عنه ، ولكن لأن كتاباً فيـــه لم يحرك داعيتي اليه .

وأقول هذا باطلاق فيما اتفق ووقع إلي ، خلال مدة تبدأ من سنة ١٩٤٨ .. وأؤكد على الحيز الزمني ، انصافـاً لبعض جهود لا يسعني بحال إلا إكبارها ، كـ«معجم عطية في الدخيل» المطبوع في البرازيل ، و « الملحق المعجمي برواية سلمبو » للاب الرياشي ، و« تعديل القواعد العربية » ليوسف سعادة .

ففي اي منها محاولة أخذٍ من الأساس ، وعلى أنها تتفاوت في درجة توفيقها ، او قل بتعبير آخر: تتفاوت في درجة الحكم عليها في مجال القَدْر ، تظل قيمتها في انها اعمال جذرية .

وخير العربية اليوم ، انما يرجى من هذا المتجه الذي يبتدىء البحثَ اللغوي من جديد ، ويأخذ اعتبارات المدرسة العتيقة على انها اعتبارات فقط ، لا على انها اللغة او قانون عملها الثابت.

وهذا الأخذ، من شأنه ان يميز ما هو أصيل مما هو مجتلب، وان يسلم اللغة الى الحياة إسلاماً عفوياً ، اي ان يردها الى محلها من الحاجة المتحولة .

فاللغة – ومنزلتها من التصنيف الاجتماعي ، انهـا مؤسسة مرتبطة مباشرةً بنشاط الانسان كافة – تتحرك بقانون الغـاية لا السببية .

فاذا غُلبت بقانون السببية الصرف ، واخضعت له في قسر وعنت ، مثلما فعل قدامى اللغويين ، تنعزل رأساً وتنقلب الى بناء فوقي منقطع « Superstructure » وإذ ذاك تحـدث الهوة بينها وبين الجماعة وتتضح ، لتؤول في النهاية الى أداة إرغـام ، تعبر الجماعة عن وطأتهـا بتأفف مكظوم ، ثم بتحرك انتفاضي للخروج .

وفي هذا وحده ، سر ما تطالعك به الجماعـــات اليوم من تصعّب حيال العربية .. وظَنٌّ أنه لشيء أصيل في طبيعتها ، حتى خامر هذا الظن المنقطعين اليها درساً وتتبعاً وبحثـــاً . . والبك حكاية سيرها وتوقفها في يسر :

البيئة العربية الأولى على ما عرف التاريخ ، كان اللسان فيها وسيلة أولى وأكيدة من وسائل العيش والانتاج ، كما كان المعطى الفني الأوحد لديها . أضف الى هذا وهذا انها بيئة خلت من الطبقية .

فلا بدع إذن ان يرقى هذا اللسان ، بحكم كونه وسيلة من وسائل العيش والانتاج ، وتبعاً لرغبة ترقيتهـا المستمرة لدي

او اجتناباً لنقمتها ، وفي كلا الحالين، بقصد المحافظة على انظمة واوضاع حكومية وغير حكومية تستبيح الشعوذة بالانسانية.

كل الدعايات التي يروجونها لاعمال الاحسان وعنها ، وكل المؤسسات التي انشئت من اجل الاحسان وعلى ظهر الاحسان، وكل المحسنين الذين تحدث عنهم الناس عبر الاجيال وما زالوا يتحدثون عنهم بالتقدير والاجلال، كل هذا لم يقدّم الانسانية شيئاً . فالى ان تزول حاجة الانسان لطلب الاحسان وذلّ الاحسان ، يبقى مفهوم الانسانية بعيداً عن مفهومها الحقيقي ، وتبقى الانسانية وسيلة يستغلها ويربح منها المحسنون ، ويذلّ بواسطتها المحسَن اليهم والمحرومون .

لا . ليست الانسانية احساناً ولا تبرعاً برغيف . انمـــا الانسانية إقرار بالحق ، واحترام لكل حق ، ونظـام يحسن توزيع الحق ، ولا يساوم ولا يتاجر بحق .

جورج حنا

الكائن .. وان يتأنق ايضاً بالغاً في الأناقة مبالغها ، باعتبار انه المعطى الفني الأوحد .. وان يشيع شيوعه الكامل بين فئات البيئة بحكم عدم الطبقية .

ومن هنا تدرك جلياً ، كيف كان هـذا اللسان العربي وبخصائصه الفصحى ، لسان العامة والخاصة دون تمييز ، واللسان الدارج في غير احتساب لمنازل وفروق .. وبالتالي تدرك ، كيف كان هذا اللسان أداة اجتماعية مباشرة يتحرك بقانون الغاية ، المتحولة دواليك بين الكمية والكيفية .

وانا انما استطردت هنا بهذا البيان، لكي لا يبقى محل لرفض المؤلف ان تكون الفصحى لغة محكية عند القدماء، في مجال النظرية .

ولنصل ما انقطع نقول : وما هو حتى جاء الدين — والدين بناء فوقي شأنه شأن المؤسسات الحقوقية والسياسية واشباهها — واتخذ أداته هذا اللسان ، وأذن لحركته ان تنطلق هنا وهناك . وكان من نتائج ذلك ، ان برزت فجأة وسائل انتاج جديدة حضت على تعبئة اجتماعية بعينها ذات شكل هرمي طبقي ، وجاء قمة له أرباب هذا اللسان .

حتى اذا تأكدت هذه التعبئة الضامة لشعوب شتى وللغات كذلك ، دخلت طبقاتها بما انتسب اليها من شعوب ورسوبات لغات ، في صراع اتخذ اشكالاً عديدة ودار في مدارات مختلفة، كان من نتائجه في اللغة ، تولّد « النحو » الذي هو قطعاً من عمل القوى الطالعة ، وكان بمثابة « تأميم » لما تستبد به الطبقة العليا الشريفة كمظهر من مظاهر الامتياز .

وهذا وحده هو ما يكشف السر عن وجه التسمية «بنحو» اي اتجاه ، والمعنى ضوابط في اتجاه العربية لا انها هي هي ، ولا تلقِ بالاً لحكايات القدماء المخترعة اختراعاً لتفسير التسمية .

واذا أنعمت النظر جيداً تحت هذا الضوء ، يبدو لك جلياً ، كيف بني النحو بناء حركياً متطوراً مدعاً ، يسعى بقانون الغاية لا السببية ، بما ظلت العربية المتسعة او « العربية النحو » معه اداة اجتماعية مباشرة .

بيد ان المدرسة اللغوية ولا سيما فرع البصرة ، تخللت إذ ذاك ، واعتمدت السببية العقلية اعتماداً مطلقاً .. وهـذا من شأنه ان يجعل الاستمداد وقفاً على « اللغة التراث » دون اللغة الناحية نحو العربية، او قل بتعبير اخصر : دون « اللغة النحو » وان يحمل على التزيد من ضروب الاحتمال التماساً للتعليل .

أقول : إن صنيع هذه المدرسة اللغوية ، وقف بالعربية وقوفاً ظهر أثره الواضح ، عندما حدث داخل المجتمع تراكم في الكمية اللغوية لأشتات الشعوب ولأشتات لغاتها ، هذا التراكم الذي من شأنه اذا بلغ الذروة ان تتحول فيه الكمية الى كيفية .

وبدلاً من ان تمثل العربية هذا التكيف الجديد وتتطور به، انكمشت عنه وانقطعت دونه ، فكان من ذلك ان اتخذ التكيف الجديد سبيله الى إبداع الاشكال اللغوية الدارجة ، وباتت العربية الموضوعة داخل الاطار المدرسي بما افتن من ضروب الافتراض الفكري ، وهي بناء فوقي منقطع ، يتزايد الانفراج وضوحاً بينه وبين تشكلات المجتمع وحاجات الجماعة يوماً عن يوم .

وما أظنني في حاجة الى التنبيه من بعد ، الى ان العاميات الدارجة ليست مَنزلة في « سلّم التصاعد » ،بل خطوط منحرفة تدرّع بها التطور في حركة تشكله الدائبة .

ونحن اليوم في المجتمع العربي ، إزاء تراكم في الكمية لاشكال العاميات ، وهو يؤذن بتحول الكمية الى كيفية . . فاذا عرفنا من جديد كيف نهيىء العربية تهيئاً يتفق وهـذا التكيف نكون قد أعنا التطور على عمله حقاً في الجانب اللغوي، وبالتالي نصل خطه متجاوزين ما انحرف منه .

وتخللت بهذا الاستطراد قصداً الى بيان وجه الوهم فيما جنح اليه المؤلف ، من حسبان العامية غاية لتطور الفصحى في التيسير .

وبعد ، فانا لا أكتمك مبلغ اغتباطي وقد دفع إلي هـذا الكتاب « تبسيط قواعد العربية » * فهو يطرح المشكلة اللغوية بكل تفاصيلها دفعة واحدة ، ويثير لديك طائفة ضخمة من التساؤلات ، ويذهب بك مذاهبه الدقيقة في مراحل التسلسل المنطقي .. ولمكان هذا الكتاب من الاسلوب العلمي ، ولمحل المشكلة من الخطورة ، يسرني ان أصحبه قليلاً في قصد وتتبع .

يضع المؤلف المشكلة من اول الطريق على مرتكزين :

التيسير : وهو ينصبّ على اللغة ، طبيعتها .

التبسيط : وهو يدور على أسلوب تعليمها وتعريفها وتقديمها الى الناس .

والمؤلف في المرتكز الأول ، يعترف في غير لبس بل يلح ويؤكد ، بان في جوهر الفصحى تعسفاً كثيراً كالاعراب وقاعدة العدد، ولامنطقية في الروابط وبناء القواعد ، وبدائية في الجمع والتثنية والتأنيث والتماس العلامة الفارقة لهذا كله .

---

* مطابع المرسلين اللبنانيين ، جونية ، ٩٢ صفحة .

وفي المرتكز الثاني يقترح تنسيق كتب القواعد بأخذ كل من الكلمة والتركيب على حدة ، ويضع لهما مخططين :

فمخطط الكلمة المفردة يشتمل على « ضمائر ، أفعال ، أسماء ، صفات ، ظروف ، أدوات » .

ومخطط الجملة يشتمل على « المعرب والمبني ، الجملة البسيطة الجملة المركبة ، الجملة المتلوّة بفعل الخ » .. هذا مجمل سريع يشير الى موضوعات الكتاب إشارة بحسبنا منها ، انها تعطي القارىء فكرة عنه ، لنفرغ من بعد الى مصاحبته في منازل الرأي والقول . ومن الخير أن نتعرض بذكر الناحية التاريخية للموضوع : يرقى الشعور بثقل القاعدة النحوية وفق مقررات المدرسة العتيقة ، إلى مثل ابن خالويه الذي شقي بالنحو وعانى منه ، والى ابن جني الذي حلل أسباب هذه الصعوبة في توفيق كبير في كتاب «المبهج» ، فقد أكد هناك أن سرها يرجع الى معاطاة النحويين للفلسفة وتعلقهم باساليبها ، وهؤلاء حين أخذوا العربية بهذه الأساليب وأرغموها قسراً على قبولها ، تعقدت واتسع القول في القاعدة ..وقصّ من طرائف هذا الأخذ قصة نحوي صديق ، فاجأه يوماً بسؤاله : لم لا تصغر الأفعال ؟ . . وكان جوابه بعد أخذ ورد طويلين : لأن الأعراض لا تقوم بالأعراض . إشارة الى منهج الحكماء في ان العرَضَ انما يقوم بالجوهر ، والفعل عرض يطرأ على المصدر ، والتصغير عرض آخر وهو لا يقوم به .

ثم نجد الاحساس بهذه الصعوبة ، عند ابن مضاء الأندلسي ، وكان إحساساً من نوع واضح شامل ، فأخذ القضية النحوية برمتها من الأساس ، وعالجها في مقابلة وتفصيل ، وانتهى الى هدم نظرية العامل في النحو التي هي عقدة العقد ، وطالعَ بحلول جديدة .

وكان ابن مضاء في القدماء ، صاحب اول محاولة واكملها في مجال النقد النحوي والبناء .

كما نجد هذا الاحساس ايضاً يضرب عرقه عند ابن السيد البطليوسي في الاقتضاب .

وفصَلَ زمن طويل ركد خلاله البحث المستقل وركدت المشكلة معه ، حتى جاء الأستاذ ابراهيم مصطفى وأثارها من جديد في كتابه « إحياء النحو » . . وبحق أقول انه وفق في باب الاسم توفيقاً يدعو الى الاعجاب ، والوقوف في جد عند نتائجه .

ومن الانصاف اخيراً ان لا نتجاوز محاولة في هذا المضمار كشف عنها الأستاذ يوسف سعادة ، فيها جرأة وفيها حظ ليس باليسير من إنعام النظر .

وقبل ان أمضي مع المؤلف الى نتائجه الخطيرة إن في جانب التيسير او التبسيط ، يهمني ان ألفت النظر الى طائفة من الهنات الهينات ، كان من الخير لو نزه كتابه عنها .

قال ص ٥ : في « ليس » انها من لا وأيس بشكل يوهم انه رأي خاص . وإنصافاً للحقيقة نثبت انه رأي ذهب اليه نفر من قدامى النحويين ، منهم ابو منصور الجواليقي . واليك ماجاء في كتاب « نزهة الألباء » لتلميذه ابي البركات ابن الأنباري :

« حضرت حلقته يوماً وكان يقرأ عليه كتاب الجمهرة لابن دريد ، وقد حكى عن بعض النحويين انه قال : اصل ليس لا أيس ، فقلت هذا الكلام كأنه من كلام الصوفية . فكأن الشيخ أنكر عليّ ذلك ولم يقل في تلك الحال شيئاً ، فلما كان بعد ذلك بايام وقد حضرنا على العادة قال : اين ذلك الذي أنكر ان يكون أصل ليس لا أيس ، أليس لا تكون بمعنى ليس ، فقلت للشيخ ولم اذا كان لا بمعنى ليس يكون اصل ليس لا ايس ، فلم يذكر شيئاً . وكان الشيخ في اللغة امثل منه في النحو»(ص٤٧٥)

وقال ص ٥ « ألم يكتب احد القدماء كتاباً في ليس » .. أظنه يعني كتاب ليس لابن خالويه ، وان كان ذلك حقاً فعجيب من مثله .

فالكتاب المذكور لا يبحث « ليس » الكلمة الملحقة بكان ، وانما هو مجموعة لضوابط كلية في العربية ، ومن نماذجه :

«ليس في كلام العرب واو وياء وسبق احدهما بالسكون إلا أبدلت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء ، إلا كوية وعوية » .

وهناك طائفة من كلمات وقعت في الكتاب على غير معروفها اللغوي ، مثل « مران » ووجهها « مرانة » .

والى عدد مقبل نرجيء بحث النتائج كموضوع مستقل ، وتفصيل الرأي في العربية النحو .

عبدالله العلايلي

الكون المسحور..

عيناي مغمضتان ترفّ بأعماقهما روحي وترى
تنزاح امامي الآن حدود
تنهار سدود
أسمع ، ابصر ما ليس يُرى

*

أحيا في كون مسحورِ
وقرارة منتصف الليلِ
تنشر حولي
من عالميَ اللا منظور
امواج عبير منهلّ

*

الارض التفر تلاشت ؛ ألمح في الصمت خيال ضفافِ
النخل على الشط الغافي
تومىء لي اذرعه الخضرُ
اذرعه الخضر تناديني
الم‍ح في الصمت خيال النهر جرى غيبيّ الاطيافِ
يتدفق من عمق الازلِ
وهناك على صدر النهَرِ
تتغامز اضواء القمر
وتراقص في لحن غزِلِ
احلام النهر الهفهافِ

النهر ، يلوّح لي النهرُ ..
رفّات شراع تدعوني
عاشقة الهمس وتفتح لي
ابواب الفرحة والأملِ

انا في الزورق روحٌ طافِ
في زورقه معه وحدي
معه ويدي

راعشة الفرحة غائبة في الغاب الوحشيّ الجعِدِ !
الكون تجمَّع في عينين
روحي قد غرقت في شفتين

. . . .

— : حدّقي (ليلى) الى عينيّ ، ماذا تبصرين ؟
— : ما الذي ابصر في عينيك؟ ماذا؟ لست ادري
عالمي المفقود؟ دنياوات احلامي وشعري؟
ما الذي ابصر ؟
آفاقاً واغواراً سحيقه
وبحاراً غرقت فيها سموات عميقه
وبعينيك شموس تتحرقْ
وبعينيك نجوم تتألق
وغموض مدّ كالمجهول ، كالغيب الخفيّ
وسحابٌ غطّ في ليل شتائيٍّ دجيّ
هو من اعصار ماضيك بقايا
ذكريات دفنت فيها خطايا !
وارى ذاتي . ارى ذاتيَ في عينيك زورقْ
تائه الغاية في لجها يطفو ويغرق
فقد الشطّ ، وفي غمرة شبك وصراعِ
حطمت مجذافه الريح وألوت بالشراع

نابلس **فدوى طوقان**

ايليا ابو ماضي

بقلم الدكتور جميل جبور عبد النور

لسنا نقصد في كلمتنا هذه تحليلاً جمالياً لشاعرية ابي ماضي او تدويناً لحقبة تعد بحق ، من حيث اصطخاب الحياة فيها وفورانها ، من اخصب العهود انتاجاً في تاريخ ادباء المهجر ، بل في تاريخ الادب العربي الحديث ، وانما تنصرف عنايتنا الى عرض مقتضب لسيرة الشاعر ونتاجه ، يكاد ان يكون موضوعياً في ايجازه وارتباطه باحداث حياته . وفي يقيننا ان هذه العناصر البنائية الاولية مقدمات بدائية ضرورية للدارسين والمحللين الذين يأتون من بعد ، فيستنطقون آثاره ، ويستشفون اسرار قلبه ، ويرودون مجاهل خياله ، مستكشفين انغام اوتاره . وقد كان ابو ماضي واحداً من فرسان « الرابطة القلمية » ، وعاملاً فعالاً ، الى جانب جبران ونعيمه ، في الثورة على الرجعيين والوقوفيين ، فجلا لقرائه صفحات زاخرة بالحياة والالوان والرعشات ، وبرز الشعر العربي من محرفه — بعد طول المران — مروّى بندى الابداع ، مغذّى بعناصر الحياة والبقاء .

ولد ايليا ابو ماضي في المحيدثة بالقرب من بكفيا سنة ١٨٨٩ . وما وعى الا القليل من جمال موطنه — والطبيعة اللبنانية تتجلى في تلك البقعة في أقصى روعتها وتأنقها — بل قضت عليه ملابسات الحياة بهجر لبنان الى مصر وهو في الحادية عشرة من عمره بعد ان اطلع على مبادىء طفيفة من العربية ، التقطها من المدرسة القروية التي تردد عليها ، ومن استاذه ملحم قزاح بنوع خاص ، ولا يزال ذكر المعلم عالقاً بمخيلة الشاعر الى الآن يثير في نفسه عالم الطفولة الزاخر بالاحلام والرؤى .

دعاه خاله ، وكان صاحب متجر في القاهرة ، لمساعدته في عمله ، فنشط الى جانبه مدة عشر سنوات معنياً بضبط حساباته ، وتصريف شؤون تجارته ، وهو في زحمة اشغاله لا يتحول عن الدرس والتنقيب ، بل يكب بصبر واناة على المصنفات اللغوية يطالعها ، ويحل رموزها ، ويستوعب قواعدها ، ويستظهر العبارات المنتقاة ، والشعر الفصيح القديم والحديث ، مرتقياً الى علوم المعاني والبيان والعروض ، ثم الى معالجة الشعر بتقليد القصائد التي تقع بين يديه في البحر والقافية كعادة جميع المغرزمين في اطوارهم الاولى. وفتحت هذه الثقافة الشخصية امامه آفاقاً جديدة في حلبات الادب والفكر والسياسة. وكان الادباء في ذلك الحين يحسون احساسا عميقا بالرسالة التي يؤدونها في البلاد العربية المتوثبة للنهوض . فشاركهم الفتى الناشيء شعورهم ، وتمرس بمسؤوليتهم، وتردد على حلقاتهم يخوض معهم في احاديث الاصلاح والانقلاب ، مفيداً من هذه البيئات توجيهاً جديداً وآراء حديثة انطبعت في ذهنه ، فبدت آثارها الخيرة في المقبل من نتاجه . وكان جو مصر الذي احتواه مدة عشر سنوات مليئاً بالمتناقضات والمفارقات . ينعم فيه المفكرون بحرية مطلقة في هدم السلطنة العثمانية ، وبث الدعوة العربية ، وتكم افواههم اذا طالبوا باستقلال بلادهم ، وتحررهم من السيطرة البريطانية . وأول ما أذيع للشاعر قصيدة اجتماعية تتحدث بلسان فتاة عقد اهلها قرانها بالرغم منها نشرتها جريدة «الاكسبرس» الاسبوعية ، ومطلعها :

لي بعل ظنه الناس ابي صدقوني انه غير أبي

ومنها : إنما الغصن إذا هب الهوا مال للاغصان لا للحطب

ويبدو من الذكريات التي انطبعت في ذهن الشاعر عن هذا الطور من حياته ورددها على مسامع المعجبين به عند نزوله لبنان عام ١٩٤٨ ان هذه القصيدة كانت فاتحة شهرته في عالم الشعر ، انتقل بعدها الى فنون الوطنيات والسياسيات التي راجت سوقها آنذاك ، وحركت النفوس الى المطالبة بالحرية والمساواة . شارك في كل نشاط قومي ، وبنوع خاص في استقبال محمد فريد العائد من اوربة ، وفي الحفلة التذكارية التي اقيمت لمصطفى كامل ، وبذلك أثار عليه نقمة السلطة المصرية وغضب الانكليز ، فقرر السفر الى أميركة عام ١٩١١ . ولكنه عرج في طريقه على لبنان لتوديع الاهل وقضاء أشهر الصيف . وفي الايام القليلة التي أمضاها في موطنه تكشفت له وجوه من الحياة الجبلية ما أدركها في عهد طفولته . فاذا بالعداوات الصغيرة تفرق بين أبناء القرى ، وتنمي روح التنافس بين الاسر والافراد ، وتثير كوامن الاحقاد وتستنفد قوى الناس في توافه الامور . وقد احتفظ بهذه الانطباعات بعد مرور ست وثلاثين سنة على وقوعها . ومن طريفها انه حاول مع رفاق له تمثيل رواية في بكفيا ، فسعت فئة من الخصوم الى ثنيهم عن رغبتهم ، وعرقلة عملهم . وكان قد نظم قصيدة لتلقى في تلك المناسبة ، وعندما قرأها على الدكتور اسعد عفيش — وهو من هواة الشعر ومتذوقي الأدب الرفيع — طلب منه حذف الأبيات التي تسيء الى الخصوم، غير ان الشيخ ابراهيم المنذر قال له « اقرأ القصيدة ثم شمر واركض » . وانتهى الامر بان اقيم المسرح على سطح فرن ، وجلس المتفرجون أمامه ، ووقف حول الساحة والد الشاعر وبعض الاصدقاء حراساً لمنع المعارضين من تهديم المسرح او احراقه. وألقى أبياته فقوبلت بالاستحسان. وضاق الفتى ذرعاً بأهل القرية، فكان يفر منهم الى الحقول مصطحباً بندقية صغيرة وزوادة مؤلفة من الجبن والزيتون والتين المطبوخ ليصطاد العصافير . وفي الحقول وجد أمامه متسعاً من الوقت لينظم الشعر ، يكتبه حيناً ويرتجله أحياناً . والناس يشكون في مقدرته ويقولون ان ابياته من صنيع شاعر مصري ، لانه لم يدخل مدرسة عالية . ولكن الشيخ المنذر كان يستمع الى ما تولده قريحته، ويشجعه على المثابرة والاجتهاد، فيطمئن الفتى الى رأي الشيخ ، ويجد في تقريظه له خير حافز على الانتاج .

***

غادر لبنان في أواخر صيف عام ١٩١١ ، وفي باله الانصراف التام الى الشؤون التجارية بعد أن تقدمه أخوه الى الولايات المتحدة وأسس له متجراً ناجحاً . وعزم على تطليق الأدب الذي لم يثمر له إلا العداوة ، ولم يجن منه

فلسا واحداً . ولكن الشعر عاد الى مراودته في مهجره بلسان اصحاب الصحف والمجلات ، فلبى رجاءهم ، وبدأ يتحفهم من وقت إلى آخر بمقطوعات من شعره ، تحمل اليهم أطياب الطبيعة في لبنان وأشواك السياسة فيه ، بدأها بالقصيدة التي ودع بها موطنه وجعل مطلعها :

وحكومة ما ان تزحزح أحمقا   عن رأسها حتى تولي أحمقا

وتابع جهده في الحقلين الادبي والتجاري ، فنال منها نصيبا وافراً ، أمن له مكانة مرموقة في عيون الجالية العربية واللبنانية بنوع خاص ، الى أن اشتد تعلقه بالقلم فودع تجارته وتفرغ للصحافة والشعر . وفي عام ١٩١٦ استقر نهائياً في مدينة نيويورك ، وتوثقت علاقته بادباء العربية المشهورين امثال جبران ونعيمة وكاتسفليس وعريضة ، الفرسان الذين أنشأوا « الرابطة القلمية » من بعد . وفي ذلك الحين تزوج من ابنة نجيب دياب صاحب جريدة « مرآة الغرب » ، وعاون حماه في كتابتها ، وأصبح رئيس تحريرها الى ان أسس جريدة «السمير» في عام ١٩٢٩ ، وما يزال يصدرها إلى اليوم .

***

نشر ابو ماضي قصائده في كثير من جرائد الوطن والمهجر امثال « زحلة الفتاة » ، و « السائح » ، و « مرآة الغرب » ، و «السمير» ،وفي «مجموعة الرابطة القلمية»،التي صدرت عام ١٩٢١ حاملة خمس قصائد من نتاجه . وطبع الى الآن اربع مجموعات شعرية : الاولى عام ١٩١١ في القاهرة ، والثانية في نيويورك عام ١٩١٩ والثالثة في نيويورك ايضاً عام ١٩٢٧ حاملة اسم « الجداول » اخرجتها مطابع «مرآة الغرب » ، والرابعة «الخمائل» ، في طبعتين : اميركية رأت النور اثناء الحرب العالمية الثانية ، ولبنانية صدرت في تشرين الثاني عام ١٩٤٨ ، اخرجتها مكتبة صادر البيروتية ، وصادف ظهورها زيارة الشاعر مسقط رأسه . وبين هذه المجموعات تفاوت عظيم من حيث الاسلوب والمعاني والفنون والالوان والاخيلة . ويتجلى الاختلاف باوضح صوره بين الاولى والرابعة فكأنهما من صنع اديبين ينتميان الى عصرين متباعدين . ولا شك ان شاعرية ايليا ابي ماضي بدأت تبرز بجلاء في « الجداول » ، لتكتمل وتتألق في « الخمائل » ، واما الديوانان الاول والثاني فهما محاولتان فاشلتان في بعض القصائد ، ناجحتان في البعض الآخر . ولا يتيسر ، بأي حال من الاحوال ، الحكم على صاحبهما حكما نهائياً بالاعتماد عليهما . وقد اختفت هاتان المجموعتان من السوق الكتبية ، ولا اثر لهما في بعض المكتبات العامة ، كأن يداً سحرية سعت في طمرهما ومواراتهما عن عيون الدارسين . وفي تحليل الاثرين الاخيرين كفاية لرسم صورة واضحة للشاعر في حسناته وسيئاته ، وقوته وضعفه ، وهما ابنان صريحان له « لا يتهرب منهما ، ومن نسبهما اليه ، بل يعتز بهما بحق كما يعتز والد بولدين حبيبين . ومما تجدر الاشارة اليه ان المجموعة الثانية قدم لها النابغة جبران خليل جبران بفصل طريف في التعريف بالشعر والشاعر ، قال فيه عن صاحب الديوان : « .. وايليا أبو ماضي شاعر ، وفي ديوانه هذا سلالم بين المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها ، وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي ان لم ترشفها تظل ظمآن حتى تمل الالهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان » .

*

اما ديوان الجداول [1] فقد لاقى منذ صدوره كثيراً من الاستحسان . اكب عليه الفتيان في مختلف الاقطار العربية ترديداً وحفظاً ، وعرض له بعض النقاد بالدرس مفندين ما فيه من مواطن الضعف ، عارضين ما يحويه من متع فنية تغرق القارىء في عالم مسحور . واجمع الكل على انه يحتوي خطرات رفيعة من الادب العالمي ، وعلى ان في صدر صاحبه معدناً ثميناً لو ثابر على صقله لكان اقرب الشعراء الى الكمال .

لا شك في ان الدكتور طه حسين كان اشد النقاد عنفاً في درس « الجداول »، تناوله في « حديث الاربعاء » تناولاً عنيفاً قاصراً همه على تتبع الاخطاء والهفوات ، مشيراً الى ما فيه من الحسنات في بعض المقاطع وكأن هذه خطوط نور ضئيل ناشزة في بحر من الظلمات. غير ان المآخذ التي اشار اليها هي جد هامة، يحار في تأويلها كثير من المعجبين بالشاعر . وذلك ان الناقد حكم على لغة الشاعر بالرداءة ، او انها تقارب الرداءة احياناً حتى توشك ان توغل فيها ايغالاً ، ويأسف كل الأسف لهذا الوهن في الصياغة «لان الشاعر مجيد حقاً ، خصب الذهن، نافذ البصيرة، ذكي القلب ، متقن الفهم لما يريد ان يقول ، موفق الى اجادة التصوير لما يجب ان يصور ، فكان خليقاً ان تؤاتيه مع هذه الخلال نغمة صافية عذبة تعينه على اظهار ما في شعره من قوة وروعة وجمال ليس الى الشك فيها من سبيل [2] » .

وخلاصة المآخذ التي يقررها الناقد :

١ — التورط في المعاني الفاسدة التي لاتستقيم لاستحالتها .

٢ — فقدان الحاسة الموسيقية في اوزانه وقوافيه .

٣ — الوقوع في اخطاء نحوية معيبة ، ولا سيما في قصيدته «الاشباح الثلاثة» ،عندما يرفع الافعال المضارعة الواقعة في جواب

---

(١) اعيد طبع هذا الديوان مرتين في النجف سنة ١٩٢٧ ، بعد ان اضيف اليه بعض التعديلات .

(٢) طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

الامر ليستقيم الوزن. ومع ذلك فهو يقضي بان الشاعر على هذا كله مصحح لمعانيه، محقق لها، يكاد لا يفسدها او يخطىء فيها. وابتكاره في المعاني التي اشتمل عليها هـذا الديوان قليل جداً حتى يكاد لا يحس، ولكن شخصيته قوية، فهو يتناول المعاني والاغراض التي سبقه اليها الشعراء المتشائمون والمسرفون في الشك من القدماء والمحدثين فينفخ فيها من روحه القوي، ويكاد يفرض شخصيته فرضاً [1]. وينتهي بابداء اعجابه بالقصيدة التي ختم بها الشاعر مجموعته بعنوان «الطلاسم»، فيرى انها ابلغ واقوى ما في المجموعة من حيث المعنى.

والواقع ان صاحب «حديث الاربعاء» قد تتبع مواطن الضعف بغريزة مدهشة، ومر بمطارح الجمال مروراً عابراً، فرجحت في ميزانه الاولى على الثانية. في حين ان الشاعر قد سار في «الجداول» اشواطاً بعيدة نحو الابداع المعجز. سلس اسلوبه، ورقت لفظته، وتهذبت فكرته، واتضحت بعد غموضها في المجموعتين السابقتين، وهجر المعلقات المملة ليركز معانيه في مقاطع صغيرة تؤديها على خير وجه، وتبرزها بأروع ثوب، وقد اطال نوع الافكار، وعدد القافية، وتفنن في الجرس، وجزأ البحور، وبسط العبارة، فاستولت على انتباه القارىء، ونقلته من عالم انف الى آفاق سحرية. ومرد الامر انه افاد تجديداً وانطلاقاً في جو «الرابطة القلمية». وكان لمجاورته جبران ونعيمه ورفاقهما أثر بين في الخواطر العميقة التي زخرت بها قصائده، ولكنه مع هذا لم يستسلم لتيار الصوفية، ولم يغرق في بحر الرومانطيقية، وعوالم الحلولية، وشطحات الانجذاب، وانما ظل متمسكاً ببعض مبادئه الاساسية، لا يسرف في ذرف الدموع، ولا يتلاشى في وحدة الوجود، ولا ينتهي الى ذلك الايثار الذي يدفعه الى إفناء نفسه في سبيل اي كائن آخر، ولا يقف من الانسانية موقف «النبي» الذي يكشف حجب المستقبل، او يعتنق

اسلوب التوراة، ويستقي من ينبوعها، فيقرر حقائق وعقائد، ويضع نظماً للسلوك والاخلاق. وانما ظل في الجداول، وفي خضم الآراء التي تدراستها الرابطة، مؤمناً بواقعية الحياة التي يحياها على الارض، متردداً بين الايمان والكفر بالعالم الثاني، شاكاً في كل ما انتهى اليه الناس من نتائج، ملقياً في كل آن، وفي كل سبيل، اسئلة محيرة تعصف بالعقل وتوهن قواه، وتبدي له عجزه عن ادراك الاسباب البعيدة لكثير من قضايا الحياة. لهذا لم يكن جبران ونعيمه، على الرغم من الوشائج الفنية التي ربطتهما بالشاعر، واعتناق الثلاثة مذهباً واحداً في ضرورة التجديد والقضاء على الاساليب اللفظية والمعنوية المتحجرة المتوارثة، ينظران اليه نظرهما الى رفيق مؤمن بمحصلهما الفلسفي، وانجذابهما الماورائي. ومما لا شك فيه ايضاً ان حرية المعتقد كانت شرطاً اساسياً في الرابطة، لا ضغط ولا اكراه، وانما هناك احترام متبادل ومناقشة حرة تنكشف في النهاية عن تعيين المواقف وتحديد المعتقدات الفردية المتباينة. نجد اثر هذا الانطلاق الفني والفكري في المقدمتين اللتين صاغهما جبران ونعيمه للديوان الثاني وللجداول. وفي الاخير يقول نعيمه: «.. ولا يندر ان اجد لذة حتى في قصيدة لا تأتلف مع اهوائي ومنازعي، كقصيدة «بردى يا سحب»، لاني، وان كنت انكر على نفسي ان تقول:

كل نجم لا اهتداء به ... لا ابالي لاح او غربا

لا انكره على ابي ماضي، بل اعجب بقوة بيانه لمعتقده اذا كان ذلك ما يعتقده».

والثابت ان ايليا ابا ماضي من عالم، وجبران من عالم آخر. الاول خليط من التشاؤم والتفاؤل، شاك لا يؤمن الا بوحي عقله. والثاني، وان تعالت من بعض مقاطعه غمغمات السودلوية والشك، وغلبت الظلال القاتمة على الواحه الفنية، يضع الحلول للقضايا النفسية واللاهوتية والطبيعية ويستدل بهدى روحه المجنحة الى تأويل كل مظهر من مظاهر الكون. في مدرسة جبران سيول

مراجع لدراسة ايليا ابي ماضي:

★ المقتطف: عدد يونيو ١٩٢٩، مجلد ٧٥، ص ١١٠ وما بعدها.
★ درس عن «الجداول» في المقتطف: مجلد ٧١، نوفمبر ١٩٢٧، صفحة ٣٤٥ وما بعدها، وفي الهلال: مجلد ٣٦، نوفمبر ١٩٢٧، ص ١١٩.
★ طه حسين: حديث الاربعاء، ج ٣، ص ٢٢٠-٢٢٧، القاهرة دار المعارف.
★ نجدة فتحي صفوة: ايليا ابوماضي والحركة الأدبية في المهجر، بغداد ١٩٤٥ (مقدمة بقلم روفائيل بطي).
★ أحاديث أدلى بها الشاعر الى بعض الصحفيين بمناسبة زيارته لبنان لحضور مؤتمر الاونيسكو: «المكشوف» عدد ٤٥٠، ١٧ تشرين الثاني ١٩٤٨، «التلغراف» عدد الاثنين في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٨)
★ مقدمات الدواوين.

Leaders in contemporary Arabic Literature, by Tahir Khemiri and professor Dr.D. Kampffmeyer London 1930.

(١) طه حسين، حديث الاربعاء ص ٢٤٣.

من الدموع تذرف اعتباطاً وارتجالاً ، في حين ان شاعرنا يحبس عبراته ويثور على النواحين في لبنان وغير لبنان ويرى كلاً منهم خنساء ولا صخر ، وكلاً أرميا ولا اورشليم.. حتى صار الصباح لا يطلع الا وحواشيه مبللة بالدموع ، وصار الليل لا ينسدل الا لكي تتجاوب في آفاقه اصوات النادبين . فلا نطالع قصيدة او منظومة إلا وقفنا على الدموع الحرى في صدورها واعجازها..ويعلق صاحب «السمير» في احدى مقالاته النثرية على هذه الحالة التي آل اليها الشعر العربي عامة واللبناني خاصة ، فيقول : « هذا شاعر يأمر قلبه ان يتفرق شظايا لأنها أعرضت عنه ... من هي ؟ لا أحد يعلم ... ولا الشاكي نفسه يعلم . ولكنه سمع غيره ينوح فناح ، وامتدح بعضهم من بكاء امرىء القيس في الأطلال ، ونواح موسيه في لياليه فاستخرط في البكاء . وهذا آخر يرفع عقيرته بأنه كاره للحياة ، ماقت للوجود ، ناقم على الأرض والسماء . فاذا قرأته ساورك الجزع عليه ، وأشفقت ان يكون كتب قصيدته وانتحر ، ولكنك لا تلبث ان تقرأ له غيرها ، وغيرها ، وكلها من هذا النمط [١] » .

تشاؤمه في « الجداول » تشاؤم معتدل . مصدره مايشاهده من شقاء الفضائل ، ونعيم الرذائل ، وهذا التفاوت في المقامات بين الناس، القائم على أسس فاسدة ، وهذا القدر الذي يسوق للمرء غير ما يستحقه ، فيشقيه ويعذبه ويذيقه ضروب الحرمان، وهذا الانسان الذي تكبله الرغبات بقيودها ، فيشتهي منها القصي المستحيل حتى اذا بلغه كرهه وقلاه ، وهذا الكذب المرتدي ثياب الصدق والصداقة ، والقبح المتخفي في حلل الجمال . يدفعه هذا التشاؤم الى أثرة هدّامة ، والى احتجاز الملذات لنفسه ، والاستهانة بالناس أجمعين كالطفل الذي يقبض بكلتا يديه على كل ما يقع في متناوله ، ليتفرد به دون الآخرين . وترشح نفسه بهذه المعاني في قصيدته « برّدي يا سحب » ، حيث يقول :

كل نجم لا اهتداء به   لا أبالي لاح أو غربا
كل نهر لا ارتواء به   لا أبالي سال او نضبا
اسقني الصهباء ان حضرت   ثمّ صف لي الكأس والحببا
ليس يرويني مقالك لي   انها العقيان منسكبا

ولكنه لا يطيل المكث في هذه الدائرة الضيقة ، ولا يتركز نظره في هذه العيوب البشرية ، وانما ينتقل الى آفاق أرحب ، فيشاهد ألواناً فاتنة من النفوس ، وصوراً رائعة من الجمال ، ويرى ان الأخذ والأثرة والانكماش ليست ناموساً راسخاً في النفوس ، وانما هناك من يحس بارفع العواطف وأسماها وأبعدها عن الأنانية ، ومن يفضل العطاء على الأخذ ، ويشاهد الطبيعة التي لا تبخل في التضحية ، تتدفق خيراتها على الانسان ، ثم تتقلص على ذاتها حيناً ليختمر جنينها زمناً ما ، وتعود فتفيض به زهراً وجنىً وعشباً ونوراً ولوناً . فبذل النفس من أسرار الحياة ، ومن الجهل بها البخل بثمارنا لأننا نكون قد تنكرنا لصميم وجودنا ، ومن الحمق ان نقلد التينة التي آلمها ان تورق وتزهر وتثمر وتفيء ، فتكون مصدر خير للطير والانسان ولا تنتفع بما تعطيه ، فآثرت الانكماش على نفسها ، مفصلة ظلها على مقدار حجمها ، موقفة نتاجها في عروقها ، فعندما أقبل الربيع وهي عارية كوتد في الأرض ، اجتثها صاحب البستان ليبعث بها الى النار [١] .

تنطلق نفسه الضاحكة على سجيتها في كثير من قصائده ، حيث يدعو من يحب الى التمتع بالحياة قبل الغروب ، والى التملي من خرير الجداول ، وأريج الأزهار ، والتمتع بمرأى الشهب في الأفلاك قبل ان تغيب هذه المشاهد الرائعة عن عيوننا الترابية :

لتكن حياتك كلها   املًا جميلًا طيبا
ولتملأ الأحلام نفسك في الكهولة والصبى..

يستقبل الحياة بخيرها وشرها ، ويحصرها في الايام التي يعيشها على الأرض . وأما ما وراءها من عالم فهو من حيز الضباب والعماء . فمن العجز ان نضيع ما في يدنا ولا نتمتع به الى أقصى حد ، وألا نتذوّق ثمرات الجمال والخير ، وألا نملأ قلوبنا غبطة ونشوة . وأما القضايا الفلسفية التي أقلقت المفكرين والشعراء من اقدم العصور ، فانه يسوقها في « الطلاسم » مقفياً عليها بعبارة : « لست أدري » ، كأننا به يعهد الى سواه بامر تحليلها وتمحيصها ، واكتشاف اسبابها ومسبباتها ، وجلاء غامضها ، كقضية مصدر الحياة ، وحرية الانسان ، وسر الموت [٢] . فله ان ينعم بما يتيسر له من افاويق العيش ، وعلى الحكماء ان

(١) السمير ، عدد اول تشرين الثاني ، سنة ١٩٣١ ، ص٦٢٦–٦٢٩ .

(١) راجع قصيدة « التينة الحمقاء » ، الجداول ، ص ٢٨ .

(٢) يرى في رغبة الانسان في البقاء برهانا على كونه غير واثق من الخلود . يجاهد للبقاء بالكتابة والتصوير والنحت والموسيقى والفنون الاخرى لان صوتاً خفياً يهيب به دائماً انه للزوال والتلاشي .

يفنوا ايامهم في حل طلاسمه .

والخلاصة ان الشاعر الذي نطالعه في «الجداول» يختلف عن الذي نقرأه في الديوانين الاول والثاني . صفت ديباجته حتى قاربت الاستقرار ، وانجلت خواطره حتى تركزت في قوالبها الفنية ، واصبح شاعراً انسانياً ، بعد ان تقيد بالتقاليد الشعرية المتوارثة ، وانتهى الى الاعتقاد بان الاديب المطبوع لا يقلد ، بل يخترع ويبتدع ويستقي من منابع الحياة نفسها الهامه . وهكذا تفلّت من اسار الماضي ، في عالم جديدة عامرة بالاخيلة المولدة ، والخواطر الابكار .

*

... ثم استقرت في ذهنه فكرة الفناء بعد الموت ، فلا يؤمن الا بالهنيهات الدنيوية . يرى نفسه اغنية من الاغاني ، قد تطرب لها اذن ، وتمجها اخرى ، وعطراً يلذه انف ، ويكرهه آخر ، او هو اقحوانة تتحول عسلاً اذا امتصتها النحلة، وتعرى من حسنها وزينتها اذا سطت عليها الديدان . هو غيث كريم اذا صادف حقلاً ازكى فيه العشب والشجر ، واذا نزل الرمال ترشفته الارض اليباب . فيتمنى على قارئه ان يكون الوجه الجميل في هذه التشابيه ، لان ثواني معدودة يعيشها في قلب واع مدرك للجمال هي في نظره خير من الف عام في حياة رتيبة

بهذه الفكرة الجميلة يستهل مجموعة « الخمائل » ، وهي ضمة من القصائد نشرتها الجرائد والمجلات في اوقات مختلفة ، وجمعها وطبعها عام ١٩٤٠ ، ثم اعيد نشرها مرة ثانية في بيروت . تتميز الاولى بالاخراج الأنيق ، والورق النفيس ، غير ان الطبعة البيروتية منقحة، خلو من الهفوات التي شوهت بعض محاسن الاولى .

نحن واجدون فيها كثيراً من عناصر « الجداول » ، بعد ان أدت بواعث عديدة الى نضجها واختيارها . فالشاعر ما يزال على عقيدته في سمو الفن ، ورفعة رسالته ، يفتتح مجموعته بقصيدة « الشاعر والملك الجائر » التي تتركز فيها فكرة خلود الأدب الحق ، وزوال ما عداه من أعراض الحياة . تمثل في حبكتها الروائية سلطاناً جباراً ينعم باسباب الرفاهية والمجد ، يطلب من شاعر بائس ان يتغنى ببأسه ، ويسهب في تبيان قوته ، وامتداد سطوته ، فتبادر الحقيقة لسان الشاعر فيأبى الاستخذاء له ، فيحتدم الملك غضباً ، ويأمر بقطع رأسه . ثم يدرك الموت صاحب التاج، فيضم القبر أسمال الشاعر المسكين الى حلل الملك العظيم ، ويتساويان في رقدة العدم الأبدية. غير ان ذكر الفنان يظل خالداً على مدى الأجيال ، وتطوي الأيام سيرة العاتي الجبار . وفي هذه القصيدة براعة وخلق يسترعيان الانتباه ويتمثلان في تنويع القوافي والأوزان والاهتداء الى الكلم الموسيقية ، بحيث تبدو في مجملها سنفونية متعددة الأنغام .

في « الخمائل » ظاهرة لا نجدها في « الجداول » ، وهي سوق الشاعر قصائد مناسبات عديدة الى جانب المبتكر [١] . وهذا لون من الشعر كان قد أهمله إهمالاً تاماً في المجموعة السابقة ، فعاد اليه هنا وأسرف فيه إسرافاً كبيراً . ولعل الباعث على احتفاظه بهذه المقاطع التقليدية انها تحوي ، بالاضافة الى الاطراء والتفجع ، نصيباً وافراً من الابداع الشعري والمعاني المولدة . ولهذا أسف ان تضيع فأبقاها في مجموعته الجديدة . وفيها ظاهرة ثانية جديدة هي انبعاث الحنين الوطني في قلبه ، فقد عاد الى التلفت الى الوراء عبر البحار ، واستيقظت نفسه الهاجعة على ذكريات حارة توحي اليه قصائد من عيون نتاجه . وتململت لبنانيته ناقلة اليه في أعوام الهرم العطر الذي ما نشقه منذ ثلاثين عاماً ، والأنوار والألوان التي ما مرّغ بها عينيه. عصف الوجد بهذا الوتر الجديد فتغنى بروعة لبنان في امسيات صيفه ، وفي ثلوج شتائه ، وفي قبته المرصعة بالنجوم ، وفي صباياه الضاحكات المرجات في الحقول . فهو في خيال الشاعر النعيم الذي وعد به المتقون ، وهو ارض الميعاد التي يحلم بالعودة اليها بعد طول المطاف :

وطني ستبقى الارض عندي كلها   حتى اعود اليك ارض التيه

وتجد النزعتان الفينيقية والعربية اثراً لهما في قصيدتي «شبح» و « فلسطين » ، كأنه قد عاد يتحسس ، رغم طول الغياب ، العواطف التي تثير الجماعات اللبنانية المعاصرة . وفي « الخمائل » ترسخ اراؤه الفلسفية وتتفتق بعد ان تبرعمت في المجموعة السابقة . وينثر علامات الاستفهام شمالاً ويميناً دون ان يردّ جواباً ، وينتهي الى نوع من الاستقرار السلبي يتلخص بان مهزلة الحياة آخرتها ككل المهازل : ستار يسدل على فصلها الاخير، فتترك دوياً في الاذان ، واشباحاً في العيون ، ثم تتلاشى شيئاً فشيئاً الى ان يخمد العدم اصداءها .

جبور عبد النور

(١) امثال القصيدة التي ألقاها في المأدبة التكريمية على شرف المندوب البطريركي المطران تيودوسيوس ابو رجيلي في بروكلن ، والقصيدة المنظومة في حفلة تكريم سامي الشوا ، والقصيدة التي ألقاها بمناسبة الحفلة التذكارية لموسى الحسيني ، والقصيدة التي رثى بها عبدالله البستاني ، والقصيدة التي تغنى بها في مهرجان أقامته لجنة مستشفى تل شيحا في مدينة دترويت الخ ...

طلابنا بين العلم والادب

الآداب تستفتي

« لاحظتم ولا شك ان الطلاب اخذوا يؤثرون في هذه الفترة الالتحاق بشُعب الدراسة العلمية الصرف ، على الالتحاق بشعب الدراسة الادبية والتاريخية والانسانية ، وكل ما يدخل تحت باب « الأدب » بمعنـاه العام . فبماذا تعلّلون هذا الاتجاه الجديد عند طلابنا ، وهل تجدون فيه بادرة خير إزاء الفكر العربي في العصر الحاضر ، ولماذا؟ »

هذا هو موضوع الاستفتاء الذي طرحته «الآداب» على عدد من رؤساء الجامعات ومديري المدارس الكبرى في لبنان فتلقت الأجوبة التالية :

ظاهرة طبيعية

ان ما تبينتموه من تحول طلابنا – او بالاحرى تلاميذنا في الدوائر الثانوية – الى الفروع العلمية ، وتطليقهم شعب الدراسة الادبية والتاريخية والانسانية ، ظاهرة طبيعية في لبنان ، وفي معظم بلدان العالم في الوقت الحاضر. ومرد الامر ان الراغبين في نيل الشهادات الرسمية يحسبون بدقة امكانياتهم في كل مادة من المواد ، فيتبينون بجلاء ان حظهم من النجاح في الفرع العلمي أوفر منه في الفرع الادبي ، فيتهافتون على الاول ، ويهجرون الثاني . وتتلخص بواعث الحالة الحاضرة في سببين اثنين يتلاقيان في نتيجتيهما :

١ – ان المبرزين في العلوم والرياضيات يحرزون في الامتحانات الرسمية علامات قصوى تتراوح بين ١٥ وعشرين ، وبذلك يضمنون الفوز على أيسر سبيل في المجموع . في حين ان اللامعين في مسابقتي الادبين العربي والاجنبي ينالون غالباً علامات لا تزيد على المعدل الا بقليل ، وذلك لتفاوت أحكام الممتحنين ، ولأن الادب فن لا يقوم على اساس راسخ من الوضعية . فاذا اختاروا الفرع العلمي ، وأعدوا ما يفرضه من مواد مقررة معروفة يأمنون المفاجآت . ولا يخفى أن الذين يجيدون أدبين معاً إجادة تامة هم قلة في كل بلد من البلدان ، فتجويد احدهما يتم على حساب الاخر .

٢ – يميل كثير من التلاميذ الى إهمال اللغة الاجنبية ، ولا سيما في معظم معاهدنا الوطنية ، ويعوضون عن هذا الضعف باعداد الفرع العلمي حيث تحسب هذه المادة على عشرين ، وتكون نسبتها الى المجموع واحداً من سبعة .

من الثابت ان الاتجاه نحو الدراسة العلمية صادر عن ذهن حاسب موازن بين حظوظ الفوز ، ولا أثر فيه للتوجيه النفعي أو الواعي ، وهذا مما يؤسف له . وذلك ان أغلبية التلاميذ الناجحين في القسم الاول من الفرع العلمي يعودون فيتابعون الدروس الفلسفية في القسم الثاني ، ثم ينتسبون إلى كليات الحقوق والطب والعلوم السياسية . وتشكو هذه المعاهد من التخمة الآن اكثر مما كانت تشكو في الماضي . والواقع ان سياسة الانتداب التي فرضت علينا مناهج لسانية لتخريج طلاب وظائف ، فعددت المواد النظرية والانسانية والنقلية ، وقضت على التعليم العلمي والمهني ، وأقصت أبناءنا عن المختبرات والمحارف والمصانع والحقول ، لا تزال متبعة عندنا الى الوقت الحاضر، في حين ان فرنسة نفسها عدلت مناهجها مرات عديدة منذ عام ١٩٣٨ بحيث أصبحت مطابقة لمصلحتها الوطنية . وفي احصاء صدر أخيراً في فرنسة يتضح لنا ان عدد التلاميذ الذين يعنون بالأدب والتاريخ لا يزيد على سبعة وخمسين في الالف ، والباقون ينصرفون الى علوم نفعية كالزراعة والصناعة والمهن اليدوية . ولسنا بحاجة الى القول بان هذا التعليم وحده هو الذي يخلق في تلاميذنا روح الاعتماد على النفس ، ويعودهم بذل الجهد ، ويرفع شأن البلاد ، ويؤدي الى استقلال اقتصادي حقيقي ، وبالتالي الى استقلال سياسي واقعي .

جبور عبد النور

مدير الدروس العربية في الكلية العلمانية الفرنسية

ضرورة إعادة التوازن

لا شك في ان الطلاب قد أخذوا منذ سنوات عدة يميلون الى الالتحاق بالفرعين العلمي والرياضي في دراستهم الثانوية لنيل شهادة البكالوريا ويؤثرونها على الفرعين الادبي والفلسفي. وتلك ظاهرة رحبنا بها وهللنا لها عند بدء ظهورها اعتقادا منا ان بعض ناشئتنا قد بداوا يدركون خطورة تلك العلوم في حضارة عصرنا، وضرورة تزودنا منها ما دمنا نبتغي اللحاق بموكب الحضارة ونطلب احتلالنا مكان الصدارة منه . غير اننا ما لبثنا ان رأينا الموجة تجرف معظم شبابنا مما اضطرنا الى التروي في الحكم بفائدة ذلك . اذ لاحظنا ان هذا الانحراف عن الآداب والفلسفة سيكون له عاجلاً أو آجلاً من النتائج ما لا نرضاه ولا هو في صالحنا . ذلك لأن الحياة المثلى انما تقوم على التوازن بين هذين القطبين من الحياة، وأعني بهما الادبي والفلسفي والعلمي الرياضي .

وأما تعليل ذلك الاتجاه فيرجع ، في اعتقادي ، الى ما يلي :

أولاً – ان الفئة الموهوبة من شبابنا قد فهمت بحق فائدة تلك العلوم العملية التكتيكية التي سيطرت على مرافق الحياة في عصرنا هذا فكان من الحق ان تميل بحكم مواهبها الطبيعية وادراكها الصحيح الى الالتحاق بفرعي العلوم والرياضيات لاتخاذهما مرتكزاً في تحصيلها العالي للتخصص .

ثانياً – إن فئة ثانية ما لبثت ان آثرت هي ايضاً ان تتجه الى ذينك الفرعين وتتنكب الطريق الى الآداب والفلسفة لا بحكم المواهب عندها بل بسبب تنطع بعض المصححين ممن كانت تقذف بهم وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة للعمل في امتحانات البكالوريا ولاختلافهم في الرأي بعضهم مع بعض فيما يقدمه الطلاب من اجوبة في الموضوعات الأدبية والفلسفية ، مما زاد في نسبة الرسوب في امتحانات البكالوريا في هذين الفرعين خاصة . بينما نرى الدقة التي تقوم عليها العلوم الطبيعية والرياضية وبعدها عن حذلقات المتنطعين من الفاحصين ، كانت تحمي الطلاب من نزوات اولئك وبالتالي من الرسوب والسقوط في الامتحان، الامر الذي حدا بالفئة الثانية الى ان تتخذ طريقها الى العلوم والرياضيات تجنباً لتلك الكارثة لا تمشياً مع مواهب اصحابها .

ثالثاً – وهناك الفئة الثالثة التي حشرت نفسها مع سابقتيها دفاعاً عن النفس من الشعور بالنقص اذ راحت تزج نفسها بين أفراد الفئتين الاوليين علها تفوز بما ستفوزان به من نجاح في الامتحانات لنيل البكالوريا . ولكن هيهات !

واذا دل تعليلي هذا على اني لا أرى في ذلك الاتجاه بادرة خير فاني اقرر في الوقت نفسه انه لا بد ان يعود التوازن بين قطبي حياتنا اذا ما قدر لنا ان نحيا في المستقبل الحياة الصحيحة المثلى حقاً .

زكي النقاش

مدير كلية المقاصد الاسلامية في بيروت

الأبعد والأبقى من حاجاتنا

ان ايثار طلابنا الالتحاق بشعب الدراسة العلمية على الالتحاق بشعب الدراسة الادبية (بمعناها العام) هو ظاهرة طبيعية في هذا الدور من حياتنا. ولهذه الظاهرة عدة اسباب أهمها :

١ – ان مجتمعنا لم يبلغ بعد درجة من الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي تسمح لطلابنا ان يسلكوا سبل ثقافتهم دون النظر الى الاعمال او الوظائف التي سيتولونها بعد دراستهم . ومن الظاهر البين ان المهن الحرة ، كالطبابة والهندسة والزراعة وسواها ، تعود على اصحابها بفوائد مادية اوفر مما تجلبه الثقافة الادبية .

٢ – اننا في المراحل الاولى من نهضتنا الجديدة ، ومن الطبيعي أن نهتم في هذه المراحل بالنواحي المادية والعملية من حياتنا اكثر منا بالنواحي الثقافية الخالصة .

٣ – ان روح العصر عموما اقرب الى تعزيز التكنيك والجهد العملي منها الى تعزيز الثقافة الحرة.

ان هذا الاقبال على التثقف العلمي له فائدته لتنظيم حياتنا من مختلف نواحيها ، كما انه ضروري جداً لبقائنا كأمة في عصر يكاد يقوم كله على العلم. ولذا وجب تعزيز هذا التثقف قدر الامكان . ولكن حياة الامة لا تكون صحيحة ثابتة الا اذا قامت على فهم دقيق للغايات ووعي للمشاكل الانسانية الاصيلة وللمبادىء التي تقوم عليها الحياة السليمة . ولذا وجب ان تعزز هذه الناحية الثانية من ثقافتنا . ولا يتم ذلك الا اذا قدر افرادنا وجماعاتنا وقدرت حكوماتنا خطرها ، فاهتمت بها ، وهيأت لها الاسباب ، وسهلت لأصحابها سبل الحياة وقسطاً وافياً من الاستقرار . عندئذ لا يكون اهتمامنا مقصوراً على الاقرب والادنى من حاجاتنا القومية والانسانية فحسب ، بل يتناول الابعد والابقى منها كذلك .

قسطنطين زريق

رئيس جامعة بيروت الاميركية بالوكالة

لا بد من رد الفعل

يعود سبب الإقبال على الدراسة العلمية الى عوامل عديدة هذه أهمها :

١ – أول ما نلاحظه في حياتنا الحاضرة ، حين نقوم باحصاء ما ، ان عدد الذين يعيشون من فروع الحياة «التكنيكية» يتزايدون يوماً بعد يوم، كما أن حياتنا الجديدة أصبحت تعتمد اعتماداً رئيسياً على « التكنيك » الذي اكتسح جميع حقول النشاط العالمي .

٢ – ومن العوامل ايضاً ما يعود الى قانون العرض والطلب، فقد احتجنا الى «تكنيكيين» فلم يكد الإعلان عن هذه الحاجة يظهر ، حتى اندفع عدد كبير ، لعله اكبر من المطلوب ، نحو الفروع « التكنيكية » . وأرى انه لا بد ان يأتي وقت ينقلب فيه الوضع ، فيصبح العرض اكثر من الطلب ... وعندئذ يحدث شيء من رد الفعل .

٣ – ولا ننسى ناحية هامة ، وهي ان الالة أقل سماحاً من الانسان . فقد يمكن لكثير من الناس ان يدرسوا الفلسفة أو ان يحاضروا في الأدب وتاريخه، وهم يحملون شهادات في الحقوق، أو لا يحملون شهادات... فيتقبل الناس منهم ذلك بارتياح... ولكن ليس في وسع إنسان ان يدير آلة اذا لم يكن عارفاً بطرق ادارتها ، فالالة قاسية حاسمة في معاملتها للانسان ، وهي تفضح الجهلة بسرعة .

قد يتقدم عشرات المرشحين لمراكز التعليم من الذين لا يحسنون فيه شيئاً ، ولكن لن يجرؤ احد على ان يقود طائرة اذا لم يكن ماهراً حقاً في قيادتها.

٤ – وعامل رابع ، هو ان مستقبل المشتغلين بالشؤون العلمية مضمون اكثر من مستقبل غيرهم. وعندما وضعت الحكومة اللبنانية ملاكاً ثابتاً للمعلمين، اشتد الاقبال على الدراسات الانسانية ، والدليل على ذلك ان مدرسة الآداب في الأكاديمية اللبنانية تضم من الطلاب بقدر ما تستوعب تماماً .

٥ – والاتجاه نحو الدراسة العلمية ظاهرة لا تقتصر على بلادنا فقط، وانما هي ظاهرة عالمية ، وفي كل بلد تظهر صحف ومجلات للاطفال لا تتناول الا الشؤون العلمية الحديثة ، فتتحدث عن السيارة وأجزائها والكهرباء وشؤونها والراديو وتفاصيله . واذا ظهر الاتجاه العلمي قوياً صارخاً في لبنان فيعود ذلك الى ان « التكنيك » كان فيه ضعيفاً قبل الحرب ، فلما انتهت الحرب حاول ان يقوي هذا الضعف ، فجاء على شكل انقلاب قوي في الاتجاه الدراسي .

على ان الذي نرجوه ان لا تتغلب الآلة على الانسان ، بل ان تظل طيعة في يده ، وان لا تكتسحه بل ان يسيطر عليها ويكون لها سيداً . فاذا ارتقت الآلة وحدها ، دون ان يرتقي الانسان، فهنا يكمن كل الخطر ...

الكسي بطرس

رئيس الاكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة

بادرة خير

اعتقد أن الجواب على سؤالكم يقتضي دراسة احصائية دقيقة . فأنا أجهل عدد الطلاب في السنتين اللتين تعدان للبكالوريا ولو تسنى لي معرفة عدد المنتمين الى الفرع الأدبي وعدد المنتمين الى الفروع العلمية في كل من المدارس الثانوية لهان علي الجواب .

لقد لاحظنا طبعاً ميلاً متزايداً الى الالتحاق بشعب الدراسة العلمية ، وقد يكون ذلك ناتجاً عن سهولة اجتياز الامتحانات في الفروع العلمية بالنسبة الى الفروع الادبية ، وهذا ما لاحظته عند تلامذتي الذين يعلقون آمالهم على العلوم الطبيعية والكيمياء والفيزياء وهي لا تفرض الا الحفظ غيباً في حين ان الفلسفة والاداب تتطلب تفكيراً شخصياً يشعر اكثر الطلبة بعجزهم عنه .

ولا ريب ان في الاتجاه العلمي بادرة خير إزاء الفكر العربي في العصر الحاضر، لأننا بحاجة ماسة الى التفكير العلمي الصحيح، فالحضارة لا تقوم على نظم الشعر وتدبيج المقالات الادبية وحسب، بل تقوم على العلم المرتكز على المشاهدة والاختبار . فعلى مدارسنا والمشرفين على ادارتها أن يستغلوا ميل الطلاب هذا ، ويوجهوه نحو تكوين عقلية علمية صحيحة تعيد للامة العربية المركز الذي فقدته منذ ان انصرفت عن العلم ومالت الى الادب الصرف .

الدكتور خليل الجر

مدير الجامعة اللبنانية

الخلق القومي

– تتمة المقال المنشور على الصفحة ٨ –

في خلق الامم هو تفاوت الغرائز الاساسية في القوة مثل غريزة حب الانضمام للقطيع والميل إلى تأكيد النفس وفرض الارادة وحب الخضوع والاستسلام وكذلك في تفاوت المزاج مثل الميل الى الانطواء او الميل الى الانبساط ، ويأخذ المفكر البحاثة الاسباني مادر ياجا في كتابه المسمى « الانجليز والفرنسيون والاسبانيون » بفكرة الطرُز الانسانية ، فالانجليز عنده رجال عمليون والفرنسيون رجال تفكير والاسبانيون رجال عواطف وأهواء ، ويزيد المشكلة تعقيداً اننا ما زلنا نجهل أهمية عاملي الوراثة والبيئة المنسيين في تكوين الأخلاق ، والمزاج يعتبر دائماً العامل الداخلي الكامن في تكوين الأخلاق وأنه هو السر في بقاء الخلق القومي ثابتاً لا يتغير ، ولكن الاتفاق على تحديد مشتملات المزاج قليل ، ودراسة أساسه الوراثي لا تزال في المرحلة البدائية .

ونرى من ذلك ان الحجج التي تقدم للاعتراض على فكرة الخلق القومي هي أولاً التفاوت بين أخلاق الأفراد وثقافتهم في كل أمة ، وثانياً عدم وجود فوارق بارزة حاسمة في الأخلاق الفردية بين مختلف الأمم على شريطة ان تكون الموازنة بين الطبقات الاجتماعية المتماثلة ، وثالثاً التغييرات الأساسية التي تطرأ على الآراء الخاصة بخلق الامم القومي .

ومن أسباب رواج فكرة الخلق القومي والاعتقاد بثباته التصور الخاطىء لفكرة الخلق بوجه عام . وخلق الفرد نفسه ليس مطرداً اطراداً تاماً ولا مستعصياً على التغيير استعصاءً مطلقاً . فالخلق يضم ميولاً متعارضة وهو الى حد ما قابل للتغير . ويمكن ان نفهم الخلق على أنه مجموعة من القوى متجهة نحو نوع من الوحدة والاستقرار تحت تأثير الميول الموروثة والارادة المركزية والملابسات الخارجية . وواضح ان الوحدة والاستقرار في الفرد اكثر مما في الجماعة ، والسر في ذلك هو ان إرادة الفرد اكثر تركيزاً مما نسميه « إرادة المجموع » وان إرادة الجماعة تشمل عناصر اكثر تنوعاً من عقل الفرد ، وان الجماعة أطول عمراً من الفرد ومن ثم تتاح لها فرص اكثر للنمو والتحول ، والحديث عن الخلق القومي لون من ألوان التشبيه والمجاز .

ولكن هل يقتضي ذلك كله ان نرفض فكرة الخلق القومي رفضاً باتاً ونعتبرها وهماً من الاوهام كما فعل هاملتون فايف في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه ؟

إن الاحكام الملونة بلون العاطفة التي نسمعها كثيراً عن خلق الامم ليست كافية لرفض الفكرة ، وهي تواجهنا في اكثر البحوث الاجتماعية بدرجات متفاوتة ، ويمكن توقيها والاستحاطة في مراقبتها الى حد كبير ، وذلك بالموازنة بين الآراء المختلفة والاستزادة من المعلومات عن الأمم وأحوالها من جميع النواحي ، ولا نزاع في ان الحديث عن خلق الفرد يبدو أقرب الى الحقيقة من الحديث عن خلق الأمة ، لأن الفرد وحده هو الذي يصح القول بان له خلقاً خاصاً له نصيب من الوحدة والدوام والاستقرار ، ولكن الأمم برغم ذلك مثل سائر الجماعات لها تصرفات تستلفت النظر ، فاذا كان سلوكها في مواقف كثيرة يكشف عن لون من ألوان الوحدة والاستمرار فربما كان من الممكن في هذه الحالة ان نتحدث عن خلق الجماعة دون ان يلزمنا ذلك التسليم بوجود عقلية الجماعات او شخصيتها .

وفي الواقع ان الحديث عن خلق جماعة من الجماعات يشمل معنيين ويحتمل تفسيرين ، فقد يدل على الاختلاف في توزيع سمات خاصة وطرز نفسية في مختلف الجماعات مثلما يحدث حينما نقول ان الالمان أسرع الى الطاعة من الانجليز ، وان الفرنسيين في مجموعهم أفصح لساناً وأعلى بياناً من الانجليز وما إلى ذلك من الاحكام التي تصف الخلق العام والنزعة السائدة . ومن الواضح أننا اذا أردنا أن نجعل لمثل هذه الاحكام أساساً علمياً فان علينا ان نلجأ الى الاحصاءات الدقيقة لتبين لنا حقيقة توزيع هذه السمات في الامم المختلفة . ولكن الحديث عن خلق الجماعات قد يقصد به معنى آخر ، وهو نظام الجماعة ممثلاً في قوانينها وشرائعها وآدابها واتجاهاتها الفلسفية ومنازعها العلمية وسياستها واقتصادياتها وجوانب حضارتها المختلفة وألوان ثقافتها ، والمفروض في هذه الحالة ان النظم السائدة في أمة من الامم قد اشترك في عملها أفراد هذه الامة ، فهي من ثمرات تجاربهم ونتائج تفكيراتهم ، ومن الواضح ان هناك علاقة بين النظم السائدة في أمة من الامم وخلق هذه الامة ، والنظم السائدة من ناحية أخرى تعين على تكوين الامم تكويناً خاصاً ، وتؤثر في حياتها أبلغ تأثير ، والعلاقة بين خلق الامة وبين نظمها الغالبة علاقة متبادلة . ويزيد المسألة تعقيداً ان النظم السائدة قد لا تدل على خلق الامة بوجه عام وإنما تدل على خلق الطبقة القوية القابضة

على أزمة أمورها والموجهة لها ، وهذه الطبقة قد تعمل على إيجاد النظم التي توائم مصالحها وتمكن لها، ومن أجل ذلك قد تظل بعض الصفات كامنة في الامة حتى تتاح لها فرصة الظهور ، وقد يكون في تغلب طبقة أخرى من طبقات الامة على الطبقة التي كانت مستأثرة بالسلطان مجال لظهور صفات أخرى في الامة لم تبرز من قبل . ويمكن ان نستخلص من ذلك أننا لا نستطيع ان نقف على حقيقة خلق الامة من نظمها السائدة وسياستها العامة ، فقد تكون هذه النظم السائدة من صنع الطبقة الغالبة المستأثرة بالنفوذ ،ولذا يحسن ان نتتبع تاريخ نشوء هذه النظم لنقف على مناسبات وضعها والطبقة او الفريق من الامة الذي جاهد لتغليبها . ومن المعروف ان بعض النظم قد فرضت على بعض الامم فرضاً وكان لها تأثير بالغ بعد ذلك في حياة هذه الامم.

وتواجهنا مثل هذه الصعوبة حينما نحاول ان نتعرف خلق الامة عن طريق دراسة أدبها وعلمها وفلسفتها . فالواقع ان طرائف الامم الادبية والفنية ونظرياتها العلمية ومذاهبها الفلسفية من عمل الفريق الممتاز بين أفرادها ، وقد يكون هناك شيء من المبالغة في اتخاذ أفراد هذا الفريق عنواناً لخلق الامة ورمزاً لعقليتها ، وقد ذهب فوييه الى ان الصفوة المختارة في كل امة هي التي تعبر عن خلقها ، فشكسبير مثلاً هو الذي يمثل قومه الانجليز ، وجيتي خير مثل للعقلية الالمانية . والارجح ان في هذا الرأي جانباً من الحق ، ولكن علينا ان نكمله برأي آخر ، وهو ان سمات الامم الخلقية والعقلية إن كانت تظهر في الرجال الممتازين الذين يمثلونها فانها كذلك تظهر ظهوراً واضحاً في الامثال العامة والخرافات والاساطير الشائعة وفي الفكاهات والنوادر والطرف المستملحة الذائعة بين أفراد هذه الامة .

والظاهر ان تعرّف خلق الامم عن طريق دراسة آثارها الادبية وبدائعها الفنية وعلمها وفلسفتها ونظمها وقوانينها أهدى سبيلاً من تعرّف خلقها عن طريق مراقبة السمات الخلقية والملامح النفسية الغالبة على أفرادها . فميل الانجليز مثلاً الى الاعتماد على التجربة واضح في آثارهم الفكرية ، وحب الالمان للتعميمات العريضة والاحكام العامة الشاملة ظاهر في فلسفتهم ، والسياسة البريطانية قائمة على اغتنام الفرص ومعالجة المواقف والاحوال حسب ظروفها الطارئة ، وهي لا تعتمد على الحلول العامة والخطط المرسومة ، وساسة الانجليز يعنون بالمسائل المعينة المباشرة ، وذلك على خلاف السياسة الفرنسية التي تؤثر الحلول المتماسكة المنطق المحكمة الوضع وتتعلق بالاحكام العامة . وما يبدو في السياسة البريطانية من الاطراد والتناسق في المدى المتطاول سببه موقع بريطانيا الجغرافي واحوالها الاقتصادية لا الخطط الموضوعة ، وقد عزا بعض الباحثين كراهة الانجليز في سياستهم للاستمساك بالمبادىء الصارمة او الاعتماد على الافكار المجردة الى ضعف الانجليز في التفكير العام ، ولكن هذا الرأي خاطىء ينقضه ما أضافه الانجليز الى رصيد العالم العلمي والفلسفي.

والواقع أن ما يمكن أن نسميه الخلق القومي لأية امة من الامم هو في الحقيقة مجموعة التقاليد والمصالح والمثل العليا السائدة فيها ، والتقاليد والمصالح والمثل العليا هي مساك كل مجتمع من المجتمعات البشرية ، والتقاليد هي مجموعة التراث الاجتماعي ، والمصالح هي العناية بكل ما يضمن سلامة الأمة وتوفير أسباب الحياة لها ، والمثل العليا هي الأهداف التي تسمو على مصلحة الافراد الشخصية ولها في نفوس الامة مكانة تستوجب الاكبار وتلهم النفوس الطاعة وحب التضحية . والتقاليد تربط حاضر الامة بماضيها ، والمصالح توجه عنايتها الى حاضرها الراهن ، والمثل العليا توثق العلاقات بينها وبين المستقبل . وفي تقاليد أغلب الامم الاشادة بماضيها والاعتقاد بعراقة اصلها والتنويه بأبطالها السالفين ورجالاتها البارزين ، ومن تقاليد بعض الامم الاعتقاد بأن لها رسالة مقدسة وفكرة سامية قد اختصتها بها العناية الألهية . وتشمل التقاليد كذلك الاعتزاز بمناقب الامة ومواهبها ومزاياها وخصائصها ، وربما اضافت الى الامة محاسن متوهمة ومفاخر من نسج الخيال . ونرى من ذلك ان تقاليد الامم قد تشمل جانباً من الحقائق ، وجانباً من الاوهام والاكاذيب والاضاليل . وقد تؤثر هذه الاكاذيب تأثيراً بعيد المدى في حياة الامة وتاريخها . على ان التقاليد تظل محتفظة بقوتها ما دامت متصلة بمصالح الطبقات التي تمثل ارادة الامة ، ولكن هذه الطبقات عرضة للتغيير ، فقد تغلبها على أمرها طبقات اخرى وتقصيها عن النفوذ وتحول بينها وبين الاستعلاء او على الاقل تشاركها في السلطان والنفوذ الاجتماعي ، ويكون ذلك مدعاة الى تغيير ملحوظ في التقاليد المأثورة وظهور تقاليد مستحدثة . ويُشْعِر ذلك المشاهدين بأن تغيراً واضحاً قد طرأ على خلق الأمة القومي ، وفي جو كل امة من الامم مجموعة من الافكار والآراء والمعتقدات تركن اليها وتثق بها . وتشمل هذه الافكار والآراء والمعتقدات أنواناً من الغرور القومي

والادعاءات الوطنية ، وفي بعض الاحيان تنتصر العاطفة على العقل وتتغلب الاوهام على الحقائق . وقد روت اسطورة هندية ان قوماً من الاقوام ابتلوا باحديداب الظهور فكانوا ينتقصون الغرباء الذين يزورون بلادهم لاستقامة ظهورهم ويرون ذلك عيباً من العيوب . وكذلك الامم قد لاتكتفي بالاغضاء عن عيوبها بل تحاول المباهاة بهذه العيوب وتأخذ على غيرها من الأمم سلامتها من آثارها . ومجموعة الأفكار القومية لها تأثير بعيد في تكوين عقلية الأفراد وبناء خلقهم ، ومنها يتكون في الأمم ما يسمى بالرأي العام . والتقاليد ابعد إعراقاً من الرأي العام ، والرأي العام اكثر قابلية للتغيير من التقاليد التي يحتاج تبديلها الى جهود ضخمة .

وموجز القول ان السبيل القويم لدراسة الخلق القومي في الاغلب الاعم لا يكون عن طريق مراقبة الاختلافات في سلوك الافراد وتصرفاتهم وإنما يكون عن طريق تعرف صفات الامة البارزة في آثارها الثقافية وتقاليدها وسياستها العامة . وقد دلت دراسة صفات الامم وسماتها العقلية والاخلاقية بهذه الطريقة على ان ما اصطلح على تسميته الخلق القومي للأمم ليس شيئاً ثابتاً جامداً مستعصياً على التغيير وإنما هو شيء مرن قابل للتشكيل حسب الظروف التي تكتنف حياة الامة .

القاهرة — علي أدهم

تطور فكرة الاشتراكية

بقلم فؤاد طرزي

للاشتراكية مئات من التعريفات ، والاشتراكيون يعدّون بمئات الألوف؛ ولكن من الضروري ان نعرف ان الاشتراكية لا تعــدو أن تكون نقداً لفكرة الملكية من وجهــة المصلحة العامة .

ان أصول فكرة الملكية ترجــع الى الغرائز الشرسة في الانواع الحيوانية . وقبل ان يكون الانسان إنساناً من زمن طويل ، كان جدنا القرد مالكاً . والملكية في شكلها الاول هي ما يدافع عنه الحيوان ، وتتمثل في قصة الكلب والعظم ، والنمر والعرين ، وزئير الذئب والقطيع . فهذه كلهـا أصول للملكية . والواقع انه ليس هناك اصطلاح لا معنى له قيـل في علم النفس كاصطلاح « الشيوعية البدائية » لان الانسان القبلي القديم وانسان العصور الحجرية الاولى كان يتمسك بحق الملكية بالنسبة لزوجاته وبناته وادواته ومكانه الذي يحيط به . فاذا ما اعتدى شخص آخر على هذا المكان الذي اتخذه مسكناً ، فانه يقاتله واذا استطاع ذبحه . ولقد نما نظام القبيلة خلال العصور وأثبت « اتكنسن » في كتابه « القانون الادبي » ان هذا النظام نما بعد ان تطورت في نفس الرجل القديم نزعة التساهل في الابقاء على الرجال الذين يصغرونه في السن وفي حقه في زوجاته اللاتي يسلبهن من القبائل الاخرى وفي عُدده وحليه التي يصنعها وصيده الذي يقنصه . ان المجتمع البشري نما بتعاون أصحاب الملكيات فيما بينهم ، وان هذا التعاون فرض نفسه على الانسان بظهور الحاجة الى التكاتف لدفع اعتداءات القبائل الاخرى على مكانه الذي يسكنه . فاذا لم تكن الغابات والتلال والجداول ملكك وملكي فذلك لانها ملكنا جميعاً . وكل إنسان يفضل ان يقول « ان هذا ملكي » ولكن ليس هذا هو العمـل المنظم لان الآخرين في هذه الحالة سيدمروننا . ولذلك فان المجتمع منـذ ان وُجد ، عمل على التخفيف من الشعور بحق التملـك . وان غريزة التملك في الحيوان وفي الانسان المفترس أشد منهـا في الانسان المتمدين ، ولهذا فاننا نجد جذورها في عواطفنا لا في عقولنا .

ولم يقم في عصر الانسان المتوحش ولا في عصر الانسان المتمدين اليوم اي تحديد للملكية ، فكل مـا تستطيع الدفاع عنه فهو ملكك . ولكن كلما نما المجتمع نمت معــه انواع من القوانين التي كانت تمنع القتال الشرس ، واندفع الانسان أكثر فأكثر لاستصناع وسائل أوفر فعالية لاثبات ملكيته . وكان الناس سابقاً يستطيعون ان يتملكوا كل ما يستطيعون صنعه او القبض عليه او الادعاء به ، ومن الطبيعي انه في مثل هـذا الوضع يصبح المدين الذي لا يقدر على الدفع ملكاً للدائن . وكان من الواضح انه بعد ان أخذ الانسان يدعي ملكية رقعة من الارض صار كل واحد يعطي القروض لاي إنسان غـيره يريد ان يستفيد منها ويستخدمها . ولكن فكرة الملكية التي لا تخضع لقيد ولا حد أخذت تتغير ببطء ككل التغيرات الـتي طرأت على أنظمة الحياة التي يخضع لها الانسان . لقد وجـد الناس أنفسهم يولدون في أرض يملكونها جميعاً ويدّعونها كلهم ولم يجدوا أنفسهم يولدون وهم يملكون لانفسهم ويطلق عليهـم اسم المالكين . ولما كانت الانقلابات الاجتماعية في المدنيـات القديمة معقدة ومتشابكة ، فانه من الصعب تتبع آثارها الآن ، ولكن تاريخ الجمهورية الرومانية يرينا ان المجتمع قد استيقظ على فكرة ان الديون شيء مزعج للجمهور ولذلك يجب ان تلغى وان عدم تحديد ملكية الارض غير مقبول أيضاً . ونحن نعرف كذلك ان البابليين المتأخرين حددوا بكل صرامة تلك الحقوق التي كانت للاسياد على العبيد بموجب فكرة الملكية . واخيراً فاننا نجد في تعاليم الثائر الكبير السيد المسيح مثل هذا الهجوم على الملكية بشكل لم يعرف من قبل فهو يقول : « ان دخول الجمل في سمّ الابرة أسهل من دخول صاحب الامــلاك الى مملكة السماء ! » .

ثم توالت الهجمات بانتظام على فكرة الملكيـة الكبيرة في الخمسة والعشرين والثلاثين قرناً الأخيرة . وبعد المسيح بـ١٩٠٠ سنة نجد جميعاً بان العالم يشهد حركة كبيرة لتحطيم اسس فكرة

الملكية في الحياة البشرية واخذت الفكرة الشائعة بان «الانسان يستطيع ان يتصرف في ملكه كيفما يشاء» تعاني هزة كبيرة بنفس القوة التي عانتها جميع انواع الملكية . إلا ان هذا العالم الذي وجد في ختام القرن التاسع عشر وقف موقف المتسائل من هذه القضية ، فلم يقدم شيئاً كافياً او يقر فكرة واضحة لاثبات المشكلة . فقد كان من اول اهدافه حماية الملكية من جشع الملوك المستبدين واستغلال النبلاء المجازفين ، واولى في نفس الوقت عناية كبيرة لحماية الملكية الخاصة من الضرائب التي فرضتها الثورة الفرنسية ، غير ان دستور هذه الثورة الاخيرة الذي أقر المساواة حملها الى الملكيات الكبيرة التي اراد حمايتها . فكيف يمكن ان يصبح الناس احراراً متساوين وهناك العدد العديد منهم لا يملكون ارضاً يسكنونها ولا شيئاً يأكلونه وان المالكين لا يطعمونهم ولا يسكنونهم ما لم يكدوا ويتعبوا ؟!

مما لا شك فيه ان هذا الوضع قد دفع الفقراء الى الشكوى وكان من اولى النتائج السياسية ان ظهرت جماعة جديدة وقفت في صف واحد واخذت تطالب بتعميم الملكية ، وكانت تهدف من وراء غايتها — وبطريقة اخرى — الى نتيجة ثانية. فعرف الناس من سموا بالاشتراكيين المتطرفين او بعبارة اكثر تحديداً الشيوعيين الذين كانوا يرمون الى الغاء الملكية الخاصة الغاء نهائياً وتمليك الدولة كل المرافق العامة .

وكان من الامور المتناقضة ان نجد اناساً مختلفين يفتشون عن الحرية والسعادة وهما الغايتان اللتان يهدف اليهما غيرهم فيقترحون من ناحية جعل الملكية مطلقة بقدر الامكان ويدعون من ناحية اخرى الى تعيين هدف لجميع الملكيات . وإننا نجد تفسيراً لهذا التناقض في حقيقة ان الملكية ليست شيئاً واحداً بل هي أشياء مختلفة متباينة . وعندما تطورت الحياة في القرن التاسع عشر اخذ الناس يدركون بان الملكية ليست شيئاً بسيطاً بل شيء معقد تختلط فيه قيم مختلفة وآثار متنوعة . فهناك اشياء متعددة ، كجسم الانسان وأدوات الفنان والملابس ، تعتبر من الاملاك الشخصية الفردية التي لا يمكن سلبها . وان هناك أصنافاً كثيرة من الأشياء كالسكك الحديدية والآلات من مختلف الأنواع والبيوت والاراضي الزراعية وزوارق النزهة وأمثالها تحتاج الى ان يوضع لكل منها تصميم يبين الى أي مدى وتحت أية قيود تدار إذا اعتبرت ملكية خاصة ، وإلى أية درجة تدخل في عداد املاك الدولة العامة ؟ وكيف يمكن إدارتها واستغلالها من قبل الدولة لتحقيق المنفعة الاجتماعية ؟ وفي ميدان الحياة العملية أثرت هذه المشاكل في الافكار السياسية، وتطرقت البحوث إلى قضية مقدار كفاءة الدولة في الادارة . وقد فتحت هذه القضايا السبيل لظهور قضايا اخرى تتعلق بالنفسية الاجتماعية واتجاهات علم التربية وعُرف ان القوى التي تناوىء الملكية تعتمد إلى حد كبير على العواطف الثائرة لا على المنطق والعقل . فكان يقف في طرف الفرديون الذين يدعون الى حماية وتوسيع مدى حرياتنا المقررة بما نملكه ، ويقف في الطرف الآخر الاشتراكيون الذين يرمون على اختلاف نزعاتهم الى تقليل حقوقنا المنبعثة من تملكنا للاشياء . وفي ميدان العمل يجد الانسان دائماً اناساً معتدلين يقفون بين الفرديين المتطرفين الذين يسمحون نادراً بفرض الضرائب لمساعدة الدولة وبين الشيوعيين الذين ينكرون أية ملكية على الاطلاق .

ان الاشتراكي العادي اليوم — والذي يُدعى بالجماعي — يسمح ببقاء الملكية الخاصة على قدر معقول ولكنه يدعو الى ان تتملك السلطة العليا في الدولة كل المرافق العامة كالتعليم والنقل والمناجم والاراضي وتتولى انتاج القطع الكبيرة من الآلات الثابتة وما شابه ذلك .

ونحن نشاهد في هذه الايام تقدماً مطرداً واتجاهاً حثيثاً لدراسة الاشتراكية وتنظيمها وفق أسس علمية . فقد غدا مفهوماً أن الانسان الأول غير المتمدين لم يتعاون بسهولة ونجاح في المهام الاجتماعية الكبيرة ولهذا ظهر أن كل خطوة في سبيل بناء أسس دولة متشابكة المصالح ، وان كل طريقة تتبعها الدولة لوضع يدها على المشاريع الخاصة تحتاجان الى نشر التعليم وتحسين توجيه الرقابة والادارة . كما ظهر ان الصحافة والاساليب الارسالية في الدولة الحديثة لا تزال بعيدة عن ان تتلاءم مع الانتاج الكبير في ميادين النشاط الاجتماعي . ولكن بعد مضي فترة من الزمن أدى التعارض الذي حصل بين مصلحة المستخدِم والمستخدَم — وعلى الأخص بين مصالح المستخدِمين الأنانيين

مصادر البحث

١ . حقوق الانسان — هارولد لاسكي
٢ . تاريخ العالم — هـ . ج . ويلز
٣ . الاتجاه نحو نظام جديد — هـ . ج . ويلز
٤ . التاريخ الانكليزي — مكولي
٥ . الطرق العلمية في الدراسات الاجتماعية — ولسن

ومصالح العمال الناقمين — الى انتشار صنف بدائي من أصناف الشيوعية في انحاء العالم وهو الصنف الذي اقترن باسم ماركس، ولقد بنى ماركس نظرياته على أساس الاعتقاد بان افكار الناس تتجدد وفق حاجاتهم الضرورية. وهكذا فان هناك مانعاً اصلياً في المدنيات الحديثة يمنع من تحقيق الرفاه للطبقات العاملة وللمجتمع بصورة عامة في آن واحد. ويقول الماركسيون انه بنتيجة التقدم الذي حصل في ميدان التعليم والذي جاء إثر الثورة الميكانيكية ستصبح الاغلبية الكبيرة من العمال طبقة واعية بالتدريج وستصبح اكثر عداء (ولا ننس انها طبقة واعية) للأقلية الحاكمة. وبطريقة معينة ستستولي هذه الطبقة العاملة الواعية على السلطة كما يتنبأ ماركس وتدشن عهد دولة اجتماعية جديدة.

وفي التعليق على هذه المبادىء والنظريات نقول ان العداء والعصيان والثورة المتوقعة أشياء مفهومة فهماً كافياً ولكن من الملاحظ انها لن تؤدي الى إقامة دولة اجتماعية جديدة او غير ذلك بل ستعقبها عملية هدم اجتماعي فحسب. لقد عمل ماركس على إحلال الخصام الدولي مكان الخصام الطبقي، ولذلك انتجت الماركسية على التوالي ثلاث دوليات عمالية. ولكن اذا نظرنا من النقطة التي ابتدأت منها فكرة الفردية الحديثة فمن الممكن ان نحصل ايضاً على نفس الافكار الدولية، فمنذ ايام الاقتصادي الكبير آدم سمث تعمل الاتجاهات العامة قدماً على توجيه الأذهان نحو فكرة تقول بانه لا يمكن تحقيق الرفاه العالمي إلا بتعميم الحرية ورفع القيود التجارية، وبكراهية الفرديين للدولة كرهوا التعريفات الجمركية وعراقيل الحدود وكل التقييدات التي توضع للحد من الحرية في المعاملات وخاصموا الحركة التي كانت منتعشة لبقاء الحدود القومية. ومن الممتع ان نرى اتجاهين فكريين، متناقضين في روحيهما، مختلفين في جوهرهما، بمثل تلك الدرجة من التناقض والاختلاف الموجودين بين مذهب الحرب الطبقية الاجتماعية الذي بشر به ماركس وبين الحرية التجارية التي دعا اليها الفرديون من فلاسفة رجال الاعمال البريطانيين في العصر الفيكتوري — نقول من الممتع أن نراهما بالرغم من هذه الاختلافات الاساسية يتلاقيان في النهاية في الدعوة الى غايات مشتركة ترمي إلى التعاون العالمي في مختلف الشؤون الانسانية بدون أي اعتبار للحدود والتحديدات التي يفترضها وجود الدولة. ولعل القياس في هذه المواضيع يجب ان يترك للانجازات والانتصارات الواقعية لا إلى المسائل النظرية. ولهذا فاننا اخذنا نحس رغم الاختلاف الواسع بين المذهب الفردي والمذهب الاشتراكي بانهما قسم من اتجاه عام... اتجاه للبحث عن مجتمع أكثر رحابة وسعة، وعن آراء وتأويلات سياسية لاختيار السبل التي تجمع الناس للعمل مشتركين متعاونين. وقد ابتدأ هذا الاتجاه في اوربا في القرن التاسع عشر، وقواه إيمان الانسان بمثل الامبراطورية المقدسة، وحثه عليه انحلال المسيحية، ثم توسع أكثر وأكثر عندما بزغ عصر الاكتشافات الذي تطلع فيه الانسان إلى آفاق جديدة... آفاق تمتد إلى أبعد من شواطىء البحر الابيض المتوسط لتضم العالم الواسع باجمعه.

فؤاد طرزي المحامي «بغداد»

من عهد آشور

شيزرانا والكاد

لخالد الشواف

بغداد

شيزرانا .. لاتراعي .. شيزرانا ..   أنا يا أختـــاه من بالحب دانا
اكتمي نجواكِ .. أو بوحي بها   واجهري .. لن يسمع النجوى سوانا
إن « ألكاد » عـلى سفح الربى   يحرس الشـــاءَ ويحتثّ الزمانا
يعجل الشمس الى مغربهـــا   ليرى شمس الليـالي « شيزرانا »
هو يهواكِ كما تهوينــه   ومن الصمت الذي عانيتِ عانى
نهنه الكتمان من صبر الفتى   مثلما أغرى بكِ الصـبر فخانا
لا تخالي فارساً من « فارسٍ »   يوم يأتي يسعر الحربَ العوانـا
يقهر الراعي الذي تهوينـــه   لو تعهـدتِ أمانيه الحِسانا
شيزرانا ... فلتنادي في الدجى   باسمه .. ولتعلمي أين فتانا ؟ ..

***

إيه ألكادُ ... دع الشمسَ .. فقد
آنَ أن تغربَ يا ألكادُ ... آنا
عن قريبٍ تـبرح المرعى إلى
جنـــة القصر وترقى السندیانا
ليتَ يــا ألكادُ نبئتَ بما
لقيتْ منـكَ وذاقت شيزرانا

لا تبسَّمْ بسمةَ اليأس ، ولا   تزعج الصمت بآهاتٍ حزانى
لستَ يا ألكاد راعي بهمها   أنت في مهجتهـا أسمى مكانا
نادها الليـلة ... تظفر بالذي   رفرف الحبُّ عليه منذ كانا ..

***

جئتَ في الموعدِ .. لم تبطىء ولم   تتعجل أيهـــا الليـلُ الأوانا
فاعف عن قلبين حثاكَ الخطى   ألهوى ، والشوق ظنّاكَ توانى
أيهذا الليــل أرهف مسمعاً   وانشر الصمت .. فان الوقت حانا
نادت الشرفة : ألكادُ .. ، وذي   دوحة القصر تنادي : شيزرانا ..

***

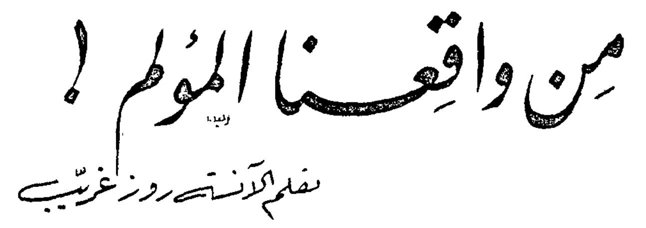
شيزرانا كفكفي الدمـع ولا   ترخصي يا بنتَ آشور الجمانـا
شيزرانا ... قسماً يا شـيزرانا   عاشمتْ عيناكِ ألكادَ الطعانا
شرفٌ عمّمت آشورَ بـــه   حينما باسمكِ خاض المعمعانـا
لم يروِّ الحربَ إلا كأســـه   مذ سقاها (سَنحريب) الأرجوانا

***

شيزرانا ... أبشري يا شيزرانا   سألتْ فارسُ آشورَ الأمانا
وغداً يرجع ألكادُ وقـــد   خلع النصرُ عليـــه طيلسانا
هدهدي الشوق إلى الفجر ولا   تعجلي يا بنت آشور الزمـانا
واملأي الكأس مُنىً دانيةً ،   ورؤىً بيضاً .. وأحلاماً حِسانا

***

يا لعرس النصر .. هذي «نينوى»   ضفّرت غاراً .. وزفّت شيزرانا
زحفتْ بالمجـــد والحبّ لمن   حفظَ التاجَ وصانَ الصولجانا
سائلوا آشورَ عن أمجادهـــا   من حماها ؟ الحبُّ .. جلّ الحب شانا



في كل بلاد نفترض وجود افراد من الطبقة المثقفة – التي تدعى كذلك – قد اضافوا الى ثقافتهم العقلية نوعاً من الثقافة الخلقية يجعلهم مخالفين المجموع في تفكيرهم وتصرفهم ، لا اعني فقط بالمجموع العامة بل اعني كذلك سواهم من المثقفين .

اولئك هم الذين – في بلد شيوعي – يجرؤون على مناقشة اساليب الدعاية والتفكير الشيوعيين ، لا عن نزوة هوى وانفعال بل عن تروٍّ وتفكير ، لا يهمهم ان يتعرضوا ، في موقفهم هذا ، لغضب السلطة الحاكمة وتنكيلها .

وهم الذين – في اميركا – يجسرون على انتقاد جنون التسلح الاميركي او الحملة العمياء التي تشنها اميركا على كل ماهو شيوعي وتقضي بها على حرية الفكر قضاء مبرما .

وفي قطر عريق الثقافة من اوروبا الغربية يناهضون تقاليد الاستعمار الاوروبي ويناقشون « حمل الرجل الابيض » ويوجهون اعنف النقد الى مساوىء البورجوازية الغربية وموقفها الهجومي المتغطرس او الرجعي المتحجّر .

اذا فرضنا وجود مثل هذه الفئة في قطر شرقي كبلادنا مثلاً ، علينا ان نقول بوجود فريقين من المثقفين : الاول – وهو الاكثرية الغالبة – يحصر ثقافته في نوعين منها ، الجسمية والعقلية، ويتخذ هذه الثقافة المبتورة وسيلة الى الكسب والنفوذ الاجتماعي ، لا يرى بأساً في تسخيرها للدعاية ونشر الاكاذيب والتقرب الى بعض المقامات الرفيعة بوسائل الملق والمصانعة ، وهو في ذلك لا يختلف عن طبقات العامة المعدومة الثقافة ، التي لا همّ لاصحابها الا توفير اسباب الملذات السهلة من مأكل وملبس ومسكن وتنفّذ اجتماعي بأي وسيلة ممكنة .

والفريق الثاني – وهو اقلية ضئيلة ، وربما قلنا مفقودة – يتصف اصحابه بعقائد خُلقية صلبة تسهل عليهم امر مخالفة المجموع ووضع القيم الذاتية فوق القيم التقليدية الشائعة ، لأنهم يرون للحياة معنى غير المال والشهرة والقوة المادية والسيطرة على المستضعفين وصغار النفوس من البشر .

يرى الواحد منهم انه لو خُيّر بين الفقر وبين عمل يضمن له الثراء ، لكنه يخالف مبادئه الخلقية، لآثر الفقر على هذاالعمل . ويخيل له انه يستطيع الوقوف وحده في العاصمة ومقاومة الرأي العام مهما قوي تياره . إذا انكر الرأسمالية وأساليبها فليس ذلك لانه – نظير اكثرية المتشيعين – يرى في تغيير النظام وسيلة للسيطرة والغنى اللذين أخفق في الوصول اليهما عن طريق النظام الرأسمالي ، بل لأنه يعتقد اعتقاداً راسخاً ، مبنياً على الدرس والاطلاع ، بفساد النظام المشار اليه وبضرورة تغييره . لكنه في عقيدته هذه ، مسيّر بالروح العلمية الى حد أنه مستعد للاستغناء عن تلك العقيدة ، اذا اثبت له الاختبار فسادها .

مثل هذا الانسان يرى الاشياء على حقيقتها لا من خلال مصالحه الذاتية ولا من خلال دعايات الآخرين . وهو لهذا لا يسلّم بصحة مبدأ او مذهب قبل اخضاعه لمحك الاختبار . ويتردد في الانتماء الى حزب من الاحزاب خوفاً من ان يتعرض بذلك للعبودية الفكرية التي ينفر منها اشد النفور ، فهو يحتقر التقليد في الافكار كما يحتقر التقليد في الأزياء .

لكنه مستقر على مبادىء خلقية صارمة لا تمتُّ الى السياسة بصلة وإنما تتعلق بكيان الانسان الذاتي وبتصرفه ازاء نفسه والمجتمع ، يصدّق بها لانها وُجدت في اعماق الانسان منذ وعى نفسه انساناً . واهم هذه المبادىء ان يكون صادقاً مع نفسه ، شديد المحاسبة لها ، وان يتصرف في الخفاء كتصرفه في وضح النهار ، وان يكون تفكيره الخفي مضاهياً لاعماله واقواله في النقاء والصدق .

نتصور هذا الانسان في مطلع حياته قد جابهته مشكلة تحصيل معاشه فرأى وسائل التعيُّش حوله إما تجارة يُباح فيها الغش والخداع ، او وظيفة يتقلب صاحبها بين عوامل الخنوع او عوامل الفوضى ، فهو إما حلقة او مسمار في آلة جبارة تدعى الدعاية الاجنبية ، او حجر في بناية متداعية متفسّخة تدعى الدوائر الحكومية .

فاذا رأى نفسه غير صالح للتجارة او عاجزاً عن تحمّل

اعبائها ، فلا بدّ له من الارتماء في احضان الآلة الجهنمية او الاحتماء في ذلك البناء الخرب المتهدم .

وهو في ما عدا ذلك مخيّر بين خوض غمار الهجرة وتسليم امره للاقدار وبين اعتزال الناس والتنسُّك في بعض الجبال ، وقد يُعرض عن اقتحام المجهول لضعف ثقته بالحظ وعدم ركونه الى حفاوة الاجانب ، وتعاف نفسه التنسُّك لا لصعوبته ، بل لانه دليل اليأس والتراجع وامّحاء الشخصية .

حينئذ ماذا يبقى امامه من سُبُل ؟

اذا شاء ان لا يهلك جوعاً ، لا يبقى امامه الا الوظيفة التي يتسلّمها على كره منه ، واعداً نفسه ان يحيا حياتين : في الواحدة يقوم بواجباته على قدر الامكان ، ويحاول مكافحة الشرور والامراض المحيطة به على قدر الامكان ، والتوفيق بين حالته وحالة المحيط الموبوء ، فهو حيناً مساير ، وحيناً مقاوم ، وحيناً صامت يتلقى الصدمات والكلمات صابراً مستبسلاً . وفي الثانية يعيش اميناً لمبادئه ، منطوياً عليها ، متعامياً عما حوله ، مكوّناً لذاته عالماً داخلياً يتعزى به ويحرص على ان يزيده بهجةً ونمواً بواسطة المطالعة والدرس الذاتي ، ويتخذ من اوقات فراغه القليلة فرصة لبث بعض الآراء والتحدث عن وسائل الاصلاح .

وهو في خلال ذلك يخدع نفسه بالوعود ويمنّيها بيوم فيه يرتفع عن صدره الكابوس فيعيش حراً طليقاً ويحيا حياة واحدة بدل اثنتين . يوم تنفتح عينه فيه على عالم جديد تسوده العدالة والصلاح والصراحة والنظام والراحة والنظافة والامن .

وفي انتظار ذلك اليوم يقنع بلذة الحلم . لكنه — وهو غريق احلامه — لا يقف ليرى الى اية هاوية تجرّه هذه الحياة المزدوجة الموزّعة ، الممزّقة بين الصمت والمسايرة والثورة والكفاح الذاتي ، ولا يحس بأن الزمان الذي يضيعه على هذه الصورة يذهب من يده ولا يعود . اما الوعود التي يمني بها نفسه فلا تخرج عن كونها خيالات واوهاماً لانه هو نفسه لم يكتشف بعدُ الوسيلة العملية لتحقيقها .

روز غريب

سيّارة النائب

اقصوصة جديدة بقلم الدكتور صلاح الدين الناهي

تهادت سيارة النائب في سفح الجبل تفوح منها رائحة الزيت الايراني غير عبقة فتملأ مناخير النائب المزهوّ آقاي غلام علي سهلمبدي وهو عائد الى قريته مُدِلاً بها ، قد صفف بقايا شعره وزالت آثار القرع عن يافوخه ، فلم يكد يطأ بها القرية حتى اقبل عليه اهلها مرحبين وهم بين مكذب ومصدق ، حتى اذا خرج منها نائبهم واغلق وراءه بابها بتيه الفاتحين ، ساور نفوسهم الرعب وسرت فيها قشعريرة المذلة ، فطأطأوا رؤوسهم وشبكوا ايديهم على صدورهم ، مرحبين به بألسنة قد عقدها الخوف .

وانعقد سامرهم في الليل وتشاوروا بينهم ايهم يسأل النائب المحترم عن هذا الانقلاب المفاجيء العظيم ، وكيف اصبح بقال القرية الاقرع المعدم (آغا) عظيما تقله سيارة فخمة ضخمة ، وما صنع الدهر بملابسه المرقعة الوسخة المنتنة ، وقرعته كيف نبت فيها الشعر ، أكل ذلك بمعجزة النيابة ام بمعجزة اخرى لاتُدرك ؟

وجاءه شيخ القرية يسعى بهدايا اهلها ، وكانا صديقين حميمين يوم كان النائب بقالاً ، وكان للبقال بقايا دين في ذمة شيخ القرية . فلما تم اللقاء تعانقا وجلسا متقابلين ، فلم يكد يتنازل النائب لشيخ القرية عن دينه حتى انشرحت له نفس الشيخ واقبل عليه اقبال الصديق القديم فقال له :

– روحي فداك ان اهل القرية يقدمون اليك هذه الهدية المتواضعة من الدجاج وهذه السجادة الصغيرة ويرجون منك قبولها ويؤملون ان تسعى لدى المراجع العليا فقد طال على غلق ابواب المدرسة العهد .

ونظر النائب في عيني صديقه القديم وانفجر ضاحكاً .

وانفجر شيخ القرية ضاحكاً ، وزالت الكلفة بينه وبين الصديق فقال له :

– لقد اقبلت الدنيا عليك ، فما أكاد أصدق انك بعينك غلام علي ، صديقي الحميم القديم فمن أين لك هذا ؟

– لك ما تريد ، فاني ما أزال أبحث عمن أفضي اليه بهذا السر فلا أجد من يؤتمن ، حتى وقعت على الصديق الوفي الكتوم .

– قل ما بك تحدّث بئراً بعيد الغور .

– ما زلت بعد النيابة التي كان لك الفضل في وصولي اليها معدماً لاتجديني مخصصاتها وما زال الدين يركبني حتى خطر لي ان اسأل بعض اصدقائي النواب ممن كانوا معدمين على شاكلتي فاذا هم بين عشية وضحاها ينفقون على حياة اللهو والقصف والترف ما لا تصدقه عين ولا اذن ، فضحكوا على غفلتي طويلاً ، ثم اسرّ احدهم في اذني ان اقول شيئاً في البرلمان وان اوجه سؤالاً الى وزير المالية عن نفط الشمال ، وتكرم الصديق فلقنني صيغة السؤال ، فما زلت بها اياماً حتى حفظتها وقمت متعثراً باذيالي ، فالقيت على نواب الامة السؤال كما يلقي الطفل محفوظته ... الاولى ، وجلست والعرق يتصبب مني . تصوراني اقف وجهاً لوجه امام وزير المالية واعنفه في القول ...

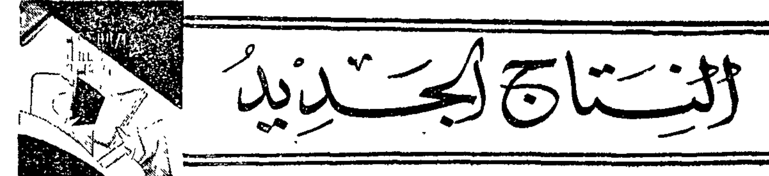
قال ذلك ثم اخرج منديله ومسح به العرق عن جبهته وهو يتصور موقفه العظيم ، ثم عاد يقول :

– ولما جن الليل هبط عليّ ظرف فيه خمسة آلاف تومان وعاهدت شيطان الجنوب على الصمت ، وخرجت في الفجر الى حمام مجاور فاغتسلت ، وقبل ان يؤذن المؤذن لصلاة الظهر كانت السيارة تقلني الى المسجد ، فقد اسروا الي ان شعب ايران متدين يسره ان يؤم نوابه المسجد للصلاة .

وقهقه الصديقان الحميمان وقدم شيخ القرية للنائب غليوناً جديداً ، وامتطت احلامهما صهوات الدخان سابحة في فضاء لايتناهى من الاخيلة الصبيانية .

« بغداد »

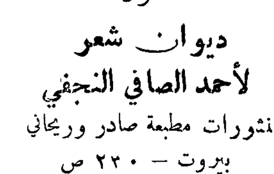
صلاح الدين الناهي



« شرر »

ديوان شعر
لأحمد الصافي النجفي

منشورات مطبعة صادر وريحاني
بيروت – ٢٢٠ ص



فبعد نبي الشعر احمدَ احمدُ | الى الشعر يأتي كل الف مجدد
اذا رمت أمراً لم أجد من أقلد | حماني من التقليد ما عشت انني
فان شئتم ان تهتدوا في اقتدوا | أسير كما توحي إليّ سريرتي

واذا لم نشأ يا شيخ أحمد فماذا يغشى بصائرنا ؟ أنظل تائهين ؟ ان الله وحده هو الهادي – يهدي لنوره من يشاء – وما أنت الا شاعر .. والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ بلى وربي رأيت ، وهذا واحد منهم صدعني وهو يقول شعري .. شعري .. انا الشاعر المجدد .. انا أبتكر ولا أقلد ..

كل شعري نادر مبتكر | شعر غيري مثل غيري هذر

فيا ليت شعري أين هو هذا الابتكار ؟ وهذا التجديد الذي يبهر الأبصار ؟ أهو في مثل قول الصافي :

يا دار كم فيك أسرار وأخبار | ما كان أجملها لو تنطق الدار

أم في مثل هذا القول :

قد حل في قلبي حبيبان | ولاح في أفقي « بدران »
لم أدر من ذا أصطفي منهما | وواحد أحلى من الثاني

أهذا هو التجديد النادر المبتكر ؟ وكل ما عداه من شعر الشعراء تفاهة وتقليد وهذر في هذر ؟ تهجّم ومغالاة كنت أرجو لصديقي الصافي أن يسلم شعره منهما ، لا سيما ونحن في عصر بعيد جداً عن عصر الفخر والهجاء وأمثال هذه الادعاءات.

ثم ألم يكن الأفضل للصافي أن يترك التقدير للنقاد فيحكموا هم على شعره فيما اذا كان شعراً طريفاً نادراً أو غير نادر ؟ « أشطبْ على النقاد إلا القليل » .. احمد الصافي لا يؤمن بالنقد « فالنقاد هم الطغام واللئام »،أحمد الصافي لا يؤمن إلا باحمد الصافي :

ما ارتضاني غير أهل الفطن | وهمُ قلة هذا الزمن
« أنا » في العالم مقياس الذكا | « أفهم » العالم من يفهمني

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ان حساب الكافرين عسير.. هذا هو رأي الصافي بنفسه، فليسمع إذن رأي الناس فيه.

أحمد الصافي شاعر لبيب ، وظريف نابه ، يتمتع بشهرة أدبية فائقة وله أتباع ومريدون ، وشعره يعجب فريقاً من الناس .. ولكن هل الصافي شاعر حقاً ؟ هل هو شاعرٌ شاعرٌ – حسب مفهومنا الحديث للشعر – أم أنه كغيره من الشعراء « المشهورين » اكتسب اسماً اكبر منه ، ولبس جبة فضفاضة عليه ؟

سؤال ينبغي أن يطرح ويثار ، من أجل رفع الغشاوة عن عيون التائهين المخدوعين ، نرمي من ورائه الى إعادة النظر في كل « قيمنا »الأدبية ، ومراجعة ما أعطاه «أقطاب » شعرائنا– جميع الشعراء لا الصافي وحده – « لنرى ماذا عمل من يكبرنا سناً ، وماذا بقي علينا أن نعمل ، لنسير على بينة كما ساروا » مغربلين مطهرين ، لا نختشي في الحق لومة لائم ، رائدنا خدمة لغتنا وازدهار آدابنا . الكبير عندنا من يكبرنا أدبه. والعظيم من نعظمه نحن لا من يعظم نفسه .. أما الذين اكتسبوا الرتب والألقاب بالتطبيل والتزمير، والفخر والادعاء وقول الزور فهؤلاء سوف يشملهم قانون من أين لك هذا .

هل الصافي شاعر حقاً ؟ هذا هو السؤال. يجيب عليه البعض بقولهم ان الصافي ليس شاعراً ؛ ولكنه يحاول ان يصير كذلك وما صار قط .

ويجيب البعض الآخر بان الصافي شاعر ، ولكنه شاعر على طريقته .. شاعر فيلسوف مجدد.. اخترع جملة أغراض وولّد ثروة معان .

وفريق ثالث لا يحرم الصافي من الشاعرية ، بل يجود عليه بها ؛ ولكنه لا يجعله من طبقة الفلاسفة ، وأهل الفن والتوليد ، بل يعتقد انه من شعراء الدرجة الرابعة ، من تلامذة الزهاوي ، ومحتذي جبران وأبي ماضي ، وأحد رفاق الرصافي ، ومن أبرع مترجمي عمر الخيام . .

هذا واني وإن كنت أشد ميلاً الى رأي الفريق الثالث .. لأمسك عن تأييد هذا الميل قبل أن أرجع إلى عقلي أو أسأل نفسي هذا السؤال – السؤال النقدي الموضوعي الذي يشترطه عليّ بعض جهابذة النقد : ما هو الشعر ؟ هل الشعر هو الكلام الموزون المقفى ، أم أنه شيء يختلج به الصدر فينطق به اللسان ، ينفثه الشعراء وأكبادهم تحترق ، للنغم والخيال والعاطفة فيه الحظ الأوفر ؟ فاذا كان الشعر الكلام الموزون المقفى فقط، فالصافي وحليم دموس شاعران بل سيدان من سادات الشعر . أما إذا كان الشعر خيالاً وألواناً ونغماً مهموساً ونفثة عواطف وحرقة أكباد فيا حسرة أخينا أحمد على نفحة من نفحات الشاعرية !

الصافي مسجل خواطر ، وعجّان كلام . ينظم أخبار الصحف ، ويغذي عقله بافتتاحياتها .

أتصبح هاتيك الحقائق أوهاماً	وتحكمنا صهيون عرباً وإسلاما
إلهي إن نعجز فلست بعاجز	ففيم إذن أسكنت بيتك هداما

لا فن عنده ولا خيالات بل مقطوعات ساذجة غثة ، رديئة ، وقصائد سقيمة مهترئة ، تعوزها الحياة والحركة ، وتشلّها الرخاوة وفقر الدم . قال الصافي من قصيدة يصف جمال الطبيعة ويدعو إلى التملّي من هذا الجمال :

النهر يخطب بالخرير فأنصتوا	وإذا تكلمت الطبيعة فاصمتوا
الريح تعزف والبلابل غردت	والسحرضج وأنتم لم تسكتوا
هذي الطبيعة منكم « مغتاظة »	فعليكم « تدعو » وفيكم تشمت
« شوّشتم » لحن الوجود بلغوكم	وأماتنا منكم كلام ميت
أبمهرجان الكون لغو فارغ	ماذا يقال بوصفكم إن تنعتوا

فهل لعمري قال الصافي شعراً في ما قال أم أنه حكى حكياً وروى أخباراً وعمد إلى الكلام العادي المألوف فنظم ما بينه وأرسله أبياتاً موزونة وأشعاراً مقفاة ؟

لا أطمح إلى تجريح الرجل أو إشعال النار ما بيني وبينه ، إنما أنا قارىء أدب وشاري دواوين أنقب عن شاعر يغني آلامي ويهتف بأشواقي وينظم حنيني وخوالج إحساسي . شاعر أحس في ما ينظمه لي الدفء وزخم الحركة وغزارة التجربة . شاعر شاعر . لا راصف كلام . يجسّد لي المعاني وينقلني من عالم التوافه ورخص الابتذال إلى دنى النشوة والجمال وأوطان المحبة والخير وأرض العافية . شاعر جديد مثل الحياة الجديدة فماذا أنا ملاقٍ من هذه الصفات في شعر صديقي أحمد الصافي وديوان « شرره » وملحق « شظاياه » ؟

« شرر » ثامن ديوان للصافي بل « ثامن مرحلة من مراحله الشعرية » ، كما جاء في المقدمة ، يقطعها الصافي وحده بلا رفيق في طريق جديدة – كما يدّعي – شقها وعبّدها بنفسه في أرض بكر .. ومجاهل موحشة .. لم تطرقها رجل شاعر .. ولم تسلكها قدم ناثر .. ولم يهتد اليها فكر باحث او عابر .. وو .. وبقي عليه ان يزعم انها لم تخطر على فكر بشر ، هكذا يقول الصافي في مقدمته فمالنا وللاقوال ؟ لنرقب أفعاله !

في ديوان «شرر» قصائد جيدة وقصائد رديئة ، ولكن الرديء يغلب على الجيد . اولى جيداته قصيدة بعنوان « الشعر الصادق » يقول فيها الصافي :

ما كل من يصدق في شعره	اهل لأن يخلد طيّ الدهور
ان زال «فرق» الشعر في صدقه	ففرقه في درجات الشعور
ما الفضل في صدق بليد الشعور	وإن يكن خاض جميع البحور
ما كل ما يقذف بحر به	يليق ان يوضع فوق النحور
كم من بليد شعره صادق	وصدقه اتفه كل الأمور
كم ناظم بعضُ الذي قاله	شعر وباقيه «دعاوى غرور»

اجل وربي وأقوال زور كذلك . لنكمل القصيدة :

وناظم يزعج آذاننا	كأنما يقذفها بالصخور
يجول في كل النوادي به	يسمعها وإن شكت بالفتور
كأنما الأسماع وقف له	بكثرة القول عليها يجور
يعيد ما قال ولا ينتهي	حتى لمن يجبهه بالنفور
كالبائع الجوّال في كفه	بضاعة في كل ناد تدور

ولماذا ليس كأحمد الصافي نفسه ؟!

هذه واحدة . وأما جيّداته الاخريات فهي « الكوخ والقصر » ص٧٢ و « هياج البحر » ص١٠٥ و « حسناء تسوق سيارة حسناء » ص١١٤ و « تصحيح قبلة » ص١٢٥ و « الساعة المزاحمة » ص١٣٩ . خمس قصائد تمثل حقيقة الصافي وترسم شخصيته وتحدد طريقته : سامية باغراضها ، دفاقة بمعانيها ، ولكن .. ولكن ينقصها هذا الزخم الشعري ، والوقدة اللاهبة ، والنسج القوي المتلاحم ، الذي يكتفي باللمحة ، ويقف عند الاشارة ، وتكون قيمته الذهنية في غنى العاطفة الموحية ، والرمز المكتمن في الاتساق أو الزاهر باللون ، لا في تقرير الفكرة تقريراً مباشراً بالاعراب عنها إعراباً منطقياً واضحاً . فالافكار والمواضيع وحدها لا تعمل من غير الشاعر شاعراً . فالموضوع وسيلة للقصيدة لا غاية لها بينما هو غاية للنثر لا وسيلة . والافكار يجب أن تندمج في التعبير الفني اندماجاً تاماً ، وأن تخضع لقواعد الجمال الشعري – كما يقول أرنولد – وإلا فما الفرق بين الشاعر والناثر ؟ والأدب وعجن الكلام ؟

يقول دنتون « الفرق بين الأدب كله وعجن الكلام هو انه بينما الأدب حي فعجن الكلام بلا حياة » هذه هي علة الصافي النجفي ، فهو يقبل كل ما تورده عليه قريحته ويناجيه به طبعه ويبعثه فكره من غير أن يخضعها لمقياس الفن أو يعمل فيها التثقيف والتشطيب ليبرزها منقحة مصفاة ، خالية من كل دنس ، فتأتي قصائده نثرية في اسلوبها وفي روحها ، ضئيلة الحاسة الفنية ، ذات صياغة فنية طويلة مجرجرة لا روح فيها ولا انفعال ولا اصالة أو نسمة حياة ، بل خواطر تفكيرية مألوفة وتأملات ذاتية ، حائمة على السطوح ، إن كانت تدل على شيء فعلى الجمود والزيف النفسي والجمود الذهني .

الخلاصة ان الصافي شاعر يعيش في غرفة ضيقة وقواعد قديمة بالية . لا يحيا في العصر بل يحتضر على هامشه، يستوحي أساليب الأقدمين ويخبط في عقده النفسية :

من الاجتماع بنفسي عُقد … من اللؤم مضطرماً والحسد
وإما خلوت بنفسي ارتميت … وكلفت نفسي بحل العقد
فيعجزني الحل أو قطعها … فلي عقد حبلها من مسد
ومن ذنب الضب ماذا أحل … فنفسي قد كونت من عقد
وكم عقدة ساقها الوهم لي … فان رمت حلاً لها تنعقد
كأني نفاثة في العقد … أضاعت حجاها ولم تستفد

هذا هو احمد الصافي النجفي على حقيقته في هذه المرحلة من مراحل حياته الشعرية على الأقل . إن كان يساغ للناقد ان يدرسه فمن هذه الوجهة فقط – الوجهة النفسية – أما من وجهة الأدب والفن المحض فالناقد الفني لا يجب ان يعنى مطلقاً بشعر من نوع شعر الصافي . إنه شعر يؤخر تقدمنا ولا يزيد ثروتنا الأدبية ذرة واحدة . وعسى أن نلتقي يوماً مع نفس الصافي وشعره من خلال دواوينه الثانية لا ديوان «شرر» فقط لتكون الدراسة أكمل والنقد أقوم وأتم .

احمد ابو سعد

من اسرة الجبل الملهم

١ – الشعر في العصر الايوبي للدكتور جودة الركابي

٢ – دار الطراز لابن سناء الملك نشر الدكتور جودة الركابي

نشر المستشرق الانكليزي غيليوم Guillaumme في الجزء الرابع عشر من مجلة « مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية لجامعة لندن » (١٩٥٢) Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London 1952 تحليلاً موجزاً لكتابي الدكتور جودة الركابي : الأول « الشعر في العصر الايوبي وممثلوه الأساسيون » (باللغة الفرنسية) ، والثاني « دار الطراز في عمل الموشحات » (باللغة العربية). قال ماترجمته :

١ – الشعر في العصر الايوبي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٤٩

كتب مقدمة هذا الكتاب الاستاذ بلاشير واصفاً الشعر الايوبي بانه آخر صرخة قبل الموت . وقد قام الدكتور الركابي مؤلف الكتاب بتحريات عميقة تتعلق بشعراء اربعة من شعراء العصر الايوبي هم ابن سناء الملك وابن النبيه وابن مطروح وبهاء الدين زهير ، وقد اختارهم كأحسن من يمثل شعراء ذلك العصر وألقى أضواءً جديدة على حياتهم وآثارهم . ويقوم المؤلف بعد مقدمة ناجحة عن تاريخ العصر فيضع كل شاعر في وسطه الاجتماعي ويأتي بنماذج من شعره ليثبت ما جاء بالنص العربي لهذه الشواهد في نهاية الكتاب .

وقد خصص المؤلف القسم الثاني من الكتاب لدراسة واضحة ودقيقة عن مكانة هؤلاء الشعراء في الشعر العربي . وإنه لعمل مفيد يمكن ان يكون نموذجاً لدراسات قادمة لعصور اخرى . ونلاحظ ان هؤلاء الشعراء، على الرغم من هجرهم قيود القصيدة الجاهلية ، قد حافظوا على تمسكهم بروح هذه القصيدة ،وهذا ما جعلهم يستعملون بعض التعابير المتكلفة كما نرى ان « كليشهات » العصور القديمة تعود على ألسنتهم بشكل ممل . وأنهم لم يستطيعوا التخلي عن الماضي الا عندما جاء ابن سناء الملك بالموشح على غرار الاندلسيين ثم قام بوضع قواعده وذكر أسس نظمه .

ومنذ القديم نبّه المستشرق «هارتمان » الأذهان الى هذا النمط من الشعر وبيّن علاقاته الممكنة بأشعار الاوربيين في القرون الوسطى ، الا انه منذ ذلك الحين اخذ اهتمام الناس بهذا النوع من الشعر يزداد يوماً بعد يوم .

هذا والفصلان اللذان خصصهما المؤلف الموشح والدوبيت يوضحان كثيراً من الأمور التي كانت في الماضي غامضة . إلا أن القسم الذي خصصه المؤلف للصنعة الشعرية لا يوجد فيه ما يدعو الى الاهتمام ، على أن هناك بعض المقاطع التي تدل على عاطفة حقيقية انتزعت من قلب الشعر . وهناك بعض الأبيات لابن مطروح يمكن مقارنتها باشعار بن جونسون Ben Jonson إذا ما غيرنا بعض الألفاظ .

٢ – دار الطراز في عمل الموشحات، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٤٩ .

يبين الناشر الدكتور الركابي ان (دار الطراز) ليس ديوان ابن سناء الملك ، كما يزعم ابن خلكان، بل هو مجموعة موشحات والديوان لا يزال مخطوطاً . ويشير ابن سناء الملك في مقدمة الكتاب إلى قواعد نظم الموشح ويعترف بانه مدين لمن سبقه من الأندلسيين في اختراع هذا الفن ويذكر بعض موشحاتهم

إن إقدام الدكتور الركابي على نشر هذا الكتاب عمل جليل له فائدة كبرى وقيمة عظيمة لمن يريد أن يتصدى لهذا المضمار من الأدب العربي . وعلينا ان نهنىء الدكتور الركابي لقيامه بهذه المهمة على أحسن ما يجب . وانني أؤكد ان القراء سيتلقون هذا الكتاب بابتهاج ولذة .

لندن **غيليوم**

يهمنا ، والأمة العربية في إبان نهضتها، ان ننقل الى قراء العربية خلاصات لدراسات اعدها مستشرقون ومؤرخون نظروا الى تاريخنا العربي القديم نظرات الناقد الحصيف ، والدارس المحايد . وإذا كانت لنا رغبة خاصة ننقلها الى القراء فهي دعوتهم الى مراجعة ما غبر من تاريخهم والتعرف إلى الجوانب التي اغفلت تحليلها وعرضها عوامل ليست السياسة الاستعمارية أقلها شأناً وتأثيراً .

وقد عبر عن هذه الرغبة وما يزال يعبر عنها فريق كبير من المشتغلين في حقول الثقافة العربية من شرقيين وغربيين. ولسنا نجد خيراً من نقل بعض ما قاله المستشرق الفرنسي « لويس ماسينيون » في مقدمته التي قدم بها الى مواطنيه الفرنسيين هذا الكتاب ، المعجزة العربية، لماكس فانتاجو Max Vintéjoux الذي نورد ملخصه الى القراء .

قال :

«إن مهمتنا نحن اصدقاء العرب، ان نطالبهم بالصمود امام الدعاية المذلة التي تقترح عليهم التنازل عن شرفهم، وتقليدهم وإبائهم ، والاستسلام أمام القوى الاستعمارية ورؤوس المال المصرفية ليتحولوا عن طريقتهم في التفكير والعمل وينسجموا مع الحضارة الآلية الكاذبة التي لم تعد تؤمن بنفسها وبالله وتهدف الى اخضاع العالم لنظام « التروست » الاميركي الأبله . »

ثم يقول : « ان بعث اللغة العربية عامل اساسي لاقرار السلام بين الامم في المستقبل . وقد كانت هذه اللغة وما تزال في نظرنا نحن الكثيرين من الفرنسيين المسيحيين لغة الحرية المثلى ، والحب والرغبة التي تسأل الله – من خلال الدموع – ان يكشف عن وجهه الكريم .»

في هذا القول وكثير غيره ما يسمح لنا بتقوية الايمان في غزارة الثقافة العربية وعبقرية لغتها وتنمية الأمل في ايجاد حركة عربية بناءة صاعدة .

ر . ل

كتاب الشهر

المعجزة العربية

لخصه عن الفرنسية : رمضان لاوند

تمهيد

لست مؤرخاً . ولكنني حاولت القيام بهذه الابحاث بعد تفكير عميق في أساليب دراساتنا التاريخية الخاضعة لفكرة الانتقاء ، انتقاء المراحل التاريخية التي يجب أن تدرس ، دون ان يكون بينها ترابط وتسلسل يساعدان القارىء على تكوين رأي شامل عبر الأمكنة والأزمنة والأمم .

فالحقيقة ان المثقفين غير المتخصصين لا يدركون من تاريخنا الغربي غير نتف من هنا وهناك . فتتبلور في ذاكرتهم أحداث أثينا واسبرطة في القرن الرابع قبل الميلاد ثم ينتقلون فجأة وبدون تمهيد الى عهد اغسطس، ومن ثم يجتازون قروناً كثيرة ويتريثون أمام مرحلة من تاريخ فرنسا لا تزيد على ستة وعشرين عاماً بين سنة ١٧٨٩ و١٨١٥ م ، يقفون امامها طويلاً جداً ويحللون أحداثها دون أن يهملوا أقلها شأناً وأبعدها عن متن الحياة الضاجة بالحيوية والقوة.

اما ما عدا ذلك من المراحل الذهبية التي عرفها العالم فيبقى في غفلة منهم . انهم يجهلون حتى اسم قطب الحضارة ، الخليفة المأمون، ولا يعرفون عن هرون الرشيد العظيم الا ما يجدونه في أقاصيص « الف ليلة وليلة » .

ومحاولتي هذه لا تطمع في ملء الفراغ الذي تركه الدارسون فتصلح ما فسد من الأمر. ولكن رجائي كبير ان يرى القارىء في هذا الكتاب رحلة متواضعة خلال المناطق التي هي اكثر مناطق القرون الوسطى إغفالاً عند المسؤولين الرسميين .

فهل تستطيع هذه الرحلة ان تضع في الطريق المستقيم بعض المسافرين الجائرين عن سواء السبيل ؟

نهاية اليونان القدماء ويقظة الفرس

(من القرن الثاني الى القرن الخامس للميلاد)

يعرف القراء ان اليونانيين قد انتشروا بعد غزوة الاسكندر الكبير في مختلف البقاع التي تقع بين النيل في مصر والكانج في

بلاد الهند ، وانهم كوّنوا دويلات صغيرة استقلت كل منها بالاشراف على سياسة البلد الذي نشأت فيه . ولكن هذه الدويلات التي أتاحت للعقل اليوناني انشاء مراكز علمية ضخمة لم تستطع الصمود امام قوتين ناشئتين إحداهما في الشرق وثانيتهما في الغرب . أما الاولى فقد تكونت في جبال خراسان بقيادة البارثيين واما الثانية، وهي نصف بربرية، فقد امتدت جذورها في حوض البحر المتوسط وأطلق عليها لقب الامبراطورية الرومانية. ولم يعتم هذا الجانب من العالم ان خضع لهاتين القوتين اللتين التقتا امام نهر الفرات .

والمؤسف ان الرومانيين قد فشلوا في حمل التراث اليوناني الرائع رغم الجهود التي بذلها منهم انصار هذا التراث ومحبوه . من مثل لو كريس وشيشرون ثم يوليوس قيصر الذي حاول جاهداً تصحيح التقويم اللاتيني، واخيراً الجنرال بلين الذي كان في حقيقة الأمر وبالاضافة الى صفته العسكرية رجل علم ودراية. هؤلاء لم يفشلوا فقط في بث الروح العلمية بين طبقات الشعب بل عجزوا كذلك عن اقناع الطبقة الارستقراطية المحاربة بضرورة الأخذ بناصر العلم وإقناعها ان الطبابة والمهن المختلفة اعمال شريفة يمكن للاحرار الاهتمام بها وأنها ليست من اختصاص العبيد فقط .

واذا فشل العهد الروماني في عصره الذهبي في تبني الثقافة اليونانية فقد ظهرت في الشرق موجات فكرية رائعة تجاوزت في اصالتها الاصالة اليونانية القديمة ، وظهر رجلان يعتبران بحق عبقريتين نافذتين خالدتين – بطليموس ، وجالينوس – اولهما في الفلك والرياضيات وثانيهما في الطب . وقد نشأ الرجلان وتكونت ثقافتهما في البلاد المصرية .

وبالرغم من وجود هذين العبقريين انهزم العلم اليوناني في اواخر القرن الثاني للميلاد . فلم تعد هناك عاصمة للعلم بسبب الفقر الذي اكتسح المدن باستثناء رودس وأثينا والاسكندرية وغيرها . كل ذلك بفضل الهجمات المتكررة والاحتلالات الطغيانية من قبل الرومانيين والبارثيين الفرس . فكفر الناس بالعلم وكثر أنصار الشكاك وظهرت حركة دينية للتعويض عن فقدان الوعي العلمي بالعقيدة والتسليم . ونمت المذاهب الطبية التجريبية المضادة للعلم وأساليبه النظرية البناءه . وبفضل هذه الروح انتشرت اليهودية فالمسيحية التي كان لصراعها مع افلوطين وبورفيروس وجامبكيلوس الفضل في نقل التراث الهليني إلى



« النهضة » بريشة الفنان فروخ

امتين في الشرق أصبحتا لمدة قرون طويلة على رأس الحضارة العالمية .

وإن ننس لا ننس التطور الذي أصاب ايران والشرق الأدنى. فقد كانت ايران هلينية الحضارة في العهد السلوقي ولمدة ستة قرون. ثم ظهرت يقظة قومية أخرجت اليونانيين من البلاد الايرانية وتكونت بها اللغتان السريانية والفهلوية القديمة اللتان أصبحتا – ولا سيما اولاهما – لغتي الحضارة والفلسفة والعلم . وقد نمت السريانية بصورة خاصة في القرون المسيحية الاولى بفضل هجرة النسطوريين الى ايران وممارستهم ثقافتهم وتعاليمهم في مدرسة جندَيْ سابور... اما الشرق الادنى فقد حدثت فيه ثورات قومية وتكونت في سورية دولة تدمر بقيادة زنوبيا . وبفضل روح التحرر والانعتاق من القيود اليونانية والبيزنطية انحسرت اللغة اليونانية وحلت محلها اللغة السريانية التي نقلت اليها ثقافة اليونان الفلسفية والعلمية وشرحت بها الكتب التي ألفها آباء يونانيون او فلاسفة وثنيون .

سر العلم الهندوسي
(القرن السادس)

من المؤسف حقاً ان يكون الهنود بطبيعتهم اعداء للتأريخ . وان يكونوا اقرب إلى التأثر بالمغيبات منهم بالحقائق

العلمية . وقد حار الدارسون في تفسير هذه الظاهرة . والغالب انها راجعة الى التكوين العنصري والتقليد الديني اللذين أثّر كل منهما بدوره في تكوين هذه الظاهرة الفاسدة ، فالعالم لا يعرف شيئاً واضحاً عن هذه البلاد قبل القرن العاشر الميلادي باستثناء ما رواه المسافرون اليونانيون والصينيون .

في القرن الثلاثين قبل الميلاد ظهرت يقظة هندية، وفي القرن العاشر قبل الميلاد ايضاً بدأ الغزو الآري الذي اجتاح البلاد الهندية وفرض نظمه ولغته، ثم تعاقب على الهند الفرس واليونان ايام الاسكندر الكبير . ولم تستقل البلاد الهندية استقلالاً حقيقياً وتتكون فيها وحدة نسبية الا في عهد امبراطورية (غوبتا) بين ٣١٨م و ٤٨٠م . وفي هذا العهد ظهرت تيارات فنية وادبية مبتكرة . ولما حل القرن السادس الميلادي جاء الهون بوحشيتهم وضراوتهم فهدموا ما بناه الهنود ثم قتلوا وسفكوا الدماء بكثرة مخيفة جداً . ولم يتراجعوا الا بفضل اتحاد دويلات صغيرة هندية .

والمدهش في هذا العهد القصير هو ظهور آريا - باتا وبرهما جوبتا — وهما عالمان كبيران كان لهما الأثر الكبير في احداث ثورة جذرية في علوم الحساب والجبر . فأدخلا النظام العشري واستعملا الصفر لأول مرة . والظاهر ان الحضارة اليونانية رغم انتشار ثقافتها العلمية في هاتيك البقاع لا تساعدنا على اكتشاف مصدر هذا الابتكار العظيم . لذلك فانه من الممكن جداً ان يكون الهنود متأثرين بالعلم السومري الذي ظهر في جنوبي العراق ، المنطقة التي كانت ذات صلات تجارية واسعة معهم من أقدم الأزمنة .

وقد انطفأت هذه الشعلة الهندية في أواسط القرن السابع الميلادي فلم يشارك الهنود بعد ذلك في أية يقظة من يقظات العالم المتمدن حتى عصرنا هذا .

الفتح العربي

(القرن السابع)

كانت ايران نقطة ارتكاز بين الهند واليونان وقد استقبلت من البلدين خير ماأنتجاه، ولكنها مع الأسف لم تحسن الاستفادة منه. وبذلك عجزت السريانية والفهلوية القديمة عن ان تكونا لغة الحضارة والثقافة العالميتين . أما الذين قاموا بهذا الدور العظيم فهم العرب الذين كانوا يتلقون عبر تخومهم رواسب الفكر الايراني والبيزنطي والمصري وغيرها ، كما كانوا يتاجرون مع الهنود . وعجز اليهود والمسيحيون رغم جهودهم الجدية عن اقناع العرب باعتناق ديانتهم حتى جاء محمد برسالته التوحيدية (الاسلام) التي تنسجم ببساطتها مع بساطة العقلية العربية ووضوحها . ولما توفي الرسول تابع أنصاره النضال من أجل دعوته ففتحوا سورية والعراق وايران ومصر، ثم تغلب السوريون على المدينة المنورة بقيادة معاوية وحافظوا على سلطانهم مدة قرن من الزمان . وتعاقب السلطان بعد ذلك على مدن مختلفة ولاسيما بغداد مع العباسيين والقاهرة مع الفاطميين . اما الامبراطورية التي بناها العرب فقد كانت اعظم شأناً من جميع امبراطوريات الاسكندر والرومان والفرس إذ امتدت مناطق نفوذهم من أواسط فرنسا حتى مشارف الصين .

الاتصالات الفكرية العربية الاولى

(القرن الثامن)

استطاع الامويون القيام بحملة تعريب واسعة نجحوا فيها نجاحاً منقطع النظير . والفضل في هذا النجاح راجع الى طبيعة الاسلام وتحريره . ثم أقبل العرب على الاستعانة بالرهبان النسطوريين والأطباء المسيحيين واليهود المقيمين في الاسكندرية والذين أسند اليهم أمر إعداد الجيل الجديد. وكما تأثر الامويون بالطرف اليوناني تأثروا كذلك بالجانب الهندوسي . فقد بنوا سلسلة محطات تجارية كبرى امتدت حتى زنجبار ، وتاجروا مع الهنود وأخذوا ما كانوا يحملون من التراث الهندي ولاسيما المبتكرات الرياضية والفلكية . واذا كان الفرس قد فشلوا في تنمية مااستقبلوه من المعارف اليونانية والهندية فقد نجح العرب في ذلك نجاحاً عظيماً وفاقوا اليونانيين في تعريب العالم وجعل لغتهم لغة الفكر والفن والسياسة والحياة اليومية .

المعجزة العربية

(القرن التاسع)

لا ريب في ان الفرس كانوا أصلب عــوداً من الشعوب الأخرى أمام سياسة التعريب التي اتخذها الأمويون . كما ان فهمهم للاسلام كان ممتزجاً بكثير من العناصر المجوسية والمزدكية القديمة . ولذلك فقد كانوا يعدون العدة لقلب العرش الاموي ونجحوا في ذلك بالتعاون مع العائلية العباسية من الدوحة الهاشمية. وكان اولَ العباسيين ابو العباس مؤسس الدولة ثم جعفر باني بغداد أعظم مدينة في العالم عهدئذ . وكان يحيط بالخليفة السني حاشية من الشيعة والمزدكية واليهود والمسيحيين ويشرف على تربية ولي عهده عنصر فارسي .

اما بغداد فلم تكد ترمز الى العالم العباسي حتى انتشرت ريح ثقافية قلبت القواعد رأساً على عقب ، فتوالت الكتب المنقولة الى العربية ، وظهر ملوكٌ متحمسون لقضيتي الفكر والفن وعلى رأس هؤلاء هرون الرشيد ثم ولده المأمون .

اما هرون فقد تأثر رغم عروبيته الصميمية بالفكر اليوناني والفلسفة الهلينية فأمر بنقل مؤلفات هيبوقراط وأرسطو وجالينوس الى اللغة العربية . وأشاع في فضاء امبراطوريته خميرة فكرية دفعت باعلام العلم الطبيعي والرياضيات والفلك والاجتماع والفلسفة الى الظهور . كما نظم في قصره حلقات يومية لمناقشة مختلف الموضوعات التي كان يثيرها العلماء المتأثرون بالروح البيزنطية ، او الخاضعون للثقافة الهندية فتوفرت بذلك إمكانية عظيمة لتلقيح هذين العالمين أحدهما بالآخر .

وأما المأمون فحدثْ عنه ولا حرج . فهو قوة خلاقة دفعت بالعبقرية العربية الى الامام فنمت وأورقت ثم أزهرت وأثمرت ثمراً جنياً . نظم البعوث لاستجلاب الكتب وشجع العلماء على الدراسة والبحث وجعل من دار الحكمة مصدراً لكل جديد ومبتكر .

والحقيقة ان هذه الحماسة التي حطمت قيود كل عصبية رجعية، لم تكن بتأثير المأمون وهرون الرشيد وحدهما . إذ لو وجد هذان الملكان عند الرومانيين لما استطاعا فعل شيء أو بناء أية حركة علمية خالدة كما عجز «بلين» قبلها . لان الملوك يمثلون عادة روح الامة . واذا عرف التاريخ أباطرة متوحشين دمويين عند الرومان فلأن الشعب الروماني لم يكن يجدُ متعته إلا في مشاهد سفك الدماء والخزي .

فروحه هي التي تقمصت هؤلاء الملوك وشجعتهم على مقارفة الآثام والقيام باعمال القسوة . واذا كان من المنطق القول بان المعجزة اليونانية كانت في مزج وتركيب المعارف المصرية والكلدانية فان معجزة العرب هي في المزج بين الثقافتين الهندية واليونانية نفسها .

انتشار المعارف العربية ونجاحها

(القرن العاشر)

واذا كان الخلفاء العباسيون قد نجحوا في تحصيل هذا المجد الثقافي الرائع فقد أخفقوا في تكوين الوحــدة السياسية لامبراطوريتهم العتيدة . وقد صرفتهم حماستهم للفكرة عن

تكوين الجيوش الضخمة لمقاتلة الخارجين بعنف شديد كعنف الملوك الرومانيين القدماء . وبذلك تفتتت الامبراطورية فنجمت إمارات مختلفة في الشرق والغرب : الامويون في الاندلس والادريسيون في مراكش والاغالبة في تونس والفاطميون في القيروان فالقاهرة والحمدانيون وغيرهم . ثم خسر الخلفاء سيطرتهم السياسية في حاضرتهم نفسها – بغداد – عندما جاء البويهيون يحتلونها ويقيمون أنفسهم حكاماً عليها .

هذا التفتت السياسي لم يحدث تفتتاً ثقافياً بل كان على الضد من ذلك وسيلة الى تحرير رجال الفكر ، فانطلقت العقول من قيودها ، ونجمت المدارس في كل مكان ، وبقيت بغداد عاصمة العلم بعد أن كانت عاصمة السياسة .

ظهر في هذه الفترة فلاسفة خالدون كالفارابي وابن سينا ، وفيزيائيون عباقرة كابن الهيثم البصري ، وانتشرت المكتبات في قرطبة والقاهرة وحلب وبخارى و ، أصبحت اللغة العربية لغة عالمية يستعملها الرهبان المسيحيون الغربيون الذين استغنى بعضهم عن اللاتينية ، لغتهم الدينية .

والخلاصة ان اللغة والثقافة العربيتين قد بلغتا في هذا القرن قمة التطور والنمو ودفعتا البيزنطيين الى استجماع قواهم لاحياء تراثهم القديم ، ولولا تدخل الكنيسة ومعارضتها لهذه الحركة لكسب البيزنطيون من ذلك فائدة عميمة .

انهيار العرب

(في القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر)

بلغ العرب في نموهم الحضاري مبلغاً لم يبلغه قبلهم شعب من شعوب العالم القديم حتى الشعب اليوناني نفسه . وقد حدث ذلك إبان القرون الأربعة الاولى التي تلت هجرة النبي العربي . ولكن غزوات الغرب المسيحي والشرق التركي لم تعتم ان فتحت هوة سحيقة امام القافلة العربية الصاعدة . وقد تمثل الشرق التركي بادىء الامر بالدولة الغزنوية التي أسسها محمود الغزنوي وحاول في عاصمة دولته ، غزنة ، إقامة نهضة علمية كان من أعلامها الفردوسي والبيروني . ولكن علاقة هذين العلمين به تدل على سوء تفهمه لحرية البحث العلمي وميله الى الاضطهاد وتغليب العصبية اللاهوتية على الانفتاحية الفكرية .

وتمثل الشرق التركي بدولة السلجوقيين التي امتدت الى بغداد ثم انتزعت القدس من الخليفة الفاطمي ، ووصلت جيوشها الى ساحل البحر المتوسط الذي غمس فيه السلطان السلجوقي سيفه في حفل رائع عظيم . ولم يكن السلجوقيون اكثر استعداداً لتحرير العقل العربي الاسلامي من أسلافهم الغزنويين بل بالغوا في الضغط على الحريات جميعاً وحاولوا مضايقة الحجاج المسيحيين – الذين كانوا يقصدون المسجد الاقصى – بشتى أنواع المضايقات .

اما الغرب المسيحي فقد قام بادىء الامر بهجوم متردد وفي دفعات قليلة تبعاً للظروف السياسية في العالم العربي . وقد سجل أول تقدم عسكري كاسح له في إسبانيا العربية عندما احتل مدينة طليطلة العظيمة . ولولا تدخل المرابطين الصحراويين الذين استنجد بهم الاندلسيون ثم الموحدين البربر لانتهت اسبانيا العربية في وقت مبكر .

ثم اتسع نطاق هذا الهجوم اتساعاً شديداً بتأثير البابا الفرنسي اوربان الثاني ، فانطلقت الخيالة الغربية المدرعة تكتسح أمامها الخيالة العربية الخفيفة ، وسقطت جزائر البحر المتوسط من سردينية الى صقلية كما جرؤت جحافل الغربيين على تحدي التونسيين في شمالي افريقيا وإنقاذ الاسرى المسيحيين فيها . واتسع الهجوم فاحتلت سواحل سوريا وتوغل الغرب المسيحي في بعض مناطقها الداخلية . وقد كان موقف العرب من هذه القوى المهاجمة موقف المدافع الذي فقد حيويته وثقته بنفسه .

ومن الممكن ان نعتبر التفسخ الداخلي في صفوف الامة العربية سبباً آخر لفشل العرب في رسالتهم الحضارية . وقد ظهرت بوادر هذا التفسخ في القرون الاولى من حركتهم الصاعدة البناءة . اما العامل الاساسي الذي أحدث انهيار العرب الداخلي فهو ضعف الحماسة الدينية تلك الحماسة التي تعب النبي في تكوينها وإثارتها تعباً شديداً . وقد تحولت الحرب المقدسة التي شنها انصار الرسول بعد قرنين من الزمان حرباً همّ اصحابها جمع الثروات واختزان الاموال ، فدخل الناس في الدين أفواجاً تدفعهم في كثير من الاحوال أطماع وشهوات .

يقظة الغرب

(القرنان الثاني عشر والثالث عشر)

توقفت الجهود التي بذلها العرب لانجاح ونشر المعرفة الانسانية في أواخر القرن الثالث عشر الميلاد . وبتوقف هؤلاء توقف الهنود والفرس وشعوب العالم الشرقي كله .

أما الغربيون الذين لم ينجحوا في هضم الحضارة اليونانية لفشل الرومانيين القدماء أنفسهم في فهمها وهضمها ، فقد بقوا في حالة شبه بربرية يتحملون غزوات الهون والفيكينج حتى القرن

العاشر الميلادي . ثم سجل هذا القرن تراجع الهون وذوبان الفيكينج في الجماهير الغربية .

وتحول الغربيون الى الهجوم بعد ان استجمعوا قواهم ونظموا صفوفهم، فانطلقوا يغزون العالم العربي عسكرياً كما يغزونه طلاباً للعلم ومريدين للمعرفة . فكوّنوا على غرار العرب جامعات في إسبانيا وصقلية وإيطاليا وتجندت بعوثهم لنقل التراث العربي الى اللغة اللاتينية .

وكما تراجع الهلينيون امام اليقظات الوطنية في الشرق قبل المسيح وتركوا وراءهم أرضاً أخصبتها عبقريتهم ، كذلك اضطر العرب الى التراجع تاركين وراءهم إرثاً عظيما وروحاً علميـة ضخمة مثيرة للاعجاب والدهشة. ولم يكد القرنان الثاني عشر والثالث عشر ينتهيان حتى لمعت في الافق الغربي إسماء كبار المترجمين واكبّ مواطنوهم اللاتين على درس الفارابي وابن سينا والخوارزمي وغيرهم من عباقرة الشرق العربي ومنتجيهم الخالدين . واشترك في هذا النشاط الايطاليون والفرنسيون عبر جبال البرانس وتبودلت الابحاث بين عكا وباريس وانبثقت بذلك نهضة عامة تناولت الفنون والفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية .

خاتمة

إذا كانت القرون الوسطى في نظر المربين الغربيين المحدثين معتّمة، باردة، رجعية بالنسبة للعالم اليوناني القديم، فلأن المؤرخين الغربيين أنفسهم حاولوا تضييق آفاقهم في البحث واعتبار القرون الوسطى قروناً غربية لا شرقية. فشوهوا بذلك التاريخ وقفزوا من قسطنطين البيزنطي الى الحروب الصليبية وأهملوا أمجاد ثمانية قرون من روائع الشرق العربي .

ومن المنطق والاخلاص في البحث ان نعترف لهؤلاء العرب بامجادهم الماضية، ونحن في إبان محاولاتنا الناجحة لتحرير العقل العربي ودفعه في قافلة الحضارة الانسانية العامة . وبناء على ذلك لا يجوز لنا إهمال هذا الجزء من تاريخ الانسانية في برامجنا التعليمية .

ورداً على زعم الزاعمين بان الانتاج العربي الاسلامي لم يكن في كثير من الاحوال من صنع العرب أنفسهم نقول : ان كثيراً جداً من العباقرة اليونانيين لم يكونوا هيلينيين . فقد كان منهم الليدي والمقدوني والسوري والمصري . وقد سمينا هؤلاء يوناناً لانهم كانوا ينتسبون الى الحضارة اليونانية ويستعملون لغتها . فمجرد تفكير الخوارزمي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون بالعربية حجة قائمة لاعتبار القرون الوسطى قروناً عربية مقابل الاسم الذي نطلقه على العالم اليوناني القديم ، هذا الاسم الذي يستعمل للدلالة على الحضارة اليونانية.

رمضان لاوند

الموج والشاطئ

وعدت «الآداب» بأن تفسح صدرها للناشئين من الادباء، هؤلاء الذين لا تحتاج مواهبهم لكي تتفتح وتنتج بابداع الا الى نغمة حدْو، ونفحة تشجيع . وها نحن نقدم اليوم احد هؤلاء، علي بدّور، الذي ألقى البريد الينا رسالة منه يحمل قلمه وتفكيره وعاطفته فيها وعوداً كثيرة خيّرة . وإن كان لنا ان نوجه، فنحن ندعوه الى ان يركز فكره في موضوع واحد، لا ان يبعثره في موضوعات كثيرة .

ه

* ديموقراطية الوقت الحاضر، هي التي تهيء للماكر ثوباً من ثياب القسس السود، وعمامة من عمائم الشيوخ البيض؛ وما اكثر المغرورين بمن لبس السواد وتعمم البياض !

* دائماً وفي كل الأزمان، سيبقى الجهاد للحصول على لقمة شريفة، أضعاف الجهاد للحصول على لقمة ملوثة !

* من ذنوبنا، اننا نسأل الله بكل جوارحنا، رحمته ورضاه، ساعة الشدة والمرض فحسب، وحين نكون في الوضع السويّ، فنحن إما آلهة أو أنصافها.

* حين نبحث عن المثل العليا، قد نجدها في صدور المجرمين، ولكنها احلام . وقد نجدها على حقيقتها لدى الذين نشأوا على الحق، ودرجوا على حب الفضيلة وإيثار العطف، وشبوا رجالاً وهبوا وطنهم الحياة؛ إلا انها تفتقر الى النصاعة والقوة التي نجدها في احلام المجرمين بالحياة الخيّرة .

* ليست العظمة ان تأتي باشياء خارقة للغاية، كأن تنتصر في معركة، أو تكتشف قارة مجهولة، بل العظمة الحقة في دمعة تذرفها لحال انسان ضعيف بحاجة الى معونة وانت لا تستطيع ان تقدمها اليه، وفي بسمة يفترّ بها ثغرك مع الشعاع إذا وجدت ان احلامك لخير الانسانية المعذبة، قد أزهرت وأثمرت .

* تولد البلابل، وتولد معها صورة مرعبة عن الحياة التعيسة في الاقفاص المذهبة . انها الحياة التي اوجدت لكل منا قفصه .

* اذا أردت ان تبدع فمرّغ وجهك بتراب الأرض، لأنني مـــا رأيت اكثر من التواضع سلماً للابداع الحي .

* قد تنام على الطوى اكثر من ليلة ولكن أتظن انك ستفعل ذلك الى الأبد ؟ بئست الحياة حينذاك !!

* هذه القبة الزرقاء بكواكبها اللامعة، كم ألهمت الناس بدائعَ خالدة في الأدب والفن . ولكنها ويا للأسف لم تهدِ إلا القلة إلى الايمان الصحيح بالله .

* ألا يُرثى لحال هذا الحلاق الذي يخدم جميع الناس ولا يستطيع ان يخدم نفسه ؟ ترى إلى أي حد يبدو تعاون البشر ضرورة لا بد منها ؟

* من سامك الذل أشعرك أنك فقير الى الكرامة .

* قد لا نظفر بما نريده، ولكننا لا بد من ان نخرج من معركة الحياة وقد هيأتنا لما هو أقسى من العبر، وأشد من الخيبة!

* الزهد : وردة حمراء على صدر امرأة، تشتهي الدنيـا الصاخبة بعين، وترى المصير الأسود بعين اخرى فترتد، ولكنها تظل تشتهي وتخاف !!

* الشباب والخمر والموسيقى والنساء: قبور مرمرية لأبطال مجهولين، كم يشتهي الأحياء ان يرقدوا فيها إلى الأبد !

* تقدم الانسانية، ليس على خط مستقيم . انه حول دائرة ولذا فلا بد من رجعة إلى حضارة الغاب، بعد بضعة حروب ذرية اخرى، ومن يعش يرَ !!

* كلب الراعي شريك أمين في السراء والضراء. ولقد بقي اكثر الناس غير أمناء، لأن بعضهم لا يريد ان يقتدي بكلب . ويا ليته فعل !!

* الورد على عوده ورد، وفي يدك ورد، وعلى صـــدر الغادة ورد، ولكنه في الفم حشيش طري .

* لن يشاد في يوم ما، قبر لقائد مجهول، لأن القواد آخر من يُقتلون في الحروب الحديثة .

* اين إيثار الانسان من إيثار الوردة التي تترك بعض عطرها في الحذاء الذي يدوسها عن قصد، لا كثمن بل كتذكار لقاء !

* اذا ربحت الكثير تذكر الكفن. وإذا خسرت ماربحته تذكر كيف ولدك وماذا جلبت معك .

* شجرة الصفصاف تقول للنرجسة : يا ليت لي قصرك فتهملني فؤوس الحطابين سنوات أخر . والنرجسة تقول لشجرة الصفصاف : يا ليت لي طولك فلا تدوسني أقدام البشر. وشجرة الصفصاف والنرجسة تقولان معاً : اللهم احمنا من العواصف .

سعادة ...

قصة لغي دوموباسان

ترجمة الآنسة سميرة عزام

كان الوقت أصيلًا قبل ان تتألق عيون المصابيح . . و « الفيلا » تواجـه البحر ، والشمس قـد اختفت بعد ان سحبت ألوانها الحمراء على صفحة السماء . اما « المتوسط » فقد بدا رائعاً ساكناً متألقـاً كطبق من الفضة جديد . وكان حديثنا يـدور حول « الحب » ذلك الموضوع الأزلي الذي شبع من قبلنا حديثاً عنه فما تركوا لنا جديداً نقوله . . والذي سيتحدث عنـه من يخلفوننا فلا ينتهون . . وقد أضفى المكان علينا جـواً من الشاعرية فراحت كلماتنـا تنساب انسياباً رفيقاً وكان لكلمة « الحب » تخرج من فم الرجال عميقة جياشة ومن شفاه النسوة المترفات منغومة رقيقة، سحر انتشت به جنبات الصالون.

هل يعيش الحب طويلًا فلا يقتله الملل والفتور ؟

وقـال بعضنا مؤكداً « نعم » فعـارضتهم « لا » الآخرين . .

وأوردنا الأمثلة، وسقنا البراهـين وتحمس كل لوجهة نظره .. وثارت في نفوس البعض شجون ليس من سبيل الى البوح بها .

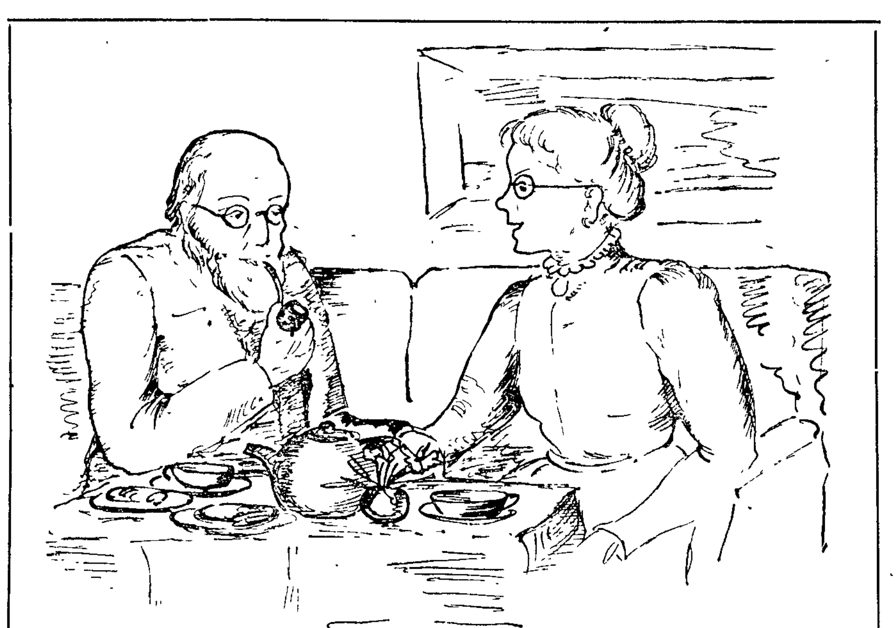
وفجأة قال احدنا وكانت عينـاه مركزتين على الأفق البعيد : « انظروا ». ونظرنا واذا في البحر على مقربة من خط الأفق كتلة رمادية ضخمـة . وانتصبت النسوة واقفات لينظرن هذا الشيء الذي برز فجأة من الصفحة الرائقة .

وقال بعضنا : « هذه جزيرة كورسيكا تبدو هكذا مرتين او ثلاثاً في العام عندما يكون الهواء ساكناً والجو خـلواً من الضباب . . »

وحدقنا جيداً فميزنا قمم جبالها، وظللنا هكذا مذهولين لحظات لهذه الدنيا التي طالعتنا وسيطر علينـا نفس شعور كولمبس عنـدما تبدت له سواحل الدنيا الجديدة .

وهنا تقدم شيخ ممن ظلت شفاههم حتى الساعة مطبقة وقال : « انظروا . . انني أعي من ذكريات هـذه الجزيرة التي برزت لتفحمنا بالبرهان القاطع . . قصة حب سعيد خالد اليكم بها :

قبل أعوام خمسة سافرت الى كورسيكا ، هذه الجزيرة التي قلما نفكر في زيارتها والتي نجهلها رغم انها تتراءى لنا احياناً من ساحل فرنسا الجنوبي .. شأنها الليلة . تصوروا عالماً لا تزال فيه صورة للبدائية الأولى .. سلسلة جبال تفصلها أودية سحيقـة وتغطيها أحراج كثة ، تربة عنواء رغم تلك القرى المتناثرة هنا وهناك . لا ثقافـة ولا مدنية ولا شيء من أسباب الفـن والتطور حتى كأني بالقوم هناك تعوزهم استجابة الانسان الفطرية الى دواعي الابداع ، وكأنما جيرة الجزيرة لايطاليا ايطاليا التي ينطق كل حجر فيها بعظمة الفن، لم تنفع في ان تحرك في اهلها قوة الخلق .



إن الانسان في كورسيكا لا يزال يحيا في بيت لم تلمسه أصابع التشذيب ، ولا تزال تعشش في رأس هذا الانسان معتقدات الأولين ، ولا تزال الصرامة والخشونة بعض صفاته .. ولكنهم – قول الحق – الى جانب ذلك كرماء يحبون الضيف ويهبون صداقتهم كل من يحمل لهم شعوراً من الطيبة .

وهكذا قضيت في الجزيرة شهراً شعرت خلاله بانـني في طرف قصي من العالم ، وقد انقطعت بيني وبينه اسباب الحضارة

فلا فنادق ولا حانات ولا طرق ممهدة معبدة حتى اذا كان الليل، تحتم عليّ ان أطرق اول باب اطلب طعاماً وماء ويحتويني سواد الليل . وفي الصباح أنطلق في سبيلي بعد ان أشد على يد مضيفي الممدودة . وفي ذات ليلة وبعد مسير عشر ساعات وصلت الى مسكن قام منفرداً على حافة الوادي تحيط به الغابات واشجار الكستناء الباسقة القديمة وفي ساحة الكوخ نبتت مزروعات أغلب الظن انها كانت مورد الطعام الوحيد لساكنيه .

وكانت المرأة التي استقبلتني عجوزاً على ثيابها مسحة من اناقة ، على غير شأن الكورسيكيات ، وكان الرجل يجلس الى كرسي من القش فنهض لي ترحيباً ، ثم عاد فجلس دون ان يتفوه بكلمة واحدة وقالت لي العجوز : « اعذره فهو أصم انه في الثانية والثمانين » . .

وكانت تتحدث إلي بلهجة فرنسية اصيلة اثارت دهشتي .

سألتها : أكورسيكية انت ؟

قالت : لا . . ولكنني صرفت هنا مايقرب من خمسين عاماً . .

وانتفضت في ضيق . . كيف استطاعت هذه المرأة ان تصرف من عمرها كل هذه الأعوام في جحر كهذا . .

واقبل بعد قليل طارق جديد من الرعاة يجر وراءه قطيعاً ، فانضم الينا ولم تلبث العجوز ان دعتنا الى طعام كان عبارة عن حساء ثخين من مزيج البطاطس والكرنب والدهن .

وما ان فرغت من طعامي حتى قمت فجلست الى جانب الباب ، وقد لفني شعور موحش كذلك الذي يصيب المسافرين في الأماكن المنعزلة الصامتة فيثير فيهم لوناً من الأسى والحنين . وجلست أتأمل ما حولي وقد تضاءل الوجود العظيم في نفسي فبات صغيراً ، وأحسست بالوحدة التي تلف قلوبنا جميعاً ، وان كنا نخدع نفوسنا بالأمنيات والأحلام التافهة .

وانضمت إليّ العجوز بعد قليل ، ومضت تسألني بدافع الفضول المترسب في أعماق كل بشري :

ــ إذن فأنت قادم من فرنسا ؟

ــ نعم انني مسافر ينشد تغييراً في الجو والمناظر والأشياء .

ــ هل انت باريسي ؟

ــ كلا ، انني من « نانسي »

وشعرت بان المرأة ارتعشت قليلاً حين سمعت عبارتي الأخيرة . . او هكذا خيل إلي . . ورددت المرأة في صوت خفيض بطيء :

- من « نانسي » اذن . .

هنا ظهر الرجل العجوز على الباب وبدا كمن لا يحس بمن حوله شأن الصم . فقالت المرأة :

ــ استمر ، فوجوده او عدمه سيان . . انه لا يسمع . .

وعادت تسأل : ــ لا شك انك تعرف أناساً كثيرين في نانسي ؟

ــ اوه طبعاً ، أكاد أعرفهم فرداً فرداً .

ــ هل تعرف أسرة « سانت الريز ؟ »

ــ اعرفهم جيداً ، كانوا اصدقاء ابي .

ــ ما اسمك ؟

وعرفتها باسمي فحدجتني بامعان ، وعادت تقول بصوت عميق تحركه الذكريات :

ــ اجل ، اجل لقد تذكرت . . وماذا من أمر أسرة بريزمار ؟

– لقد مات افرادها جميعاً .

– حقاً .. وآل سيرمونت هل تعرفهم ؟

– اجل ، لقد كان عميد الاسرة الاخير جزاً لا ..

هنا ارتجفت المرأة تأثراً وانفعالاً ، واعترتها تلك الحالة التي تأخذ بنا جميعاً حين نشعر ان في اعماق نفوسنا شيئاً ما ، يوشك ان يقفز الى شفاهنا .

– نعم هنري دي سيرمونت .. اعرفه جيداً فهو اخي !

ورفعت اليها عينيّ مأخوذاً .. وتحركت في نفسي حوادث قديمة نافضة عنها ركاماً من الصدأ ، وتذكرت قصة الفضيحة التي هزت (اللورين) يوم هربت فتاة جميلة ثرية من أسرة عريقة نبيلة مع « مرشح ضابط » من فرقة الخيالة التي كان والد الفتاة قائداً لها .

وكان الفتى الذي هربت معه وسيماً من ابناء المزارعين ، وكانت الفتاة ترقبه وهو يسير مع فرقته في الرواح والجيئـــة فاحبته .. اما كيف توصلت الى التحدث معه على انفراد ومتى واين كانا يلتقيان وكيف دبرا خطة الهرب ، فهذا ما لم يعرفه احد .

وذات ليلة فرغ الجندي من وظيفته فوافى فتاته في مكان ما ، ثم انطلقا معاً الى مكان مجهول وعبثاً بحث اهلها عنها .. فاعتبروها ميتة..وهأنذا اجدها في هذه البقعة الموحشة البعيدة وبعد خمسين من الاعوام .. فمن يصدق هذا ؟

ورحت اتفحصها وانا اقول مذهولاً :

– تذكرت ، انت مدموزيل سوزان ؟

وهزت رأسها ايجـــاباً ، والتفتت صوب الباب وعيناها سابحتان بالدموع واشارت الى الرجل الشيخ وقالت :

– وذلك « هو » .

ففهمت انها لاتزال حتى الساعة تحبه ذلك الحب القديم الكبير .

سألتها بصوت رفيق : « وهل كنت سعيدة ؟ » وردت عليّ بصوت انبعث من قلبها : « السعادة كلها ؛ كانت سعادتنا كل ما لدينا .. ولم اندم قط »

وعدت ارمقها مشفقاً دهشاً لهذا الحب القوي العميق الذي لا يموت ...

شابة ثرية تعلق بمزارع بسيط فتنبيع الاهل والدنيا وتضرب بحياة القصور وترف الملابس والجواهر والمخادع الغارقة بالعطور والحرير عرض الحائط ، وتتبع فتاها الى اقصى الارض لتأكل خبزه البسيط وتشاركه فراشه الخشن وتسانده في حياته القاسية الجافة ، ثم تظل على حبها ذلك الكبير له . لقد كان هو كل ما شاءته من الحياة .. وكل ما اعطتها الحياة اياه. وكان وحده السعادة التي وشحت حياتها من البداية الى النهاية ولم يكن هناك سعادة اكثر مما اخذت .

ونمت ليلتها في ضيافة الشيخين وانا مؤمن بالسعادة التي تنبع من قلب الانسان .. من ذاته ، من عمق اعماقه .. ولا تشترى قط من اسواق المادة » .

وسكت القاص . وتكلمت احدى السامعات .

قالت : هـــذه امرأة لم تطلب الكثير . . لقد تمنت اشياء محدودة تافهة فنالتها . ولم تكن ذات مطامــــح عريضة .. لعلها حمقاء .

وقاطعتها اخرى في ضيق : حمقاء او غير حمقاء..لقد شربت كاساً لم نذقها نحن !

وساد الصمت من جديد ..

وهناك عند الافق البادي غرقت اشباح كورسيكا في الماء من جديد واختفت عن انظارنا حدود تلك الجزيرة التي أظلّت حباً عظيماً ولعلها لم تظهر الليلة الا لتقطع شكوكنا المتسائلة : هل يعيش الحب طويلاً ولا يموت ؟

سميرة عزام

لبنان

طريق اهل القلم

بقلم بهيج عثمان

لا ريب في ان انشاء جمعية اهل القلم كان في مقدمة الاحداث الأدبية التي تمت في لبنان في العام المنصرم ، وانه لحدث لن تعدو ثمرته واحداً من امرين اثنين :

إما أن يكون نقطة انطلاق للمواهب الفكرية وبداية عهد جديد حافل بكل ما يعيد للحياة الأدبية كرامتها ونشاطها وابتكارها وقوتها واثرها المشع..

وإما أن يكون محاولة تضاف الى مجموعة المحاولات السابقة ، فاذا هي جمعية من الجمعيات ، كان عدد الحاضرين في اجتماعها الاول مئتين ، ثم أصبح في اجتماعها الخامس خمسة عشر ، وإذا هذه الاجتماعات تخلف وراءها رزمة تضم دستور الجمعية وعدداً من الخطب والنداءات ، وبعض وصولات الاشتراك التي لم تسدد بعد !

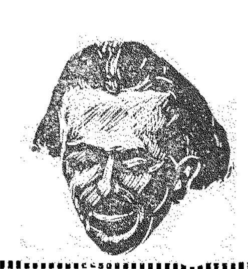
غير ان البوادر الاولى التي ظهرت حتى الآن من اركان هذه الجمعية، في هذه المدة القصيرة ، جعلتني أتفاءل خيراً ، وأؤمن برغبة القائمين عليها في الاستمرار والتعاون ، والكفاح من أجل تحقيق أهداف الجمعية .

ولست أوافق هؤلاء الذين تعجلوا الأمور فكتبوا يهاجمونها هجوما عنيفا، وهي لم تفعل شيئا بعد . إنهم يحاربون أعمالاً لم تظهر ، ومشروعات لم يفكر بها أحد... وقد سكت هؤلاء المهاجمون اخيراً فكان سكوتهم خير هدية قدموها للقراء في مطلع العام الجديد !

تألفت الجمعية ، وانتخبت الاستاذ صلاح لبكي رئيسا لها . وكان اول عمل

مع عمر الانسي

بقلم الدكتور عبد الرحمن اللبان



أقام الرسام اللبناني الاستاذ عمر الانسي معرضاً لرسومه في أوائل هذا الشهر . وقد طلبت «الآداب» الى الدكتور عبدالرحمن اللبان ان يحدث قراءها عن الفنان الانسي بمناسبة هذا المعرض .

عمر الانسي صديق قديم لي ، عرفته فناناً ، وعرفته انساناً ، وحادثته طويلاً في الفنون وفي غير الفنون ، وعندما اكتب عنه اكتب مستنداً الى ايماني بقدرته الفنية وصدق عاطفته واخلاصه للتصوير الذي كرس له كل حياته وغرق فيه ليله ونهاره... انها حقيقة يدركها كل زائر للانسي من الوهلة الاولى .

ولد الانسي ، وهو احد الفنانين القلائل الذين بلغوا بفنهم شأواً محترماً ، في بيروت عام ١٩٠١ وبيروت آنئذ لم تكن سوى بلدة صغيرة ، قليلة الدور قليلة الناس، ترتفع بين منازلها تلال جرداء وتلال مكسوة . فاذا جوها وحياتها قريبان من جو الريف وحياته . وكان لذلك فيما اعتقد بعض أثر في ذوق الانسي وفي فنه ، فهو اكثر ولعاً بالمناظر الطبيعية والاشجار ، وبمناظر الشاطىء ، وتصوير حياة القرى وأهلها ، منه بمناظر المدن وحياتها الصاخبة المشوشة واضطراب الالوان فيها وتضاربها على الشكل الذي نألفه في الوقت الحاضر ... وقد زاد في حبه لهذه « الرومانتية الطبيعية » — اذا صح التعبير — انه انتقل في عام ١٩٢١ من بيروت الى الأردن حيث بقي خمسة اعوام يدرس حياة البادية ويصور مناظرها بصدق واخلاص واضح . وما انفك الانسي يولي هذه الصبغة عناية خاصة عند اختياره للمناظر واخراجها. والذين يعرفونه عن قرب يدركون مبلغ تأثره وكدره لرؤية دور غريبة الهندسة ، شاذة الشكل ترتفع بكل وقاحة واستهتار على شاطىء مدينته الجميلة ، فتطغى على رباها ، وتزيل بدائية طبيعتها الطاهرة ، فيدفعه هذا التذمر المؤلم الى اصطياد مواضيعه خارج بيروت في اكثر الاحيان، مناظر طبيعية منطلقة : من حقول واشجار ودور قديمة.

وفي عام ١٩٢٧ رحل الانسي الى باريس ، فظل فيها ثلاث سنوات يدرس الرسم والتلوين . وعاد منها محافظاً على روحه الشرقية ، وعلى صفاته الفنية التي حملها معه اليها ... هذه وقائع اعتبرها شخصيا مهمة، فاننا نلاحظ ان معظم الفنانين الذين يؤمون باريس ويلتحقون بمدارسها يفقدون شخصيتهم ويخسرون صفاتهم المميزة ، ثم يعودون افراداً في مدرسة خاصة او اتباعاً لمذهب معين . اما الانسي فقد بقي على صفاته ، فصان ذاته، فلا هو فرد في مدرسة ولا تابع في مذهب، بل مخلص للفن حيث وجده وبغض النظر عن كل اعتبار آخر ، يتذوق الجديد ويتذوق القديم، اذا كان فيه فن وجودة .

وما انقطع الانسي عن الدرس والبحث والمحاولات ابداً، فهو اليوم اكثر اغراقاً فيها من ذي قبل . ويرى الزائر لمرسمه عدداً وافراً من هذه الدراسات التي يرجو من ورائها الوصول الى كنه الموضوع وصلبه ، وفهم جزئياته وألوانه وانواره وظلاله وما الى ذلك من عناصر الفن وخصائص التصوير . ولقد اقنعتني تجارب الانسي ودراساته هذه بانه من الفنانين الذين لا يقدمون على عمل فني الا اذا آنسوا في نفسهم عنه رضى ، وله محبة وشغفاً ، فلا يبدأ فيه الا اذا تأثر به واطمأن الى معرفته له. ولكم ألفيته ممعناً في درس احد المواضيع واختياره ، فيكثر من ذلك ويطيل حتى يخيل الي انه لا يكتفي منها ولا ينتهي ...

في مرسمه مجموعات من الرسوم بالقلم او بالحبر لا تحصى . فيها هنا رسوم ضمنها جرأة فنية بعيدة ، واعتداداً بقدرته بيناً في خطوطها ، فيها ما يحسه من حب للبدو وحياتهم وللبدويات وقناعتهن ...

النشاط الثقافي في العالم العربي

قام به أن وجه رسالة الى الدكتور سليم حيدر وزير التربية الوطنية يطلب فيها تخصيص ثلاثمائة الف ليرة لبنانية في ميزانية الحكومة عن عام ١٩٥٣ لأهل القلم كي تنفقها في إنشاء دار تكون ملتقى الادباء ، وفي توزيع جوائز لتشجيع التأليف وإصدار مجلة وشراء كتب .

وخوفا من ان يظن بعضهم أن في منحة الحكومة هذه قيداً للادب وربطاً له في ركاب الحكومة، اوضح الاستاذ لبكي في رسالته للوزير ان الجمعية « لن تقبل معونة الدولة لقاء أي قيد بل ترغب في ان تبقى مستقلة في الانفاق، كما هي مستقلة بكيانها عن الدولة » .

فاذا وافقت الحكومة على مساعدة الجمعية، واذا تركت لها حرية التصرف، واذا واصل القيمون عليها إشرافهم في صدق واخلاص ، فاننا على مثل اليقين من أن ثمرات هذه المؤسسة ستكون خيراً وفيراً على الحياة الأدبية في لبنان، وانقاذاً للانتاج الادبي من ازمته المستفحلة وإنقاذاً للمواهب الناشئة من ان تطمس وتذوي وتموت.

غير ان ثمت قضايا مستعجلة لا تحتاج إلى مال ، ولا تحتمل تريثا ، ومن الواجب ان تتوجه اليها عناية الجمعية قبل ان تنتظر تصديق ميزانية الحكومة...

وفي مقدمة هذه القضايا ، قضية انتقال الكتب بين البلاد العربية ، فهل يعلم القراء بل هل يعلم أركان اهل القلم ان الكتب لا تنتقل بين لبنان وسورية إلا بجوازات مرور ، أي انها اخطر من الاشخاص الذين يعفون من الجوازات... فالكتب لا يجوز ان تنتقل من لبنان إلى سورية إلا بعد الحصول على رخصة استيراد تأخذ من الوقت والجهد شيئا كثيراً.

وهل يعلم القراء ان « الآداب» لا تدخل إلى مصر إلا بعد ان تحصل شركة التوزيع المصرية على إذن استيراد من وزارة المالية المصرية ؟..

اننا نطلب ، ونرجو من أهل القلم ان يطلبوا معنا ، الى الجامعة العربية ان لا تبحث في إلغاء الجوازات بين البلاد العربية قبل الغاء هذه الأسوار

وهنالك غيرها دون فيها حياة غزالين او ثلاثة رعاها حيناً من الزمن، فهي في جلوس واطمئنان، وهي في ذعر ويقظة ، فيها رقة وطلاوة ، وفيها رشاقة وخفة وكبرياء ..

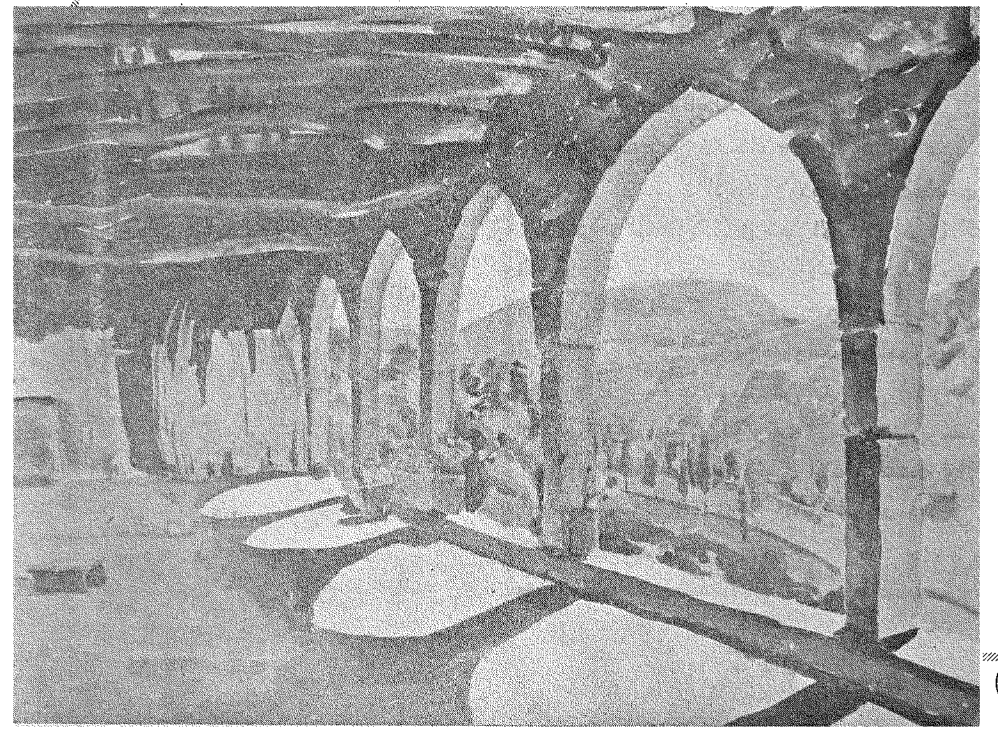
الا انني لا أجد دليلا على هذه الروح الدراسية عند الانسي اصدق من مجموعتين، واحدة بالألوان المائية للصخور الجبلية ، واخرى بالألوان الزيتية لمنظر طبيعي واحد درس فيه الجو والتبدلات التي تطرأ عليه .

صور في المجموعة الاولى الصخور مرة بعد مرة ، وغايته ان يعبر عما تثيره في نفسه من مشاعر واحاسيس، فألف أجزاءها تأليفاً شعريا بناه على الانوار وانعكاساتها وهي تتساقط متكسرة فوق الحجارة الناتئة حينا والمختبئة حينا آخر ، تكسراً يكسبها جواً مرحا زاهيا ، ورتبها في بناء هندسي رائع يكاد يحرك في نفسك شعوراً كالذي تحركه فيها رؤية هيكل ضخم او معبد شاهق غريب ...

وأما المجموعة الثانية فكانت غايته منها ان يصل الى درس الانوار وأثرها في الالوان والجو ساعة بعد ساعة . فواحدة من لوحاتها تمثل الصباح ، وهي لوحة هادئة تتثاءب اشجارها وقد خضل جوها ندى الليل المترافع ورطبه... واخرى في رابعة النهار دافئة نشيطة.. وثالثة عند المساء وقد احمرت بقية من شعاع هجرته الشمس عند اطراف الغصون، وتوجت به رؤوس الاشجار المنهوكة، وانتشر في الجو غموض الغسق الكئيب.. ولوحة اخرى تمثل الشتاء ، علا الطبيعة فيها صدأ حزين.. فابيضت من الجبال قممها ، وتعرت منها السفوح.. ولوحة ملبدة، مكفهرة ، وتكاثفت فيها الغيوم قبيل العاصفة ، تدور بالقمم التائهة وتجثو على صدر الطبيعة مظلمة مثاقلة ...

ولقد يثير فينا العجب والدهشة ان نرى واحداً كالانسي، ينكب على مثل هذه المحاولات والدراسات والبحوث ! ولكن الفنان الحق فقط — على ما أرى — يقدم على مثل هذه الاعمال في مثل هذا العهد من حياته ، ولا يفعل ذلك الا توسيعا لعواطفه ومشاعره ، وارهافا لذوقه وحسه، وتنمية لخبرته ومعرفته.. فهو يدرك قيمة الدروس المتواصلة ويدرك حاجته اليها يوما بعد يوم .. فغاية الفنان الرفيع بعد كل شيء ان يفهم الطبيعة والحياة بعد درس وخبرة، ثم ينقل الينا ما عرفه عنها وشعر به تجاهها بطرقه الخاصة وأساليبه التي ارتاض عليها.. انه الوسيط بينها وبين الناس، فكلما اتسعت معرفته بها ونمت ، تنوعت اعماله وازدادت قوة وصدقا ...

هذه عجالة مقتضبة للحياة الفنية عند عمر الانسي. ولا اجد مهربا من ان اشير هنا الى انه مهما كتب احدنا عن الفن فهو يخفق اذا توخى الكمال او طلبه .. فان نتذوق الفن كما يجب إلا برؤيته ودرسه عن كثب، والاتصال به اتصالاً مباشراً مستمراً.. فالى ان تتاح لنا المناسبات الكفيلة بتأمين مثل هذا، سيظل ما نكتبه عن الفنون — وخصوصا التصوير والنحت — من الامور الخاصة، والآراء المحدودة .



القناطر اللبنانية (تلوين مائي لعمر الأنسي)

النشاط الثقافي في العالم العربي

والسدود التي تقام عند جمارك الحدود في وجه الكتاب العربي والمجلات الأدبية !

وقضية اخرى ، هي قضية الملكية الأدبية . لقد ظهرت في لبنان عدة اعتداءات نشرية ، فغزا مؤلفون مؤلفات غيرهم ، وانتحلوا صفحات منها او اقتبسوا نظريات ومناهج لغيرهم ، بل تجرأت بعض دور النشر في العالم العربي ، على ان تطبع كتبا برمتها لمؤلفين احياء دون استئذانهم ، وان تضعها في الاسواق يتداولها القراء... ويقرأها المؤلف نفسه كسائر القراء...

والذي نعلمه ان مصر تدرس في هذه الايام مشروعا لحماية الملكية الأدبية ، فهل تسعى جمعية اهل القلم جدياً فتساهم في الدفاع عن حقوق المؤلفين، وتضع مشروعا يقي الادباء شر لصوص الفكر ، وتقدم هذا المشروع الى الحكومة لتقدمه هذه بدورها الى الجامعة العربية لدراسته والموافقة عليه ؟

وشيء ثالث أحب ان تلتفت اليه جمعية اهل القلم وتسعى لتحقيقه : ذلك هو إقامة عيد سنوي للكتاب.

لكل شيء في لبنان عيد سنوي ، فهل اعتبرنا الكتاب شجرة سنديان فجعلنا له يوما يحتفل فيه طلاب المدارس وشباب البلاد ورجال الدولة كما يحتفلون بيوم الشجرة، وأقمنا في هذا اليوم معرضاً يطلع فيه الزائرون على أحدث ما أخرجته المطبعة في لبنان...

ونريد من أهل القلم أشياء كثيرة ، ولكننا لن نكلفها فوق طاقتها ... فحسبنا ان نشير الى هذه الامور التي تعتبر لحياتنا الأدبية اكثرها إلحاحاً وأوفرها فائدة وأقلها نفقات، وأيسرها تنفيذاً ..

نريد حرية المرور للكتاب العربي ،

ونريد حراسته من غزو السارقين ،

ونريد ان نحتفل به كل عام كريماً عزيزاً حراً .

هذه هي الطريق التي ينبغي ان يشقها اهل القلم لبلوغ رسالتهم ، ونحن وراءهم في شق الطريق وفي تحقيق الرسالة.

بهيج عثمان

العراق

تأخر الانتاج الفكري في العراق

للدكتور صالح احمد العلي

●

لعل أبرز ما يلاحظه المرء اليوم في العراق هو طغيان نتاج البلاد العربية ، وخاصة مصر ، على سوق الكتب العراقية؛ ومع أن هذا أفاد العراقيين باطلاعهم على انتاج عربي لقوم قطعوا شوطاً بعيداً في الثقافة وسبقوا في أخذ ثمار الفكر العربي فضلاً عن حراستهم لتراث العرب والاسلام ، فان هذا لم يخل من مآخذ : من ذلك ان معظم الانتاج الفكري المصري يبدو عليه التسرع في اصدار الاحكام ، وبعض الابتعاد عن الدقة العلمية ، وطغيان المادية والكمية على المثالية والنوعية ، واهتمام بنواح فكرية معينة او تمجيد مثل سياسية وحضارية قد لا نشاركهم في تقديرها ، يضاف الى ذلك اهتمامهم البين في البحث عن مصر وما يتعلق بها، واغفال واضح لشؤون البلاد العربية الاخرى مع ان واجبنا القومي يقضي علينا معرفة تفصيلية لبلادنا ، مع عدم اغفال معرفة احوال البلاد الاخرى . فمن مصلحتنا الخاصة ، ومن مصلحة البلاد العربية والانسانية اذاً ان يساهم ابناء كل قطر في الانتاج الفكري ، دون ان يقتصروا على انتاج بلد واحد أو قطر واحد .

ولعل من أهم اسباب تأخر العراق في الانتاج الفكري بالنسبة لمصر، هو ان العراق كان معرضاً لكثير من الغزوات والهجمات الاعجمية ، سواء في عهد المغول او الصفويين، ممن لم يكن لهم معرفة بالثقافة العربية او تقدير لها ، وقد أدت هذه الهجمات التي كان العراق أهم ساحاتها الى اضطراب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والى خمود المعاهد التعليمية ونقص العلماء وندرة الانتاج الفكري، هذا الى ازدياد الهيمنة العسكرية على البلاد في سبيل صد الهجمات والدفاع . اما مصر فكانت في حالة هدوء نسبي، فلم تحدث ضدها غارات او غزوات خارجية منذ عهد الصليبيين ، كما انها قلما ساهمت في الحروب .

ثم ان الموقع الجغرافي للعراق جعله منعزلاً نسبياً ، ولم يكن له مع الغرب الا اتصال ضئيل مقتصر في الغالب على بعض الوكالات التجارية القائمة في المدن الرئيسية او على بعض البعثات التبشيرية والهيئات الدينية التي اقامت لها بعض الاديرة أو المدارس في أماكن محدودة؛ وكان نشاطها الضئيل منحصراً في عدد قليل من السكان وخاصة النصارى. وهذا الوضع يختلف تماماً عن الاحوال في لبنان ومصر وفلسطين التي ساعدها موقعها على البحر المتوسط في الاتصال ببقية الدول الاوربية . ومن المعلوم ان الحركة الفكرية اكثر ما تنشط نتيجة تقابل الثقافات المتباينة المؤدي الى المناقشات والى التفكير في تقدير قيمها ، والى توسيع افق النظر؛ واني اعتقد ان الثقافات الاجنبية في تحديها لثقافات البلاد الاصيلة ، قد تكون اكبر أثراً في الحياة الفكرية وفي اظهار قيم ثقافتنا الاصيلة ، من قيمة الثقافة الاجنبية

نشاط الصحافة الادبية

تميز مطلع هذا العام بنشاط ظاهر للصحافة الادبية في مختلف البلاد العربية . وهذه حركة مباركة من شأنها ان تبث دما جديداً في عروق الادب الراكد ، فتحييه لعهد جديد .

فقد تجددت الزميلة المصرية «الرسالة» وعاد الى التحرير فيها عناصر ادبية طيبة نأمل ان تعود بهذه المجلة الى سابق عهدها الزاهر. وعادت الى جانبها مجلة «الرواية» التي كان لصدورها منذ سنوات صدى بعيد في الاوساط الادبية القصصية .

كما ان الزميلة المصرية «الثقافة» دخلت عهداً جديداً من تاريخها يحمل طابع الابتكار والحيوية والشباب ويحاول ان ينتج ادبا حيا متفاعلاً مع المجتمع .

وأصدرت الزميلة «الكتاب» عدداً ممتازاً عن حركات التحرير . كما أصدرت الزميلة الاردنية « القلم الجديد » عدداً ممتازاً عن « نهضة الأدب في ضفتي الاردن» حوى كثيراً من النتاج الادبي القيم . وكان العدد الاخير من الزميلة الحلبية «الحديث» خاصا بذكرى مرور خمسين سنة على وفاة المغفور له عبدالرحمن الكواكبي، المجاهد والمفكر السوري الكبير .

وأعلنت الزميلة «الأديب» عن عدد خاص تصدره قريباً عن «الأدب العربي الحديث» باشراف الاستاذ محمد يوسف نجم .

و«الآداب» تحيي هذه الحركة الادبية الناشطة في الزميلات الكبرى وترجو ان تتابع نشاطها المحمود في حمل رسالة الادب الواعي .

النشـاط الثقـافي في العـالـم العـربي

ذاتها . ومن الطبيعي ان انعزال العراق قد حرمه من تحدي الثقافات الاجنبية فزاد من عوامل ركوده وسباته.

واذ كان تأثير الحضارات الأجنبية عظيما في اليقظة الفكرية، فان مصر كانت أسبق من غيرها الى زيادة الاحتكاك والتماس بالغرب ، اذ أن ذلك بدأ فيها على نطاق واسع منذ عهد محمد علي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم عقبها لبنان . أما العراق فلم يبدأ نهضته الفكرية حتى العقد الثالث من القرن العشرين؛ وبذلك كان لمصر وقت كاف للتقدم الفكري بينما لم يتوفر للعراق مثل هذا الوقت .

ثم ان امكانيات العراق المادية محدودة ، وخاصة بالنسبة الى مصر التي يبلغ سكانها اربعة أضعاف سكان العراق، فضلاً عن ثروتها المادية العظيمة ، وكثرة مثريها ، مما ساعد على انشاء مؤسسات ثقافية كبيرة ، ولا أدل على ذلك من أن فيها اليوم ست جامعات تضم عشرات الألوف من الطلبة ، وكذلك عدد كبير من المعاهد الاختصاصية ، هذا فضلاً عن المئات ، بل الالوف الذين يدرسون في المعاهد الغربية؛ ثم ان الامكانيات المادية العظيمة أتاحت لمصر صرف مبالغ ضخمة على مؤسساتها الثقافية ؛ فميزانية جامعة القاهرة تبلغ أربعة امثال ما يصرف على كافة المعاهد العالية في العراق ، ومخصصات المجلات في هذه الجامعة تبلغ ثلاثة أمثال ما يصرف على الكتب والمجلات في كافة الكليات العراقية ؛ كما ان مكتبة جامعة القاهرة فيها خمسة أضعاف عدد الكتب الموجودة في كافة الكليات ببغداد؛ اما دار الكتب المصرية ففيها اكثر من خمسة وثلاثين ضعف الكتب الموجودة في المكتبة العامة ببغداد؛ ويمكن ان يقال مثل هذا عن المكتبات العديدة الاخرى الملحقة ببعض المعاهد أو الجمعيات العلمية التي لا يتوفر مثلها في العراق . ولا ريب ان هذا من شأنه ان يساعد الباحثين في مصر ، ويوفر لهم حاجاتهم من كتب وأدوات ، ويعين على اعداد عدد كبير من المنتجين، تكون نسبة النابهين منهم اكبر مما يستطيع العراق توفيره .

إن السبق الزمني لنهضة مصر، وتوفر امكانياتها المادية ، وكثرة عدد المتعلمين فيها ، قد أدى الى انشاء مؤسسات لنشر الكتب وتوزيعها في وقت مبكر في مصر، فطابعها لما تزل تمتاز بحسن حروفها ورخص أسعارها ، ودور النشر قد امتد نشاطها الى بقية الاقطار التي يستخدم مثقفوها العربية ؛ الأمر الذي أدى الى ان يكون للكتاب المطبوع في مصر مجال التوزيع والبيع في بلاد واسعة وأقطار كثيرة . أما العراق فلم تزل مطابعه قليلة وحروفها رديئة ، وأعمالها بطيئة، هذا إلى أن الناشرين ليست لديهم خبرة واسعة ونشاطهم مقصور على العراق، وبذلك قلما يصل الكتاب المطبوع في العراق الى بقية البلاد ؛ مما يحد من بيعه ويؤدي الى أن يكون طبع الكتاب مشروعاً فيه كثير من المجازفة.

كل هذه العوامل أدت إلى سيادة الكتاب المصري وسيطرته على الأسواق لدرجة هائلة ، حتى لقد كاد البعض يظن أن هذا يرجع الى نقص قابليات العراقيين وكفاءتهم ، والى بعض التشاؤم وروح اليأس ؛ مع أن التاريخ يظهر بوضوح عدم صحة هذه الظنون ؛ إذ أن العراقيين استطاعوا أن يشاركوا بقسط وافر من الحركة الفكرية سواء في العهود البابلية والأشورية أو في العصر الاسلامي حيث كانت بغداد ، خاصة في القرون العشرة الاولى من الهجرة ، المركز الأول للانتاج الفكري الاسلامي .

إن تأخر الانتاج الفكري في العراق لا يرجع فيما أرى الى ضعف قابلية العراقيين أو قلة تدريبهم ، لأن التاريخ – كما قلت – يظهر أن لهم القابلية على الانتاج الفكري ؛ كما أن عدداً غير قليل منهم قد تدرب على البحث العلمي تدرباً طيباً، وخاصة ممن درسوا في الغرب ؛ ثم ان الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العراق تثير كثيراً من القضايا والامور الجديرة بالبحث.

ولكن قلة عدد القراء ، وسوء الأحوال المادية هي من أهم أسباب قلة الإنتاج الفكري وذلك لأن العراق قطر فقير بالسكان، والأمية فيه متفشية ، وعدد من حصل على التعليم العالي قليل ، كما أن النظام التعليمي قد أصابه في السنوات الاخيرة شيء من الوهن . فلم ينل الطلبة العناية الكافية ، ولم يعودوا القراءة الجدية ، أو الاجتهاد الفكري . كما أن الاساتذة ، وهم أهم دعائم الانتاج الفكري، يأخذون رواتب ضئيلة بالنسبة لتكاليف الحياة، فلا يستطيعون سد حاجاتهم الا بأخذ محاضرات اضافية تستنزف قواهم ، وتستنفد جهودهم . هذا الى أنهم في الاحوال الحاضرة لا يستطيعون نشر ما ينتجون ما لم يحصلوا على مساعدات مالية من الحكومة او المؤسسات . ومن المؤسف أن نقول إن الحكومة العراقية حتى الآن لم تول هذا الامر العناية الكافية ، ولم تخصص لتشجيع الانتاج العلمي المبالغ الوافية مما زاد في تأخر الانتاج . ولكن هناك صيحات تقوم بين آونة واخرى من العدد المتزايد ممن يتألمون من هذه الاوضاع ويرون اخطارها على مستقبل البلاد ، ولا بد أن تؤتي هذه الدعاءات ثمارها في المستقبل، فتحمل الحكومة على الاهتمام بهذه الناحية ، وتساعد على أن يحتل الكتاب العراقي مكانته بين الكتب العربية .

في المملكة الاردنية الهاشمية

● طلبت وزارة الخارجية السورية من وزارة الخارجية الاردنية تزويدها بمقالات مختلفة عن التقدم الثقافي والاجتماعي في الاردن لتتولى اذاعتها من محطة الاذاعة السورية .

● تأسست في عمان مؤخراً «ندوة الفن» وهي تعنى بشؤون الفنون في المملكة الاردنية الهاشمية . وقد انتسب اليها عدد كبير من هواة الرسم والنحت والتصوير . وعقدت هذه الندوة اجتماعاً في قاعة معهد النهضة العلمي بعمان قررت فيه اقامة معرض في اوائل شهر نيسان القادم وافساح المجال للطلاب والطالبات للاشتراك في هذا المعرض ووضع جوائز لهم تشجيعاً للروح الفني، ودعوة بعض الفنانين السوريين واللبنانيين لالقاء محاضرات حول الفن .

● تقدم عدد من الطلاب بطلب الى الحكومة للسماح لهم بتأليف « رابطة الطلبة » في الاردن ، من اهدافها : رفع المستوى الثقافي وتوثيق عرى المودة بين جميع الطلاب .

● ألقى الاستاذ عيسى الناعوري ، صاحب « القلم الجديد »، محاضرة قيمة عن الشاعر السوري عمر ابو ريشه ، وذلك في قاعة معهد النهضة العلمي بعمان . وتخلل المحاضرة القاء مقطوعات من روائع شعر ابي ريشه .

عمان — محمود رفيق اللحام

النشاط الثقافي في العالم العربي

مصر

ما زال الادب في مصر يساير المجتمع ويستوحيه ويتناول بالعرض والتحليل والنقد واقع الاشياء والاحياء ، ولا عجب في هذه الظاهرة التي تمثل تأدية الادب المصري لرسالته الاجتماعية ، بعد ان تحدثنا في العدد الماضي من «الآداب» عن زوال تلك القيود التي فرضها العهد البائد على الآراء والافكار : زوالها على يد العهد الجديد الذي «جاء وجاءت معه الحرية للاقلام المصفدة والآراء السجينة، فانطلقت من وراء القضبان شتى الخواطر محمولة على جناح الشعر والمقالة تارة ، وعلى جناح القصة والمسرحية تارة اخرى ، وعلى جناح التصوير والموسيقى تارة ثالثة ... ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث يشعر الأدباء والفنانون انهم فيما يعبرون أحرار » .

مسرحيات الحكيم

على ضوء هذه الحقائق نسجل مظاهر النشاط الادبي والثقافي في الشهر الماضي ونبدأ بالمسرح ... أما باعث هذا اللون من النشاط فهو الاستاذ توفيق الحكيم . لقد كان انتاجه الفني الذي قدمته فرقة المسرح المصري الحديث ممثلاً في اربع مسرحيات قصيرة، هي : «دنيا المبادىء» و «دنيا الاعمال» و «دنيا المال» و «دنيا الوفاء» ، ولكنها أدرجت جميعاً تحت اسم واحد هو «صندوق الدنيا» وبهذا الاسم قدمت الى الجماهير .

اربع مسرحيات اصدق ما يقال فيها انها مشتقة من صميم المجتمع أو من واقع الحياة في مصر ، حتى ليمكن وصف الاستاذ الحكيم انه كان كاتباً « ملتزماً » وعلى التحديد في المسرحيات الاولى الثلاث... لقد رسم في مسرحية « دنيا المبادىء » صورة رجل يستمسك بالقيم في عصر تدهورت فيه القيم، ويعشق المثل في مجتمع لم يعد فيه مكان للمثل ، ويقف الى جانب المبادىء ولو تخلى عنه كل من يعرف من الناس... رجل يفضل السير في الطريق القويم وهو يعلم انه يقوده الى هاوية الحرمان ، ومع ذلك فهو صامد في وجه المغريات ولو ضاق بصموده الاهل والاصدقاء ! موظف لا يملك في الحياة غير مرتبه ولو انه حالف ضميره وتنكر لمثله لأقبلت عليه الحياة... ينظر الى اصدقائه جميعاً فيراهم وقد أصبحوا من الاثرياء وهو فقير، ولكنه لا يجب ان يفقد الشرف ليكسب المال ! وينظر الى اولاده وهم يضجون بالشكوى من اثوابهم القديمة ، ولكنه لا يريد لكي يغيروا اثوابهم باخرى جديدة ان يغير هو مبادئه ! ان توفيق الحكيم في هذه المسرحية يلتقط المشهد الاجتماعي من زاويتين : الاولى هي زاوية المتهالكين على المادة ولو خسروا كل معنى من معاني الشرف ، والثانية هي زاوية المتمسكين بالمبادىء ولو ضحوا بكل متعة من متع الحياة ... ولا يكتفي التصوير بنقل الواقع ولكنه يتجه بهذا الواقع الى شيء من المثالية !

اما «دنيا الاعمال» فتدور بحوادثها حول محور آخر او حول مشكلة اخرى من مشكلات المجتمع، وهي مشكلة الصفقات المريبة التي تتم بين الشركات وبين رجال الحكومة وتضيع بسببها مصالح الجمهور. في هذه المسرحية كشف الاستاذ الحكيم عن تلك الاساليب المنحرفة التي تلجأ اليها بعض الشركات لتصل الى ما تريد ، وأهمها الاغداق على بعض الموظفين الحكوميين بالسهرات غير البريئة وشراء ذممهم بالرشوة التي تفسد الخلق والضمير ، في سبيل التستر على تلك الشركات وما تقدم عليه من ضروب الجشع والطمع والاستغلال ... وهنا ايضاً يلتقط توفيق الحكيم المشهد الاجتماعي من زاويتين : الاولى هي زاوية هذا الفريق المستغل المخدوع ونعني به فريق المسهمين في الشركات ، والثانية هي زاوية ذلك الفريق الآخر الذي لا يتحرج من الاقدام على الخديعة ما دام يجد من لا يتورع عن المشاركة في الجريمة ! وكما رأيت هناك لا يكتفي التصوير بنقل الواقع ولكنه يتعداه الى التحذير.. وبهذا يتجه الفن بالواقع مرة اخرى الى شيء من المثالية . ان هذه المسرحية القصيرة تذكرنا بمسرحية اخرى طويلة قدمها الاستاذ الحكيم الى المسرح منذ سنوات ، ثم حدث بعد ان عرضت بنجاح لبضعة ايام ان حيل بينها وبين الجماهير... اما السبب فهو أن تلك المسرحية كانت تخدش «شرف» لصوص الشركات من طبقة الباشوات ، هذه الطبقة التي لم يجد العهد البائد سبيلاً الى انقاذ سمعتها غير مصادرة مسرحية «اللص» لتوفيق الحكيم!

وننتقل بعد ذلك الى المسرحية الثالثة وهي «دنيا المال» ، وفيها ينقل المؤلف من ساحة الحياة الى خشبة المسرح عدداً من النماذج البشرية.. أولها ثري بخيل تفنن الاستاذ الحكيم في تلوين صورته النفسية المغرقة في الشذوذ ، حتى اوشك ان يبلغ بها المدى الذي بلغه بلزاك في صورة «بخيله» الخالد مسيو جرانديه ! اما النماذج الاخرى فمنها فتاة جميلة تحاول ان تلقي الى الصيد الثمين بكل ما تملك من شباك ، ولكن الثري البخيل قد آثر ان يحبها ذلك الحب الذي يحمله للمال ، ونعني به الحب العذري الذي يحول بين العاشق وبين الاقتراب الطامع في مس المعشوق ... ولهذا لم تظفر منه بشيء تلك الغانية اللعوب ! ومن تلك النماذج ايضاً خادم البخيل الذي استخدمه المؤلف كأداة حية للصراع النفسي في المسرحية ، ثم سكرتير حزب سياسي مفلس يحاول ان يغري هذا البخيل الثري بالانضمام الى قائمة اعضائه العاملين... ويحلم الرجل بالمجد العريض والمركز الرفيع في الحياة الاجتماعية ، ولكنه يؤثر ان يكون حبه للمعشوقة

صدر حديثا

لبنان

* الجوع لا يرحم (رواية) محمد حاج حسين
* رجل سياسة (قصص) اميل يوسف عواد
* كلمة حول الرؤية (دراسة) عبد الحسين شرف الدين
* من شعر ناظم حكمت (ترجمة) الدكتور علي سعد
* تبسيط قواعد العربية (دراسة) الدكتور انيس فريحه
* كفر (قصص) نبيل شحاده الخوري
* ديوان ابن هاني تحقيق كرم البستاني
* الزباء ملكة جزيرة العرب (تمثيلية) اديب لحود
* امرؤ القيس والفتاة الطائية (») » »

مصر

* الاخوات الحزينات (قصص) نجاتي صدقي
* الف ليلة وليلة «١» (قصص) جوهر، برانق، العطار
* ما فوق مبدأ اللذة (لفرويد) ترجمة اسحق رمزي
* شاعر الشعب (دراسة) الدكتور سامي دهان

العراق

* كانت عذراء (رواية) فيصل الياسري
* ثنية الاقاصيص (قصص) الدكتور صلاح الدين ناهي
* فيض (قصص) نزار سليم
* حفار القبور (ملحمة شعرية) بدر شاكر السياب

سوريا

* سامبا (شعر) علي الزيبق
* المجتمعات الاسلامية في القرن الاول للدكتور
* حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول شكري فيصل

النشاط الثقافي في الغرب

روسيا

اتجاهات الادب السوفياتي

كتب المسيو جورج دافيدوف(١) مقالاً يتحدث فيه عن الادب السوفياتي فيقول : « ان هذا الادب لا يزال يتبع الخطة التي رسمت له منذ حركة التطهير المعروفة في عام ١٩٤٦ ، ويقوم على مراقبة تنفيذ التوجيهات في هذا الصدد رؤساء الجمعيات الادبية والنقدية المرخص لها ، وهم انفسهم يخضعون لمراقبة الرؤساء السوفيات . وينبغي للآثار الروائية والمسرحية والشعرية ان تستخدم لخير القضية الشيوعية . فدورها اذن دور دعاوة للافكار والمشاريع التي ترمي الى تثبت اركان العالم الشيوعي ونشره .

وعلى جميع المؤلفين الذين يطمعون في ان تستحق آثارهم الاحترام والتقدير والجوائز ان يأخذوا اشخاص مؤلفاتهم من الحياة الجارية ، في اثناء صراعهم من اجل بناء « عالم جديد ». وبوسع مثل هذه القيود ألا تتنافى مع الفكرة الخلاقة اذا كان المؤلفون يملكون موهبة تقديم هؤلاء الاشخاص بعيوبهم ونقائصهم . على ان النقاد السوفيات يريدون ان يكون هؤلاء الاشخاص الذين «يقومون بالحركة» من أجل تحقيق العالم الشيوعي متفوقين على الذين يعارضونها او يظلون صامتين . ويعتبر هؤلاء الجامدون آفة المراكز البناءة في الاتحاد السوفياتي ، ويهاجم النقاد احياناً بعض المؤلفين الذين يحببون مثل هؤلاء السلبيين –سياسياً– الى القراء . وهذه هي الروح التي تدفع النقاد الى ان ينوهوا بمزايا مؤلفات غوركي الرئيسية وبانحراف بعض مسرحيات تشيكوف كـ «الاخوات الثلاث». اما رواية تريفونوف «الطلاب» Les Etudiants فتمتاز بالسحر والحيوية والنضارة وتصوير كثير من روائع مناظر موسكو .

ولكن هذا لا يمنع من ان يؤخذ على المؤلف انعدام «فريق شيوعي فعال» هو العامل الهام الذي ينبغي ان تتميز به كل رواية .

ويقود «حملة الهجوم» في هذه الرواية شخص يدعى «سرج بالافين» ، بينما يتخذ الشيوعيون موقف الدفاع ، ليحترسوا من هجماته . والذي يأخذه النقاد على المؤلف ان خير مقاطع الرواية هي التي تتعلق بـ «بالافين» ، وهو يعتبر شخصياً مغرقاً في الفردية ، ومن ثم شخصاً سلبياً . وقيمة الرواية الفنية مرتبطة بهذا الشخص وبصديقته لينوتشكا ميدوفسكايا ، فكلاهما شخص نابض بالحياة ، وهذا ما لا يمكن قوله عن سائر أبطال الرواية الذين هم لسان حال النظرية الشيوعية .

ويأخذون على تريفونوف ايضاً ان العمل الجماعي في روايته ليس دائماً قوياً ومؤثراً ، ومن وجهة نظر «الواقعية الاشتراكية» فان الرجل شديد التحرر وصفاته فردية مغرقة. ومقابل هذه الرواية يستشهدون برواية «الاجتياح La Devastation» لفادايف ، ورواية «بعيداً عن موسكو Loin de Moscou » لفاسيلي اجاييف ، وكلاهما تنعم اليوم بشعبية كبيرة .

ان العالم السوفياتي قديسيه ومجرميه ، والمطلوب من القراء ان يضعوا كل فريق، دون ما خطأ ممكن ، في الموضع الذي يستحق، وألا يفتنوا بالرجال والنساء « الفاسدين» الذين يخلقهم المؤلفون . وهذا أمر يتعلق بالمؤلفين تعلقه بابطالهم . وقد قال قسطنطين سيمونوف ، الكاتب الروسي المعروف ، يوم شنت «الحرب الباردة» : « إن زمننا لا مجال فيه للاحلام الشعرية، وليس من المقبول ان يكسل فيه الكتاب حين تناديهم مهام عاجلة ومفيدة. وليس دورهم ان ينصروا «الفن للفن»، وانما ان يشاركوا بجميع قواهم في تحقيق المشاريع وإقامة العالم الشيوعي .»

ولذلك فينبغي ألا نعجب من ان يطالب النقاد الروس بان تكون القصيدة الشعرية «مزاجاً بين حياة القلب وحياة الوطن» على حد قول مايا كوفسكي. فالمطلوب ألا تختلف القصيدة عن الرواية الا بظهور شخص جديد في الخط

(١) راجع العدد ١٣٠٠ من مجلة Les Nouvelles Littéraires الفرنسية.

الجديدة وهي السياسة كما كان بالأمس، حباً عذرياً لا يجود فيه العاشق بغير اللقاء البريء الذي ينفر من «المادة» ويقتصر على الروح ! ومرة اخرى يفر الصيد الثمين مما ألقي اليه من شباك ... هذه النماذج البشرية قد نقلها توفيق الحكيم كما قانا من ساحة الحياة الى خشبة المسرح ، نقلها نقلاً واقعياً لأن نموذج البخيل قد استوحي من شخصية مصرية معروفة اشتغلت يوماً بالسياسة ، وكذلك نموذج الغانية اللعوب التي كان لها في حياة تلك الشخصية دور ملحوظ ، وكذلك النموذج الاخير لبعض رجال الاحزاب الذين كانوا يسعون الى الظفر بالثري المعروف ... نقل واقعي ولكن الفن المسرحي قد أضاف الى الواقع اشياء، حتى يلتقط المشهد الاجتماعي من زوايا متعددة تبرز من خلالها الناحية الالتزامية !

وتبقى بعد ذلك المسرحية الرابعة «دنيا الوفاء» وهي وان خلت من عنصر الالتزام الا انها لم تخل من مشكلة نفسية معقدة ، عمادها ما يقع في الحياة الزوجية من صور النفاق... زوجان يؤكد كل منهما للآخر حبه «الوفي» واخلاصه « العميق » ، حتى ليكرر حديث التضحية بنفسه في سبيل صاحبه اذا تعرض لشر يمتحن فيه الوفاء ! ويقع هذا الشر يوماً في صورة فتاة مصابة بمرض نفسي يملي عليها ان تحمل مسدساً لتقتل به أول شخص تلقاه، فاذا ما اوقعتها المصادفة التعسة في الزوجين «الوفيين» حاول كل منها ان يختبيء وراء الآخر طلباً للنجاة! ولا يكتفي بهذا بل يرمي صاحبه بكل تهمة يمكن ان تثبت للفتاة المريضة انه أحق منه بالقتل ؛ حتى اذا اطلقت الفتاة الرصاص واكتشف الزوج الاكثر «وفاء» ان المسدس محشو بمادة تدوي ولا تميت ، هتف من اعماقه في صوت يفيض بالشجن والمرارة : تزعمين انك لم تقتلي احداً يا آنسة ؟ يكفي انك قتلت سعادتنا الزوجية !

هذه هي المسرحيات الاربع التي عرضتها فرقة المسرح المصري الحديث للاستاذ الحكيم ، ومما يذكر انه قد صب حوارها في قالب اللغة العامية حتى يقترب بها من ذوق الجماهير ، ولا بد من الاعتراف بان هذا المسلك قد حقق الغاية المرجوة من تذوق النظارة «لصندوق الدنيا» وما يكمن في الحوار من لمحات نفسية وأهداف اجتماعية ... واذا كنا لم نتحدث هنا عن العمل الفني من ناحية المحاسن والمآخذ فلأننا في مقام العرض والتسجيل ولسنا في مقام النقد والتحليل !

النشـاط الثقـافي في الغـرب

الاول : هو المؤلف نفسه مع افكاره وانطباعاته ، وانما يترتب على القصيدة شأنها في ذلك شأن الرواية، ان تلهم الحياة وتكشفها في بناء هذا العالم الجديد.

وتأييداً لهذه النظرية ، يستشهدون بالكلاسيكيين من الادباء . فقد كان بوشكين وبيالنسكي يطلبان في القصيدة وضوح الاشخاص وتفصيل الموضوع وعلى هذا فان « الراعي Le Berger » لـ « ن. رينكوف » مبهم جداً ، وكذلك صديقته التي ليست هي « الا ظلاً وراء السياج » . ففي هذه القصيدة آثار من الاهتمام الجمالي . وقد بدا استنكار هذه النزعة نافذاً وقوياً في نقد قصيدة « احب اوكرانيا » لـ «ف.سوسورا».

والواقع ان مجلة «زفيازدا» (النجمة) قد شُجبت بشدة حين نشرت هذه القصيدة . والذي أخذ على مؤلفها انه لم يكن يفكر باوكرانيا القديمة ، تحت النير القيصري ، او اوكرانيا الجديدة السعيدة حيث تكثر الكولخوز والمصانع والمناجم، وإنما كان يتغنى باوكرانيا الابدية، بجمالاتها الخالدة وبلابلها فيما وراء الزمان .

على انهم لا ينتقصون من قيمة شعر سوسورا عامة ، وانما يهاجمونه هنا لأن اوكرانيا التي تغنى بها تنعزل عن سائر الجمهوريات السوفياتية بروح قوية يعدونها رجعية او متطرفة. ويذكرون في هذا الصدد ان واجب الكاتب هو ان يقوم بحملة دعاية لا تفتر للوطنية السوفياتية عامة لا للاقليمية .

★

إن الفكر الخلاق يفقد دائماً اندفاعه اذا لم يكن حراً كل الحرية في حركاته . ولئن كان من المبالغ فيه ان نؤكد أن اي أثر قيم لا يمكن أن يصدر عن فكر «موجه» ، فمن الصعب جداً ان ننكر ان الادب السوفياتي يعاني من هذه الوصاية ، وصاية الدولة عليه . فهل يكون بوسع الوسائل التي يلجأون اليها لدفع الادب السوفياتي وازدهاره ، في هذا الاطار القاسي الذي يفرضونه عليه ، أن يضاعفوا روائع الآثار الادبية، هذه الروائع التي يلاحظ النقاد ندرتها ؟

وفي جمعيات الكتاب السوفيات تقوم اليوم دعوة حارة الى تجويد «الشكل» والعناية به ؛ وهم ينصحون ، في هذا الصدد ، بمطالعة الآثار الكلاسيكية مطالعة عميقة ، في سبيل الوصول الى تعبير أدق وأبرز . وترى الكتاب يلاحقون باهتمام اخطاء الاسلوب واللغة في مناقشات مستمرة . وكثيراً ما يحللون تحليلاً مفصلاً آثاراً حديثة وينقدونها في مؤتمرات واجتماعات أدبية خاصة .

ثم ان الصحف الادبية تخصص مجالاً واسعاً لانتقادات القراء ، وتنشر الصحف الاسبوعية والشهرية الكبرى رسائل تردها من مختلف البلاد السوفياتية، وهذا تجديد مبتكر جدير به أن يثير الكتاب ويلهب نتاجهم ؛ وغالباً ما تكون ملاحظات القراء عميقة وذكية .

الولايات المتحدة

لمراسل « الآداب » الخاص

كانت صناعة الكتب رابحة خلال عام ١٩٥٢ المنصرم، وكانت ثمراتها أحسن قليلاً، بالنسبة الى معظم الناشرين واصحاب المكتبات مما كانت عام ١٩٥١، فقد بيع من الطبعات الشعبية لبعض الروايات البوليسية –روايات أرل ستانلي غاردنر Erle Stanley Gardner وميكي سبايلن Spillane مثلاً – ما يزيد على مليون نسخة. ولكن مثل هذه الطبعات الرخيصة غير المجلدة ، والتي تباع بخمسة وعشرين سنتاً –أي ربع دولار– عجزت هذا العام عن أن تضاهي في ميدان الرواج كتاباً يعتبر منذ مدة غير قصيرة أكثر الكتب رواجاً في الولايات المتحدة.. وليس ذلك الكتاب غير الطبعة المنقحة للكتاب المقدس الحاملة اسم الملك جيمس. فقد بيع من هذه الطبعة خلال ثمانية أسابيع ليس غير مليون وستمائة الف نسخة، ثمن كل منها ستة دولارات أميركية !..

أما في ميدان القصة الفنية فكان الكتاب الفائز بقصب الرواج هو : The Caine Mutiny لهيرمن ووك Wouk ، وقد نال هذه المرتبة نفسها عام ١٩٥١ واحتفظ بها عام ١٩٥٢. أما المرتبة الثانية من مراتب الرواج فقد حظيت بها هذه السنة قصة « الكأس الفضية The Silver Chalice » لتوماس كوستين Costain .

فاذا انتقلنا إلى دنيا الأدب غير القصصي وجدنا أن الكتاب الذي نعم بأكبر حظ من الرواج (باستثناء الكتاب المقدس، والنشرات الحكومية عن العناية بالطفل الخ) هو «رجل يدعى بطرس A Man Called Peter» لكاثرين مارشال، الذي نشر في أواخر سنة ١٩٥١. وجاء في المرتبة الثانية «كتاب أميركة السري » لجاك ليت Lait ، ولي مورتيمر Mortimer أما أروج الكتب الموضوعة للجيل الطالع فكان يحمل اسم « تيكس ودماه » Tex and His Toys لأزا روث ناست Nast ، ويتوقع ناشروه أن يصل بيعه إلى ١،١٠٠،٠٠٠ نسخة بعد عيد الميلاد . ومن اسف أنه صدرت خلال عام ١٩٥٢ مئات من الكتب القيمة، غير هذه التي أشرنا اليها ، ولم يبع من كل منها غير بضعة آلاف من النسخ، مما أوقع في نفوس كاتبيها البارعين وكاتباتها البارعات خيبة أمل مريرة .

وكان كتاب «شاهد Witness » لتشامبرز Chambers أكثر الكتب إثارة للجدل والنقاش في العام الفائت. في حين كانت « سيرونيا ، تكساس » Sironia, Texas لماديسون كوبر Cooper ، وهي رواية في مجلدين تعالج الحياة الجنسية في تكساس، أكثر الكتب إثارة لعجب الناس. أما الكتاب الذي الذي أثار أعنف عاصفة من النقد فكان كتاب أرنست هيمنغواي Hemingway الموسوم بـ « الرجل العجوز والبحر The Old Man and the Sea » .

شرح العلايلي

للأستاذ عبدالله العلايلي نظرات في فهم الشعر لا يدركه فيها زميل من زملائه النقاد ، بل لا يدركه فيها قائلو الشعر أنفسهم.. وعندما شرح قصيدة الدكتور بشر فارس « الى زائرة » في الزميلة « الأديب » منذ بضع سنوات لم يتردد الدكتور بشر فارس في ان يعلن ان الأستاذ العلايلي نبهه الى معان في القصيدة، يعجب هو صاحبها كيف انه لم يتنبّه اليها !..

وفي العدد الأول من « الآداب » اجاب الأستاذ العلايلي احد القراء عن شرح بيت شوقي « قسماً بثنايا لؤلؤه » . وقد اثار هذا الشرح مناقشات كثيرة ، ولكن احد ادبائنا البارزين، – وهو لا يود ان يعلن عن اسمه – قال لنا :

– كنت افهم بيت شوقي المذكور.. ولكنني عندما قرأت شرح الأستاذ العلايلي اصبحت ارى نفسي عاجزاً عن فهمه !

الاجتهاد

كان موضوع المحاضرة « التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث » .

وكان المحاضر هو الدكتور صبحي المحمصاني ، وكان ذلك منذ سنتين في قاعة « وست » في جامعة بيروت الأميركية . وكنت احد المستمعين الذين اعجبوا باطلاع المحاضر الواسع وعرضه الوافي للموضوع ، وخاصة حين افاض في الحديث عن « الاجتهاد » في الفقه الاسلامي .

وقد اضطر ، بطبيعة الحال ، الى ان يردد كثيراً لفظة « اجتهاد » ومشتقاتها في كلامه ، مما دفع احدى السيدات ، وكانت ترافق ابنتها ، الى ان تلتفت اليها حين غادرنا القاعة بعد انتهاء المحاضرة وتقول لها :

– عليك يا ابنتي بالاجتهاد ، ألم تسمعي كم تحدث المحاضر عن الاجتهاد . . !

سوء تفاهم

ليس بين المشتغلين في الصحافة في بيروت من لا يعرف الجابي الأرمني الذي ترسله محلات الحفر والزنكوغراف المعروفة باسم « تيتو » ، لتحصيل الديون ..

لقد جاء هذا الجابي مرة الى « دار العلم للملايين » يحمل كشفاً بالحساب وقدمه الى الأستاذ منير البعلبكي ، الذي ما لبث ان قال بعد ان القى نظرة عليه :

– لماذا لا تعاملوننا مثل « الآخرين »؟نريد منكم ان تعدلوا لنا الأسعار لنكون مثل الآخرين . .

ومضت ايام ، واذا بالجابي يلتقي بمدير الدار ويخبره بانه ظل يومين يبحث في الدفاتر عن مسيو « آخرين » فلم يجده ! وان « آخرين » هذا كذب على الأستاذ البعلبكي حين قال له باننا نعامله معاملة خيراً من معاملتنا لكم . .

جامعي عتيق

دخل مندوب مجلة « الكلية » التي تصدرها جمعية متخرجي الجامعة الأميركية ، على الأستاذ موسى مبارك وزير الخارجية اللبنانية ، وسأله بعض الأسئلة ، بوصفه متخرجاً من الجامعة الأميركية .

وبعد ان اجاب الأستاذ مبارك على الأسئلة الموجهة اليه قال للمندوب :

– ولكن من ذا الذي قال لك بانني من متخرجي الجامعة الاميركية ، فهذا أمر لا يعرفه إلا القليل.

فأجابه المندوب: – أخبرني بذلك الاستاذ فؤاد صروف.

عندئذ قال له وزير الخارجية :

أرأيت إلى الشعر الأبيض الذي يكلل رأسي والى خطوط الشيخوخة التي بدأت تظهر في وجهي ? إنني كنت طالباً من طلاب الاستاذ فؤاد صروف سنة ١٩١٨ في الجامعة الاميركية..

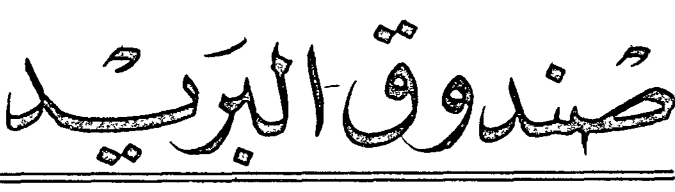
الدور الرابع

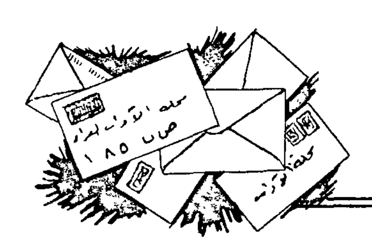
يروي الاستاذ مصطفى فروخ الحكاية التالية :

كان احدهم يسكن الدور الخامس في احدى البنايات ، ولكنه تعود حين يعود إلى مسكنه أن يترك المصعد في الدور الرابع ثم يأخذ السلم الى الدور الخامس . وقد تساءل جيرانه عن ذلك فالمصعد لم يكن معطلاً بل كان صالحاً للاستعمال في جميع الأدوار ..

كان السبب بسيطاً جداً ، ان هذا الرجل كان قصيراً ، فكان يمد اصبعه الى ازرار المصعد ، فلا يطال الا الزر الرابع..

والاستاذ مصطفى فروخ عندما يروي هذه الحكاية لا يقصد الاستاذ العلايلي ، ولا يفكر بالدكتور سهيل ادريس، وطبيعي انه لا يقصد نفسه مطلقاً !...





قصة يد عربية[1] !

ابن مقلة يبكي يمينه...

ابو علي محمد بن مقلة !

هو أشهر من كتب الخطوط الجميلة في عصره. وكم فتن الناس بعصير حبره، وبهرهم بسلاسل خطه ومفاتن سحره . وهو – على ما يروي التاريخ – اول من نقل الكتابة من القلم الكوفي الى الاساليب والصور المعروفة حتى عصرنا اليوم ، وقد ضرب المثل في روائع فنه وجمال خطه حتى اذا رأوا كاتباً او شاعراً حسن الخط قالوا: خطه كخط ابن مقلة.

وفي العام الـ (٣٢٢ هـ) غضب عليه في بغداد (الراضي بالله) فعزله ظلماً وحسداً . وامر وزيره (ابن رائق) بقطع يده اليمنى ، فقطعت ...

وهكذا عاش (ابن مقلة) زمناً وهو حزين القلب دامع المقلة ينوح على يده الحبيبة ويقول :

« خدمت بها الخلفاء والوزراء ، وكتبت بها القرآن دفعتين ... ثم تقطع كما تقطع أيدي الأئمة واللصوص ? »

وكان في بعض خلواته وتأملاته يردد هذا البيت:

ليس بعد اليمين لذة عيش   يا حياتي بانت يميني فبيني!

وقد تألمت – يشهد الله – لحظ هذا الخطاط النابغة، وخسارته الادبية البليغة البالغة . فنظمت حزناً على يده الغالية الابيات التالية:

بانت يميني يا حياة فبيني   فأنا حزين النفس على يميني
ما لذتي في العيش مذ قطعوا يدي
ومن الكتابة بعدها حرموني
كالجدول الرقراق يقطع ماؤه
ويكف بلبله عن التلحين

●

قطعوا يدي-سلمت يدي-فلكم أتت
فوق الطروس بروضة وغصون
وبها كتبت كريم (قرآن) زهت
آياته كالجوهر المكنون
كم صنت أسراراً لهم بيراعتي
وحفظت دولتهم وما حفظوني
قد كانت الخلفاء تهوى ان ترى
قلمي وتنقش في القصور فنوني
يسعى إلي كبارهم وصغارهم
ليروا جمال الخط والتحسين
اغنيتهم بروائعي وبدائعي
وأنا اسير كتابتي وانيني
وخدمتهم زمناً طويلاً ساكباً
فوق الصحائف من شعاع عيوني!

●

ما اتعس الادباء في اوطانهم
وأقل حظ النابغ المسكين
يهب الحياة الى النفوس وينثني
بعد الجهاد بصفقة المغبون
يا ويحهم قطعوا يميني عنوة
ما هكذا تجزى يمين امين
قطعوا يميني مثلما قد قطعت
ايدي لصوص او بنان خؤون !

●

حزناً على كفي انوح لأنها
ذاقت منيتها قبيل منوني
ولسوف انشد بكرة وعشية :
« بانت يميني يا حياة فبيني » !!

حليم دموس

(١) اقرأ « قصة يد ...» بقلم الاستاذ بهيج عثمان في الصفحة ٣٦ من العدد الاول من «الآداب»

قسماً بثنايا لؤلؤها ...

أجاب العلامة العلايلي على سؤال وجه اليه عن معنى قول شوقي:

قسما بثنايا لؤلؤها   قسم الياقوت منضده

وقد كان السائل قال «لؤلؤه» كما يغني عبدالوهاب وصحة البيت كما روى العلامة ، ولا ثقة في رواية عبدالوهاب، إذا كان السائل قد وثق فيها، كما انه لا تجوز الشفقة به لموافقة الناحين .

وقد سئلت ان أقول رأيي في معنى البيت، وأنا استأذن علامتنا فأقول : ان شوقي يقسم بالثنايا الموصوفة بان لؤلؤها قد جمعه ونضده من فرق ياقوتها وقسمه ، ويشير شوقي باللؤلؤ الى بياض الاسنان وبالياقوت الى تفاريق اللثة الغضة الحمراء بينها ، والعلايلي قرب من هذا ولكنه ذهب وراء مذهبه في التعمق فصعب على السائل .

والصعوبة قد نشأت من تأخير كلمة «منضده» إذ هي مبتدأ ثان «وقسم الياقوت» خبره، والجملة خبر لؤلؤها. وهناك « أل » في كلمة الياقوت وكان أوضح لو قال شوقي ياقوتها .

واذن فليس في الكلام تشبيه ولا ايهام، والذي يرجح ما ذهبت اليه الابيات التي تلي البيت وقد أوردها العلامة في رده، وفي كل بيت منها مقسم به ولكل مقسم به صفة، وقد جرى شوقي فيها على سياق ونمط.

وقد جاء في اجابة العلامة – ولعله سهو من المطبعة – ما يشير الى ان كلمة ثنايا منونة بدليل الفتحتين المكتوبتين على الألف. والرأي انها كلمة لا تنون، ويمنع من تنوينها انها ليست ألفاً بل هي ياء أعلت كياء خطايا . والله تعالى أعلم .

عبد العزيز سيد الاهل

رأي آخر ...

قسماً بثنايا لؤلوئه   قسم الياقوت منضده

المتعارف عند أئمة النحو والبيان ، ان كل ما لا يعرب لا يستقيم معناه ولا يفهم، ولكي نفهم هذا البيت على وجهه الصحيح يجب ان نعربه . وقبل الاعراب لا بد لنا من تفسير كلمة ثنايا ونبين ما فيه من تشبيه واستعارة .

جاء في المعجم: ثنايا واحده ثنية وهي اربع اسنان في مقدم الفم ثنتان من فوق وثنتان من أسفل .

ولؤلؤ حبات بيضاء ثمينة معروفة تؤخذ من حيوان اللؤلؤ البحري، تشبه به الاسنان وهو من باب اضافة المشبه الى المشبه به بعد حذف الاداة . الياقوت استعارة للثة والجامع هو الاحمرار .

الاعراب : قسماً مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره اقسم . بثنايا : جار ومجرور متعلق بالفعل، لؤلوئه مضاف اليه والهاء ضمير مضاف اليه. قسم : «مصدر» بدل من « قسماً » كما في قول الشاعر :

على حين الهى الناس جل امورهم
فندلاً زريق المال ندل الثعالب

الياقوت مضاف اليه . من باب اضافة المصدر الى مفعوله اي مجروره بعد حذف عامل الجر . منضده : فاعل المصدر «قسم» والهاء مضاف اليه.

المعنى : اقسم بثنايا ، اي مقدم أسنانه المشبهة باللؤلؤ؛ كقسم منضد الياقوت بياقوته الثمين. وأراد بالياقوت الاحمرار بين ثنايا المقسوم به فكأنه مفلج الثنايا أي مفرقها وهي صفة الحسن عند العرب ، والصورة : ان بين كل سن وآخر احمراراً كأنه الياقوت .

عيسى سابا

قرأتُ العددَ الماضي من "الآداب"

بقلم
رئيف خوري

هذا الباب الذي تقدمه « الآداب » تطلق لكاتبه الحرية كلها في الادلاء برأيه حول مقالات المجلة ، دون ان يكون في ذلك أي تعبير عن رأيها الخاص . فعلى الكاتب وحده تبعة ما يقول ، ولكل قاريء الحق في الرد على الكاتب .

هذه السعادة « الليتيوتانغية »

رعى الله أبا عثمان – اعني الجاحظ – لقد أنقذني ! طلبت نعتاً انعت به العدد الفائت من « الآداب » – أرجو ان لا يكون فاتك ايها القاريء ! – فما وجدت خيراً من العبارة الجاحظية في وصف الكتاب « إناءٌ شُحن مزاحاً وجداً » . على ان المزاح كان ممحواً أو كالممحو من «الآداب» ، إلا أن يكون هو، مثلاً، زعم كاتب الصين لين يوتانغ «ان السعادة تكاد تكون بالنسبة اليه شخصياً مسألة هضم... دلك بأنه اذا تحركت أمعاء المرء تحركاً نظامياً كان سعيداً » . اكبر الظن ان هذه ليست « فلسفة من الصين » – كما يقول صاحبها – ولكنها احرى بان تكون آية تنقش على مدخل مستشفى حُشِد فيه المصابون بالامساك من كل الامم، كما نقشت قديماً آية « اعرف نفسك » على مدخل هيكل «دلف».

ومن الخير ان يكون حظ « الآداب » من المزاح ضئيلاً يسيراً . فقد طالت الحقبة التي زعم فيها الزاعمون ، أن قراءنا معرضون لتلبك في جهاز الهضم العقلي ، وأنهم لا يسعدون الا بما يخف من الفكاهات على المعدة الدماغية (عفواً) انما لحقني أثر من عبارة السيد لين يوتانغ في السعادة !

اذاً ، كانت «الآداب» في عددها البكر « إناء شحنَ جداً ، ووعاء مليء علماً، وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء، ومن لك بناطق أخرس وببارد حار ! » الى آخر ما دفقه يراع ابي عثمان في وصف الكتاب على أمتع ماتصوره واحبه ان يكون.

فما أحوج من يقع من نصيبه التعليق على هذا العدد الحافل الى عدد لا يقل عنه . ولكن ، كما قال القائل : « ما لا يدرك جله لا يترك كله » ، أم تراه قال : « ما لا يدرك جله لا يترك كله ؟ » على أي حال ، لقد أوجد لنا العذر .

رسالة الآداب – أدب « الالتزام »

اعجبتني من الدكتور سهيل ادريس هذه البلورة الواضحة للرسالة التي أرادها « للآداب » . فهو يجهر بالدعوة الى الادب الفعال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع » وينادي « بأدب الالتزام الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه »واعترف له بان « يتصادى » هذه حيرتني وقتاً، فمن معانيها على ذمة المعجم: المعارضة والمقابلة والمعادلة والمداجاة والمداراة والمساترة والاهتمام بالشيء. واستغربت ان يكون المراد واحداً من هذه المعاني. ثم فطنت الى ان الكاتب إنما نظر الى الصدى بمعنى الصوت الذي يردّه الجبل على المصوّت فيه . فقصد بقوله : « الادب الذي يتصادى مع المجتمع» ادباً يتبادل الصدى مع المجتمع ، فيدوي في المجتمع صداه كما يدوي فيه صدى المجتمع . وإنني لمن يوافقون على الانتفاع بأقصى مايتيحه كيان اللغة العربية من تصريف واشتقاق في سبيل استحداث ألفاظ جديدة تدور في الاستعمال . ولكني اقترح ان تشرح كل كلمة مستحدثة من هذا النوع ، كي تسرع اسراعاً الى فهم القاريء ، وكي تبرز له بروزاً يرسّخها في ذهنه فيساعد ذلك على نشرها وإدخالها حظيرة الالفاظ الكتابية اذا استوفت شروط اللفظة المستحقة الحياة .

يريد الاستاذ ادريس ، في وضوح وإصرار ، أدب التزام ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه ، ادباً فعالاً يتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه . وليس الاستاذ ادريس هو الذي يريد ذلك وحده. فالدعوة إلى أدب « موثق الاواصر بالمجتمع » «ادب انصوائي لا انطوائي ولا انعزالي » ، « ينبثق من صميم المجتمع » و « لا يقبع في برج عاجي » و « يجابه مشاكل المجتمع الملحّة » و « يوجّه المجتمع» الى آخر صور التعبير التي يُقلب عليها هذا المعنى الواحد، دعوة أصبحت نمطاً من أنماط الكلام شائعاً بين الادباء ولا شيوع حديث الازياء بين النساء . على ان حديث الازياء هذا قد يتنوع ويخرج من النطاق الرتيب الممل ، وينقلب آخر الامر الى عمل، فنرى اثواباً تفصّل وتخاط. ولكن يظهر ان حديث هذا الادب غير الانعزالي ، الذي ينبثق من صميم المجتمع ، لا ينتهي ولا

يتبدل ، ولا يحول الى عمل كيا يبدأ فعلاً انتاج مثل هـذا الادب . حقاً ، لقد طال حديث الطهاة عما سيطبخون لنا ، فليشرعوا في الطبخ !

وبعد ، ففي رأيي ان هذه الدعوة الى ادب اجتماعي — وإن لم اكن براء منها — دعوة لا تخلو من الوهم والايهام . فالادب في كل حال ، وفي كل مراحل التاريخ ، نتاج اجتماعي مادام هو صنيع بشر ، وما دامت مادته هي مادة الحياة التي يحياها البشر وانعكاساتها وظلالها في الخيال والحس البشريين . لنتصور ما شئنا من صنيع أدبي يبدو اشد شيء انقطاعاً عن المجتمع ، ثم لنتعرف منشأه وعصره على نحو ما تكون المعرفة المعمقة ، وانا الضامن ان نجد ذلك الصنيع الادبي متصلاً بمجتمعه ، وله مغزى اجتماعي يؤول الى موقف انسجام او معارضة من مجتمعه .

وهنا لا بد ان يسرع قائل الى القول : « فما دام الأدب نتاجاً اجتماعياً في كل حال ، وما دام الأديب لا سبيل له الا ان يتناول مادة لأدبه من المجتمع ، فلم لا يفعل ذلك ، واعياً ما يفعل ؟ ان هذا هو ما ندعو اليه ! » ولكن من ذا الذي زعم ان الأديب حظر عليه ذلك ؟ على ان تاريخ الادب وتجارب الادباء تشهد بأن اروع الآثار الادبية اكثر ما تكون مصادفات وُفق اليها الادباء على غير إدراك منهم ، برغم ان المصادفات لا تخدم الا النفوس المهيأة كما قال الحكماء . وبعبارة اخرى ، ان النقاد الكبار ، الذين يعون حق الوعي شروط العمل الادبي ، من حيث الشكل والقالب ، ويعون حق الوعي ما يريدون ان يضمّنوا هذا القالب والشكل من معنى اجتماعي ، قلما كانوا ادباء كباراً ، وقلما كان ادبهم في المستوى الرفيع . وانما هو ادب تقرأه فتقول انه مفيد ، وافٍ بالشروط ، وانه قد صُنع وفق الاصول ، إلا انك لا تحسه مع ذلك ممتعاً رائعاً ، ولا تظفر منه بذلك الطرب الذي يشيعه في أجزاء النفس الادب الممتع الرائع حقاً .

وهكذا نرى ان ما نريده للأديب من عنصرٍ نسمّيه وعياً اجتماعياً لرسالة يبثّها خليقٌ في أفضل الحالات ان يجعل من الاديب ناقداً . فأما في الحالات الاخرى فيجعله صحافياً وربما حطه الى درجة وكيل إعلانات . ذلك إلا أن يكون الاديب عبقرياً يستطيع أن يجمع بين الوعي وتلك النشوة التي لا أدب من دونها ، ويمزج بين المنفعة والمتعة والروعة .

ثم يبقى أمر ، وهو حقاً عظيم الخطر : من ذا الذي يختار للأديب رسالته الاجتماعية ، تلك التي نريده أن يبثّها بأدبه ؟ أهو الذي يعي تلك الرسالة بنفسه ويختارها لنفسه مقتنعاً مطمئناً ، أم أنها تُفرض عليه من حكومةٍ أياً كانت ، تسُد عليه سبل التعبير إلا أن توافق رسالتـه هواها والا ان يطبّل ويزمّر لاعضائها . إن من المؤسف حقاً أن يكون الدعاة من ذوي السلطان الى أدب اجتماعي ، لا يعنون في الحقيقة أدباً اجتماعياً — لان كل أدب هو اجتماعي كما قلنا — وإنما يعنون ادباً حكومياً ، أو ما يلحق بنوع الادب الحكومي من ادب حزبي ضيق ، إذ ما من حزب يحترم ذاتـه الا وهو يسعى ليصبح حكومـة . وليس من الاسراف أن نقول ان الادب الذي يكتفي بان يوصوص من نُويفذة حكومة أو حزب هو شرٌ من الادب الذي ينظر من نافذة برج عاجي .

وهذا في الحقيقة أوجه الأسباب التي حملتنا على ان لا نقبل الدعوة الى ادب « الالتزام » على علاتها .

الأدب ، وإن كان اجتماعياً ، إنما هو فعل فردٍ لا يقوم به إلا من خلال نفسه . فالأدب صنيع نفسي ، « عملية » نفسية ، لا مفر ولا مناص [1] . ومن هنا صدق الذي قال إن في الأدب إطلاقاً ، عنصراً غنائياً لا يستغنى عنه . وبذلك يختلف الأدب عن كل عمل آخر ، يهيء لك الطاهي المدرّب لوناً من العجة دون ان يتكلف إلا حركة يدوية ، ومع هذا تأكل عجة شهية . ويملي عليك الكيمي الممرن فصلاً في العناصر ، في غير ما عناء عقلي شديد ، ومع هذا تقرأ فصلاً موفقاً في موضوعه . ولكن الأديب ، بالغاً ما بلغ ، ينبغي له في كل مرة يكتب ان يعبىء ذاته التعبئة النفسية التامة التي يتطلبها الانتاج الأدبي . فالانتاج الأدبي يستعصي برغم التكرار ان ينقلب الى عمل آلي ، أو عمل عقلي بسيط يكتفي بالتناول من الذاكرة . ومن هنا كان الأدب لا يخضع لأن يكون « بضاعة » ينتجها الأديب « تحت الطلب » على قـدر مرسوم ونوع معلوم . ومن هنا كان الأدب لا يسخـّر للتقنين .

فاذا التزم الأديب فليلتزم الصدق لنفسه . واذا التمس أدباً اجتماعياً واعياً فليلتمسه من خلال نفسه : أي من خلال تفاعل نفسه مع مجتمعه تفاعلاً حراً بقوة وصدق وعمق . ثم فليذكر ان الأدب اجتماعي ، فليس شيء انساني غريباً عنه !

هذه بدهيات في الأدب أصبح التنبيه عليها ضرورة حيوية

---

(١) بهذه المناسبة ، أهنيء الآداب على هذا الباب الذي سمته « النشاط الثقافي في العالم العربي » ، وأشير بوجه خاص الى ما حمل النبأ من أصداء مناظرة دراسة بين بعض أدباء بغداد على هذا الموضوع الذي نعالجه في مقالنا ر . خ .

للأدب في وقت باتت الدعوة فيه الى أدب « الالتزام » زياً من الأزياء. وأعيد القول اني لست براءً من هذه الدعوة، واكبر الظن اني من هنا أبحت لنفسي الحرية في نقدها.

والتكسب!

ولقد كنت حقيقاً ان أستغني عن هذه الاطالة في أدب « الالتزام » بما كتبه الأستاذ ميخائيل نعيمه تحت عنوان « مجد القلم »، فانه قد سبقني الى كثير من الخواطر التي ساورتني وجلاها بافضل مما جلوتها. ولشد ما أعجبني تحذيره الأدباء الناشئين من الاغترار بالشهرة والتعلق بحبالها. فكما يؤذي الأدب ان يصبح أداة تطبيل وتزمير، كذلك يؤذي الأديب إذا هو أخذ بالتصفيق والترويج لشخصه.

على أني كنت أود من الأستاذ نعيمة ان يلحق بوصيته للأدباء الناشئين ما يحذرهم به من التكسب، ويفهمهم به ان الأدب لا يطيق ان يكون وسيلة معاش!

أما كيف يعيش الأديب، فتلك مسألة أخرى كما يقولون. المهم: ان الأدب لا يتحمل ان يكون وساطة ارتزاق، فذلك يفسده ويصرفه عن قصده.

الفصحى أداتنا

والفصحى كنت أود لو ظفرت من هذا العدد من«الآداب» بأكثر من هذه الملحوظة العابرة التي علّق بها على ما جاء من حوار بالعامية في قصة « الكسيح » للاستاذ شاكر خصباك: فالفصحى هي أداتنا التي نؤدي بها انتاجنا الأدبي عربياً في متناول قراء العربية كلهم. ذلك ان العامية ليست بلغة جامعة، فضلاً عن انها لا تنهض بما تنهض به الفصحى. واني لاتمنى على «الآداب» ان تقوم بحملة في سبيل اللغة الفصحى، تدعو الى استعمالها لغة حوار في حلقات المدارس. فمن المعيب حقاً ان يكون الكثير من أساتذة الدروس العربية في المعاهد الثانوية، والجامعات مع ما فيها الجامعة اللبنانية، يلقون الشروح بالعامية ويأذنون لطلابهم ان يناقشوهم بالعامية.

وبهذه المناسبة، يطيب لي ان أعرب للاستاذ شاكر خصباك عن سروري بقصته، فان السرد فيها طليّ والموضوع قيم. ولكني لم أفهم لمَ أصرّ على ان يكون كلام بطلي قصته بالعامية، بينا كان يخاطبهما هو بالفصحى. لو انه جعل كلامه هو ايضاً عامياً، ان لم يشأ ان ينطق الثلاثة بالفصحى، لبدا لي صنيعه اوفر حظاً من التآلف والانسجام.

وثمة ملحوظة أخرى. ان قصته ذات مغزى اصلاحي جتماعي. ومع ذلك فقد جعل فيها المجتمع العراقي يخلو من مُطالب بدم القتيل يلح على تعقب الجناة وتنفيذ العدالة فيهم، حتى كانت الخاتمة ان شنق الولد الكسيح نفسه! حقاً، قد يحصل ذلك في الواقع. ولكن قصة يراد بها ان تكون اصلاحية اجتماعية، لا يصح أن تخلو من جانب ايجابي يمثل النواة للاصلاح المنشود، والا وقع اليأس من الاصلاح. فأين الجانب الايجابي في هذه القصة؟ اني لم أجد فيها الا المظلمة صارخة وقعت، ثم لم أجد بصيص نور يبشر بامكان وقف مثل هذه المظلمة ان تتكرر. كلا، لا يجوز تصوير مجتمعنا على أنه خلا ممن يغضبون للحق.

الى الاستاذ سعيد تقي الدين

ومثل هذه الملحوظة تصدق على قصة الاستاذ سعيد تقي الدين « المرحوم ». فانني لا ارى طبيعياً ان يكون هذا هو حقاً شأن ابو توفيق، ثم لا يوجد من يشعر بانه رجل نكب وظلم، فتجب رحمته. وما ارى الاستاذ تقي الدين الا مسرفاً في تسويد اللوحة حين يزعم ان الجبليين« لولا تأدبهم بالحديث، وممارستهم لمظاهر الاحترام، لافنى بعضهم بعضاً، فان نفوسهم يغمرها الحقد والتحاسد والتباغض » الخ..

الى الاستاذ فؤاد الشائب

ثم انت ايضاً تسرف يا صاحبي في تسويد اللوحة. « هبطت من جنتي وانحشرت في البشرية الفانية. حملت هراوتي واردت ان أقتل خوفاً من ان أُقتل.. على انني عندما اجلت الطرف حولي لم ار سوى كل صدر كثّ الشعر، وكل ساعدين غوريليين، وهراوات ضخمة». وقانا الله شر الموظفين عندما يتزاحمون على الوظيفة، ويتدافعون بالارجل والايدي والمناكب تدافعاً هستيرياً محموماً، بل عندما يكلبون ويعض بعضهم اعقاب بعض، كما تقول ومع ذلك، فالموظفون يا صاحبي يبررون ان تصور بيئتك بهذه الصورة البشعة. وانك لتقع في التناقض حين تريق على بيئتك مثل هذا الصباغ الكريه، ثم تصدر عما صدرت عنه في سائر مقالاتك من حب لبلادك وغيرة عليها. حقاً، انها لمأساة نفس!

رئيف خوري

فهرست

العدد الثاني – شباط (فبراير) ١٩٥٣

بيانات اداريه : يبدأ الاشتراك السنوي من اول ك٢ – تدفع قيمة الاشتراك مقدماً – قيمة الاشتراك : في سورية ولبنان ١٢ ليرة؛ في الخارج: جنيه استرليني ونصف أو ٥ دولارات؛ في الولايات المتحدة: ١٠ دولارات؛ في الارجنتين مثاريال – توجه المراسلات إلى العنوان التالي: مجلة الآداب، بيروت، ص ب ٥ ١٠٨



ثمن النسخة : ايرة لبنانية